مختارات 14

# قرط فضي صغير

مختارات قصصية

جار النبي الحلو

جار النبى الحلو

# قـرط فضى صغيــر

مختارات قصصية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
مختارات

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. سيد خطاب
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
مدير عام النشر
ابتهال العسلى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• قرط فضى صغير
• جار النبى الحلو
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2014م
• تصميم الغلاف:
أحمد فؤاد صالح
• المراجعة اللغوية: ياسمين مجدى
• رقم الإيداع: ٢٦٥١٤/ ٢٠١٤
• الترقيم الدولى: 978-977-92-0044-6
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

14

سلسلة شهرية تعنى بنشر مختارات أدبية
لأبرز الكتاب والشعراء المصريين

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
أحمد سويلم
مدير التحرير
حامد أنور
سكرتير التحرير
شعبان ناجى

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

# قـرط فضى صغيـر

# من مجموعة قمع الهوى 1994

# هـــــي

في عينيها دفء وطيبة واتساع. قلت لها أن الوطن واحد.

تمتمت: وطن!!

وقلت لها لا أحب سوى ما أعرفه. هم والنهر. قدمتُ لها نفسي والأنبياء. أعطتني قلبها، وهامت به روحي في بساطتها الخضراء، وغاصت به روحي في الخليج. كنت جائعاً، فشربنا الشاي، عبثت أناملها الرقيقة بالكتاب والقلم وقلبي، ثم وهي تحكي لي عنهم وعنهن، وتكاد تطببني، ثم وهي وأنا على باب ساحر للسكينة، وبعد أن ضمتني لود فقدته، ترصدونا بعيون تزعق وتصفع، والإضاءات السريعة للعدسات تراوغ الحلم وتزعجه. كنت أود أو نختفي معاً في "النافورة" استحم في طيبتها، وتمسح عني قلقي، ونلعب مع السمك الملون، ونقتحم رهافة الأشياء. ثم ونحن على باب الروح، انفتحت علينا الأفواه، أمسكتني من يدي وجرينا وكانت الطلقات متوالية وسريعة.

# طــــــائر فضــــي

انعكست عيونها في الشمس فضوت الشمس بلون لا أعرفه، غير أني رأيت شعرها الأسود المحمر أكثر احمراراً كأنه خلق وحيدا. ثم سألتني فجأة ما اسمك؟ أخذتني اللحظة في دهشة إذ اكتشفت أن كلينا لم ير الآخر من قبل.

قلت لها: لكن كل منا يعرف الآخر: أطبقت بيديها الباردتين على وجهي النحيف الساخن قالت: لست آخر. فقلت لها: كنت في حجرة فوق سطح أنعم حياة واسعة، أكتب قصصا لا يقرؤها النقاد، قالت: لكن جدتك قاسية. قلت: درجات السلم كانت عالية وقلبي الطفل يفرح بعنقود العنب، ثم انقطعت عني الحياة بدون وداع، أشارت إلى لوحة كبيرة للشهيد أكدت: بديعة الألوان. أضفت: ليست كاذبة. سألتني: ألا تحب المغامرة؟ أجبت بأنني أخاف لأن القدر يترصدني. وأردفت: أعرف أن الحياة ستتركني وترحل.. غير أني لست راحلاً عنها. كادت تدمع. أخرجت مناديلها الورقية. تبعثرت أرقام هواتفها. خلعت نظارتها فلمك أرى سوى عينين. قالت بهدهدة:

ليست مغامرة حب. أنها مغامرة تذوق الطعام. جلسنا تحت شجرة لا أعرف اسمها لها رائحة اللوز قالت: ما رأيك في عيني؟ لم أقل إنهما بديعتان وأنني بالتأكيد أعرف هذه البنت من زمن بعيد. وودت لو سألتها لماذا التقيت بها وكيف؟ وما كنت أقصد غير أن أعبر من ضفة لأخرى عبر ذلك الجسر الذي لقيتها عليه.

قالت: أتعرف.. أنا كنت أسألك أسئلة هامة تاريخية وكنت أنت ترد عليها كأنك تحفظ الإجابات. كنت تنظر أنت في عيني أنا فأصبت القلب ونسيت أنا الأسئلة، وأنهمرت في البكاء، مددت يدي، مسحت بعض الدموع.. ثم مكثت في قلبي. لامست يدي وجهها بحنان لا أعرفه في، همست: حنانيك. فتلمست قرطها الفضي. تحت ذقنها دفء غامض، وفي الرقبة عقد من الفضة وحول المعصمين تلألأت. أنا طفل هذه الفضة. أحلم بالسباحة في مياهها. قالت: ستأكل الآن. كل أنواع الأكل التي أحضرت لم أعرفها في حياتي المملة، بمهل استسغت الطعم والرائحة، ثم أعطت لي خرزة "السلوانة" نقعتها تحت المطر، وشربت من مائها. تبادلنا مص الخرزة وأصبحنا أصدقاء.

كنا بأيام البرد. ترتدي معطفاً وأرتدي ملابس ثقيلة. درجة الحرارة 4 الحرب توقفت والقصائد لم تتوقف. كانت لم تصح بعد من نزل البرد. وكنت لم أصح بعد من هموم حياتي الثقيلة. ومن السماء رهام يداعبنا فنخلع نظارتينا.

ارتدت فستانا جديداً وجوربا ونام على صدرها طائر الفضة.

ارتديت بدلة جديدة، حذاء جديداً، جورباً جديداً، وقميصاً جديداً.. وكنا لا نعرف أننا سنلتقي ولما رأت الدنيا على هذه الحال تنفست الصعداء، قالت بفرح من هرب من قبضة أبيه:

يمكننا الآن أن ننزل المدينة. ونزلنا.

في البداية ارتعشت كطفل خائف. في زحمة السوق تسرب إلى الدفء. رفعت رأسي للفسيفساء العربية، لكنها جرتني من يدي ودخلنا المحلات لنتفرج على صورنا المعكوسة في المرايا تبص عليّ وأبص عليها هل يمكن أن نظل أصدقاء؟ أننا أصدقاء من زمان. وضوت الفضة بابتسامة جذلة.. مشينا في السوق ذي البنايات العالية الذي يحاكى التاريخ القديم. وحين انعطفنا بالكاد سمعت صرختها الهلعة، قبضت على كتفها. شددتها إلي. تحولت إلى طفلة مذعورة فأخذتها في حضني. أشارت قائلة: هاهم. نظرت لم أر أحدا. رددت بصعوبة بالغة: هاهم. لم أرَ سوى مديه تضوى في زحام السوق بين السيقان والسراويل والجلاليب والازدحام تضوى وتنطفئ. انحرفنا ودخلنا مشربا. شربنا القهوة باللبن بدون سكر، حكيت لها عن أطفال أعرفهم ولا أعرفهم، وظللت أحكي عن يد طفل صغير رقيقة. دفأت يدها وتدفأ قلبي وغنت مطربة الشام، أغنيات متوالية. غنينا بشجاعة كالجنود أغنياتنا العاطفية بحماس الأناشيد، حتى انتهينا لمكان منعزل عن كل القارات. خلعت

جوربها وقلبها، وخلعت خوفي. أسندت وجهها بين يديها وحدثتني عن الأبواب المغلقة والواحد الذي يقيم عليهن خوفاً وصمتاً. وحطّ الليل بكل ثقله وارتجفنا.

أبلج الصبح فجلسنا في المشرب الزجاجي، جلسنا بجوار الجدار الزجاجي، لم أشاهد أي شيء من خلاله لأنني كنت مشغولا بها. في لحظة ما مر شخص لم ينظر إلينا. لم يكن بيده مدية، غير أني ارتبت في أمره وعندما تابعت من في المشرب رأيتهن كلهن نساء وينهنهن. تسحبنا وخرجنا. اكتشفت فيما بعد أن المشرب لم يدع أي أغنية، وأن الطقس مال للدفء وأن الماشين رموا بمعاطفهم على الطوار فدخلنا في الليل.

قلت لها ساعات وسأرحل. قالت: لا تتكلم عن الوداع ولتكن الساعات سنوات، بلا أعياد ميلاد، بلا أجراس، بلا زمن، ونحن لا نحب "بابا نويل" أعطيت لها باقة تهنئة لكل الأعوام القادمة على ورقة من بردي تضيئها ألوان عديدة وزهرة حمراء لم يلحظها سواي. واتفقنا. سألتني أنا الغريب عن قارتها ماذا أبغي من بلاد غريبة؟ قلت أنفاسك تكفني، رنوة واحدة من عينيك، انعكاس فضتك ستحط في القلب طائراً لن يبرحه. عصرت يديها بيدين قاسيتين حانيتين. قالت: أنت طيب. في المدينة الجديدة كانت الأشجار واقفة، والهواء بارداً والبنايات عالية والشوارع خالية كنا وحيدين سعيدين نبحث عن مكان. سألتني هل يمكنني أن أعبر

البحر؟ قلت نعم. أن أعبر السماء؟ قلت نعم. قالت بسخرية أنت لا تعرف مشاكل جوازات السفر. نحن البنات ربطنا إلى شجرة زرعها أبي لتظل علينا، كلهن استمتعن بالظل، لكنني كنت أتعذب. ولم أعد أحب حتى ثمار هذه الشجرة، وهم تحولوا إلى خوذات حرب، أو جاهرين بالشعر الكاذب. هل تبادلني العملة؟ تبادلنا العملات.

اختلطت هذه التي فوقها نسر ونخل وهرم وقادة. وجلسنا بجوار المتنبي نتكلم عن ماركيز. بينما المطر قد أغرقنا تماماً، وبينما الشوارع خالية جاء هو ركضا ركضا. انكمشت. وتمنيت لو يأتي إلى وتفرغ الحكاية، تحسست جواز سفري وتذكرة العودة والطائر الفضي الذي حط في قلبي، وانتظرته تحت المطر وبالذات تحت سحابة سوداء ثقيلة. شعرت ببرودة النصل فأزحت كل المطر، فردت ذراعي، تشنجت أصابعي، لكن صوت ركضه خفت وخفت. أمسكت بيدها الباردة. قالت: اختفى.. أمل أقل لك. تمتمت: لكنني لم أرَ المدية هذه المرة.

أخذتها في دفئي. أخذتني في قدرتها الفائقة على نقل الحدث إلى نقيضه، من نقل الزمن، تمسح دمعتها لتضحك بصوت عال كأنها تشتاق للضحك. ترتب عليّ وتقول: لا تخف ليس هنا رجال. دخلنا المشرب. في الحقيقة بحثنا عن حل يحتوينا بلا جدوى بحثنا عن مكان بلا نوافذ عبثا، لأننا بالطبع لم نكن الوحيدين في هذا البلد ونحن نشقى في هذا البلد، علينا أن نفرح باحتراس وألا يتحول

الشجن إلى غضب، شربنا القهوة في المشرب الخالي فرحت بالمكان الخالي، هي خافت وظنت أنه مصيدة. جاء النادل، قدم لنا القهوة التي شربناها فيما بعد في ساعات طويلة.

لا أعرف بالضبط متى طلعت الشمس، فقد هزني هاتف الفندق لننزل لنشاهد قمة الانتصار هزني الهاتف.. قم.. فقمت. أخرطني الهاتف أن الساحة مزدحمة وأنهم يحملون الصور، الهاتف لا يكف لحظة واحدة، وأن مصير العالم سيتقرر في لحظات وعلينا أن نقتنص اللحظة، فهربت بلا إفطار. سألتها لماذا يتبعونك؟ رد بدهشة: لا يتبعوني.. أنهم يتبعوننا. اخترقنا السوق الذي يشبه تماماً الأسواق القديمة في الكتب القديمة، وخرجت علينا روائح الزمن العربي. سطعت الشمس. درجة الحرارة 16 وأنا في الشمس لا أخاف ولا أتوتر بل أفرح كطفل حتى لو داهمني الموت. أكلنا في الشارع وشربنا المرطبات في الشارع وتبادلنا الآراء واتفقنا على أشياء محددة في الشارع قالت: تعال لأعرفك عليه. كان يجلس في طيبته الموروثة. حين رآني بش وجهه.، خرج من وراء الطاولة التي تحزم المكان، احتضنني وقبلني قال أنه انتظرني زمنا طويلا وأنه حكى عني لأبنائه جميعا. أنا الذي لا أعرفه أحببته. نظرت في عينيها فرأيته أنيسا وليس منهم. طلبنا الشاي والقهوة. وعندما انتهينا من الترحاب وثرثرة الكلام الأول وجدتني محاطاً بالتحف:

الشمعدان القديم. والأطباق المرسوم فوقها، والأكواب والوجوه

المحطمة، والساعات القديمة كانت تدق ألحاناً لا أعرفها بها نواح وشجن حتى أني لما أصخت السمع كاد الشجن يبكيني. لف على ذراعي تعويذة من الفضة لتحميني، كانت من قبل قد دافعت عن الوطن على ذراع قائد، وإذا بها تحوطني من وراء وتحوط رقبتي بقلادة من فضة اختلط عليها التاريخ. حمورابي يكتب قوانينه، والفلاح الفصيح لا يطالب إلا بحماره وموحد القطرين كان يائسا.

ركزت على ركبتيها، قربت من عيني زجاجة ذات عنق طويل لها لون البنفسج ولها لون الرمان. نزلت إلى الأرض ركزت أمامها فأضحى لون الزجاجة لون عينيها تهدج منها الصوت:

ماذا ترى؟ رأيت السفن في بحار خضراء، مناديل البكاء، النخيل قطوع الرؤوس، والأطفال الذين أعرفهم طالعوني لوحوا لي بأيديهم يريدون رجوعي، جذبوني من ياقة قميصي، اهتزت نظارتي، وتوترت، قبلت أصغرهن، لوحت لها بيد مرتعشة. قالت لي وأنفاسها تلفح الوجه ماذا رأيت؟ رأيت عينيك. كان الرجل ودودا. صاح: افتح يديك. وضع فيهما عملات لم أرها من قبل. لكن عليها نفس الملوك الذين زوروا تاريخنا ونفس الأميرات اللاتي حكمن خيالاتنا قرونا طويلة، الأرقام المقروءة وغير المقروءة. كان لبعض العملات رنين، ولبعضها صوت يئن قهرا لأنهم حين اعتدوا علينا اعتدوا عليها. ورمى أمامي بالخناجر المرصعة بالأحجار القديمة. لم يخفق قلبي إلا من مدية مهملة تلمع بحذر.

خرجنا، فاجأنا الصيف فخلعنا ملابسنا الثقيلة، كانت بلوزتها شفافة، من تحتها يظهر لون المشد وخطوطه وملامح الجسد المنتشية فرحت بها كثيراً وضممتها حتى العرق. عندما بلغنا قالت استرح. ركنت ظهرها للنخلة، صنوان في بهجتيهما، نظرت إلى معجزتها البسيطة في العينين والصمت. تابعت شهيقها وزفيرها صعود صدرها الدقيق برغبة جامحة للحياة. هبوطه بفتور وقلق آهه خافتة. ظللت أرقبها حتى غفت.. ونامت.. قمت وعدلت رأسها على وسادة من عشب وزهرة واحدة لها رائحة الياسمين. لم ترمش. مددت رجليها، شممت عطرها، مسحت بيدي على شعرها الذي ارتجف ثم استكان، وخلعت عنها الصندل طيب الرائحة، ودعكت أصابع قدميها برفق، ثم أنزلقت ونمت برأسي، رأيت السماء زرقاء، أطل وجه فارس قديم، تمثال من نحاس أكله الصدأ بلا درعُ بلا رأس الحصان. جاء الصوت من بعيد يترنم: أي شيء في العيد أهدى إليك.. يا ملاكي؟ أي شيء.. يا ملاكي.. يا ملاكي في العيد.. أي شيء.. أهدي إليك.. يا.. ونمت.

كن حولي يلعبن في سرور ثمة ضجيج. كنت مشتاقاً لأن أحدث البحر أحاديث خاصة، يرمينني بلعبهن وعرائسهن وحلواهن. أصبر على لأوائهن. افتح كتابي الغلق فأرى الحروف تنشد القواميس والجملة تشتاق التحقق. وهن تشابكن في عراك. أخطف الصغرى. أضمها لنفسي وفي قلبي شوق للبحر. وقعت الثمرة فوق

رأسي. فتحت عيني فرأيت ذات السماء وراية صغيرة ترفرف لكنها هواية ناحية الأرض. كانت هي تتنفس بانتظام، وتخرج منها رائحة الصيف. خلعت حذائي.

همت للأذن المستملة في فمي: لا تبكي يا صغيري العجوز، وحين هم النوم أن يأخذني سمعت فزعة للعشب وتخبطا في سيقان الزروع. نهضت فرأيته يختبئ. التقت عينانا لأول مرة. قررت أن آكله. حافيا جريت، وبأقصى ما أستطيع، اصطدمت بالنخيل والشرج والحكايات والمرهبة. قفزت من برك المياه. آلمني الحصى، وكانوا يتناولون الغداء على الحشائش بينهم تلك المرأة العارية، قفزت من فوقهم مثيرا على رفاهتهم غبارا من كعبي الحافيتان، قلت من لي بسعف النخيل، من لي بالعذارء؟ جاء صوته من بعيد صافيا: جفنه علم الغزل.. ومن العشق. وأنا أمسح عرقي أخذت لأنني تذكرت العينين مرة أخرى أنا أعرف هذه العيون.

كانت نائمة تحلم بأنها تلعب بجوار شجرة الهال مع الأولاد ورغم حرارة الجو والعرق فرحه، لم أكن رفيها في الحلم، ثم أتت أمها، أسلمتها بيدها الطيبة لأبيها ليضربها، ويربطها بشجرة الهال. كانت نائمة وصندلها مازال تحت قدميها، لها ملامح الغجر، وملامح الشال، لها روح متفردة. تحت خدعة تنفسها المنتظم أعرف أنها ستفجر بلا أمل في لحظة سيشهدها التاريخ بدون احتشاد في أي ساحة. عندما أسلمت نفسي للراحة وتأمل حاجبيها نهضت من

نومها، سألتني: هل سافرت؟ هل ركبت الطائرة؟ خطفت مني جواز سفري، طالعت أختامه المدورة والمثلثة وتأشيرات الدخول والخروج. كانت عصبية. رمت نظارتها، ووضعت كفا على عين بألم. رجعت للخلف. وهي نائمة لم تكن سوى بعض الطيور قد حطت على رأسها وهدلت. طير حاول فقأ عينها، رجوته ألا يفعل لأنني المسكين أحب هذه المسكينة التي سأتركها في السماء. ابتسم الطير في خبث، تردد قليلا، قال: كنت أطمع في حبة عينها. وشق قلبى واختفى.

مشينا حافيين على العشب الذي مسته الشمس فامتلك دفء الجسد. قالت أننا في الربيع الآن. زينت رأسها بالزهور. وفي الصدر تفتحت وردتان بأريج الياسمين. ورأيت نفسي صبياً ورأيت نفسي شاباً بدونها فانزعجت، رأيتني في الأربعين. عندما أصبحت في الأربعين بحثت عن ظلي لأجلس فوقه أعد أيامي الباقية في انتظار اللحظة الأخيرة حين يمد لي الموت يده فأظنه سيّنقذني من تعاسة وحدتي فأسلم نفسي له. في الأربعين وأنا أبحث عن ظلي لأمشي وراءه سألتني هي ما اسمك؟ كم عدد بناتك؟ لماذا لا تموت في عواصم العالم؟ ما هو طعم القرنفل؟.

اكتشفت الخرزات الملونة التي تملأ جيوبي، عرفت أنني أخبئ البنات في صدري ولكل بنت سأصنع حقيبة من الخرز الملون. سألتني عن فلسطين فبكيت. غير أن الزمن أنصفني وتحولت كل الدموع الخائبة إلى حجارة. رأيت نفسي خارج ظلي الآن تخدعني

الدنيا بجمال لماع أخافه غمزت لي كهرمانه بعين فتنه، وحولها جرار الحكايات لا تنضب. فتحت كهرمانة بابها الزجاجي. كانت لافتة "مغلق" تتأرجح دخلنا. ابتسمت هي. بل ندت عنها آهة ما. ربما الفرح ربما الخوف. أدخل أنا في حماية ترحابك. لم أفتح عنوة، إنما رويدا رويدا دخلت المكان. به دفء وراحة، دارت وقالت: مكاني. كان مفروشا بالسجاجيد، مضاء بالقنابل، مزدحما بالتاريخ وأبهى الصورن تحرسها العيون الخشبية، والمدافع الخشبية وهذه الملابس تشيع البهجة، والشعر كان مرسوماً، ولما قرأت أول بيت اختفت.

بحثت عنها فلم أجدها. يا بنات عشيرتي أين هي؟ كانت العروس العجوز ذات الضحكة المخيفة تتنصب في منتصف المكان، أحسست بقلبي ينفطر حذرتني: لا تحزن فهي كثيراً ما ستضيع منك. ولا تفرح كثيراً حين تلقاها في الأيام السبعة، فلسوف يتلوها جدب طويل. غبت أمام العروس العجوز، متى تلبس هي الفستان الأبيض وتكون خيولها بيضاء، شموعها بيضاء هاجمتني الطائرات.. من على كل الأشياء تافهة الجبال والبحار والدول. لا قيمة ولا حجم. قالت للعجوز: أنا راجحع. تركتها. قبل أن أخرج من المكان. قلت لنفسي المتألمة ينبغي أو أودعها كنت أكذب، فقد بحثت عنها بحثاً مريراً تحت الملابس، وفي أصص الورد، ووراء الصور، وفي التلفزيون، وفي جرار كهرمانه، وعندما وجدتها جرت مني كطفلة فجريت وراءها..

جرت.. جريت.. انفسخ المكان فنزلت كل الشخوص الخشبية

ترقص وتغني.. التفوا حولنا بألوانهم الزاهية ورائحة خشبهم العطرة ورائحة الزيوت ورائحة العطر ورائحة التراب. احضروا الدفوف والطشت النحاسي وأبريق المياه وسجادة الصوف. أخذت أنا الربابة وعزفت كيفا اتفق، أخذتها مني وعزفت حزما ما. دخل الحلقة أسد، جرت كل الشخوص مذعورة ما عدا هي التي استلسمت للخوف وأنا الذي لا يخاف وأنا معها.

ركزت على ركبتي طأطأ الأسد رأسه، كان مصنوعا من القماش، له ملمس الحيوان. انظري أن له عينى فتاة، عيون مكحلة، كأن البنت ستخرج توا لملاقاة الحبيب الذي لن تجده حيث الرحيل هو طريق الرجال. أقعي الأسد تحت رجليها، أصيبت برعشة لم تفسرها ولافته المكان "مغلق" وفجأة رأيت سيدة سمينة تلمع التحف الخشبية بتؤدة، بيد مدربة تلقائية، وبعينين التصقت بنا، أشرت لها على السيدة السمينة، سألتها أن نشرب الشاي. قالت السيدة لا يوجد. قلت: قهوة. هزت رأسها بتحد: لا يوجد. وأضافت: أنني أراقب عقارب ساعتي المطفأة لأغلق المكان بعد عدة ساعات. شدت حقيبتها وشدتني من يدي، وفي لهفة، قالت: هيا بنا. أنا هذه المرة الذي رأيت المدية بين ثديي السيدة السمينة. ظلت تشدني حتى أخرجتني من برد لتضعني على حافة الربيع. هتفت: الدنيا ربيع، ولعلها غنت بكل ما حرمت من غناء. صوتها يشى بطفولة. رأيتني شجرة مورقة مزهرة مثمرة قوية، بين عشب وفراشات. ورأيتها طائراً فضياً يحط كلما شاء ويطير في فضائه كلما أراد.

تهمس أنت معي دائما.. كنت هنا حين جاء.. كان يريد أن يخطفني، ولكنك كنت بيننا. أخذتها تحت ذراعي والزحام شديد. يتخبط بها الأهل والغرباء، رأيتهم يسرقون بعضهم ويسطون على أوراق الآخرين. يبيعون سر الوطن، ورحيقه، ويدقون أجراس المزاد على آخر ما يملكون. احتميت بها، أخذتها تحت ذراعي، أخذت هي تفرجني على صورها. هذه أنا وأنا طفلة. خبطني الشيخ وتأفف. هذه أنا وأنا مراهقة، شممت عطرها، نظرت لها مليا. كان شعرها طويلا في المراهقة وفي شفتيها شقاوة ما. تكاد تنفجر حياة. وهذه أنا وأنا جامعية الشبه مختلف أيضاً. وهذه أنا وأنا أنا نظرت في وجهها فوجدته مختلفاً أيضاً. خبطت في صدرها سيده عجوز ترتدي الملابس المزركشة المنمنمة، العجوز سبت ولعنت وبصقت. وهذه صورة قديمة لي وأخواتي ثلاث بنات وصغيرات و.. أنزلت ذراعي. حملقت في الصورة بدهشة. أنني أعرفهن رأيتهن من قبل، يشبهن من لعبت ونمت معهن، ساخت روحي لأن البنت الصغرى المرتدية فستاناً منقوشاً بالورد تمسك في يدها اليسرى مدية لامعة، ظاهرة ولا تبين. ضحكتها لم تكن صافية، كانت تعد بشيء ما أخافه، خبط في فأصطدمت ببندقية، وقعت منه القلنسوه، لم أهتز، لأنني كنت مرعوب من نظرات البنت الصغرى المسكة بالمدية، بأصبع يرتعش حاولت الإشارة إليها. قالت هي أنا حين كنت في العاشرة، وهذا خنجر كنت الهوية، على مقبضه تمددت الأفعى بعين ياقوته، وكان هدية لأبي من بلاد اليمن.

تعبنا. جلسنا على الطوار لنشرب القهوة، وارتحت لشمس الأصيل التي مسحت حدة الوجود. هدأت. تنفسنا على مهل، رجعت برأسي للوراء. سألت: أجبت: لا. قالت لنمش.

فمشينا على مهل. قالت عندي سيارة، لكني أود أن نتعرف على العالم بأقدامنا. ثم أردفت: أنا الآن لا أخافهم.. هل تعرف معك لا أخاف حين أذهب للبيت وللسرير.. معك لا أخاف. قلت: مع أن الطريق مغلق ومفتوح على السماء. مطت شفتها. تمتمت: هي ساعتنا الذهبية التي نعيش، نسيت تماماً حكاية الصور. أمسكتها من يدها اليمنى فوجدت بكل أصبع خاتماً من خواتم الزواج. لم أدهش ولم يمسسني الأذى، فقط كنت سأسأل فقالت قبل السؤال: هذه مجرد تجارب، وحين أنت أصابعي الخمسة اكتشفت أني خدعت كل هذه المرات وكانت الخواتم قد ضاقت على أصابعي فلم أستطع الخلاص منها.

انفعل وجهها وعقدت حاجبيها، قالت بصوت حاد: لا تظن أني تزوجت، كما أنني لم أحب، بحثت عنه فلم أجده، وكانت النهايات مدهشة أما الموت فكان سجنا أو هربا أو قتلا. هب علينا الخريف، واحتمينا بالسيارة، تعرفت على ملامحها من جديد. طول قامتها ومحيط الخصر، انتهزنا يوما مشمسا وشاهدنا بقايا الحضارات المعروضة في علب زجاجية، ودخلت بها البناية الأثرية العالية حيث الأروقة خالية وفصول الدروس شامخة، نفسا لنفس أصبحنا. لا

فرار منها. تمكن الطائر مني، وصرخت باسمي، وخرج اخناتون من النقوش يتلو: أيها الخالق لبذرة الحياة في النساء. مرت الثواني منذ لقيتها على جسر كمئات الأعوام ومعرفة ملايين السنين وما غرس في الروح من أنين. زعقت: يا حبيبي. كالتي تنادي في البرية، دثرتني بردائها الوحيد، وقفلت بابها على تجفف عرقي سبع سنوات طوال. مرضت وحللت دمي فوجدتها فصيلتي. قالت لي العجوز أن عمري قصير وأنها دم حياتي.

تفض الطرقات الخالية إلى خلاء، وما توهمته سكونا قطعته أصوات لحيوانات شرسة، لم أشأ القول. وقفت، بصت في عيني، وهمست بصوت لم يبرح قلبي حتى الآن: ستوحشني. للسيارة جنون خاص وظلمة ممتعة، تتحول الكائنات لكائن واحد ونفس واحد ومصير واحد لم أكن أعرف عذوبتها هذه، ولا ضحكتها هذه. تكاد السيارة تطير في السماء السوداء لترتطم بالمصابيح الصفر، والموسيقى تهدر عالية. ماذا لو هوينا؟ ماذا يضير الشاة بعد ذبحها، خلت الساحات والميادين. بهتت الصور، ولا يلمع فيالكون سوى لون أحمر شفاه، وأصبح للحياة طعم الموت الجميل فاستلمنا للسيارة التي تمضى وحدها من ظلمات لنور، غير أنها شهقت عندما اصطدمت السيارة بالأرض، وفتح الرجل الباب، وطلبوا مني جواز السفر. مدت يدها هنيهة، واختفت نجمة واهنة وراء السحب. وهم أتموا معي الإجراءات بخشونة وفظاظة.

# العشـــــب

سطعت الشمس فجاءت. قالت أنها تأخرت لأنه كان جالساً خلف الشجرة التي لا تزهر يعد نقوده ويجهز عطره. وما أن تسللت حتى ركبت التاكسي الذي أطلق مسجله أغنية فظة، والسائق نظر في عينيها خلال مرآة صغيرة أمامه. وكان شعرها يطير من شدة الهواء. تابعت بلهفة دقات قلبها المضطرب، وبؤبؤا عينيها. أمسكت بيديها الباردتين. فتح لنا العشب سرابه الأخضر، فجرينا، وتحت الأخضر كان الماء. لم ننزلق. دهسنا العشب المبتل بأقدام خفيفة ومرارة جهلتها في اللحظة.

حكت عن تسلقه لنافذتها في ثلاث ليال متقطعة خلال شهر بارد. ثم أقسمت أن النوافذ الزجاجية كانت مغلقة وأنها لم تشم عطره. أخذتها في حضني، طبطبت عليها ومسحت عن جبينها عرقاً بارداً. كانت بجوارنا شجرة تهتز بفزع. اقترب منا ولد صغير، بلا ظل، ابتسمت له، حاولت مداعبته فنهرني، وقال إن هذه السيدة هي أمه، بينما راحت تنفي بأصبعها وبهزات رأسها. وقالت ليس لي

سواك. ورأيتها في قارب صغير بنهر واسع ذات شتاء بعيد والمطر ينهمر، بصعوبة تلتقط الأنفاس، وتلم ملابسها فوق صدرها، وأذكر أني لمحت قبعة لرجل. انتفض الطير من مأمنه، وضربني بجناحه، فقلت أبوح:

أنني أتعذب. غاصت رجلاي في طين العشب. شدتني فطاوعت دفء العينين. أصبحت أمامها. وضعت يدها في جيب معطى لتدفئتها. ابتسمت وقالت هكذا الشتاء. ورأيت سحابه ضخمة مثل جمل تهجم على الشمس. قالت ما أن انهمك في حصر نقوده حتى قفزت من النافذة الخلفية. قالت أمي نسيت قفازك. سكتت ثم قالت بدهشة: مع أنني لا أملك أي قفاز. ومطت شفتيها تعجباً. لابد ستمطر بعد قليل. ولابد لنا أن نعتصم بجبل أو كهف أو كوخ. قالت يمكننا أن نشعل ناراً من الحجر، ونستعمل ملاعق من الحجر. وشدتني بفرح مباغت. تعالى لأريك. قطعت تذكرتين من رجل ذي ملامح جامدة وشاربه كث، لكنه بص علينا بنصف عين، تفحصني، قال بصوت وبثقة: أنت غريب. أمسكتني من كوعي ودفعتني لندخل المتحف. ضربني ولد في جنبي وهو يقفز داخلاً. ثم قفز عدة مرات واختفى. لا أعرف هل اختفى أم أني لم أستطع متابعته. كان المتحف خالياً. دافئاً شممت رائحة التاريخ المعلب، ورأيت ابتهاجا في عينيها لم أره من قرون عديدة. مسحت جبهتها بمنديل ورق. صعدنا الدرجات ببطء. إذ كنت مشغولاً بتدفئة يدها، وأنا أنفخ بفمي في

يدها فيما هي تميل برأسها فأحس شعرها يشى بدفئه. همست: هل نمت جيداً؟ قلت لا... جلست لأكتب لك رسالة، وأقعى الليل بجواري يتأملني حتى هزمني الفجر. اندهشت، وقالت: رسالة وأنت معي كل يوم! كل يوم أقفز من النافذة، ثم ترمى لي أمي بحذائي، فألبسه في رجلي، وأتخطى زرع الحديقة الذي يأخذ اللون الأزرق، واتخطى أشواك بعض الصبار، وأطير إليك، بينما أمي العجوز تزعق عليّ نسيت قفازك. نسيت قفازك.. ابتسم حارس من العصور الأولى يمسك رمحا. قلت: لا أستطيع قول كل ما أحسه، فعينيك تشغلني بعض الوقت، وأنفاسك بعض الوقت، وكل الوقت يضيع في الاستحواذ عليك. ربما برقت السماء. سمعت كحة لإنسان ما. لم أر أحداً. غير أني شممت رائحة تبغ هذا الرجل الذي كح ولم أره. كانت درجات السلم شديدة اللمعان، في رخامها تجوس أشباح سوداء في خطوط قديمة كالخرائط، يفزعني دائماً أسماء الروم والفرس والصليبيين، وخيل لي أنهم يختبئون تحت الرخام، فأخذت أدق بكعبي مثل راقص، وأقفز فوق رؤوسهم مثل راقص، خائفاً فرحا مثل راقص. فرحت بي، وتقافزت على درجات السلم ترقص، ثم غنت أغنية بلهجة لا أفهمها، عذوبة الصوت تسرى فتهدم ثقل التاريخ، وما أن انتهت حتى صفق كل الموجودين تحت في الصالة الواسعة لمدخل المتحف، صفقوا بحماس، وتحسسوا شواربهم عدا قاطع التذاكر الذي داعب شاربه وأغمض عينيه.

في الطابق العلوي كنا وحيدين تماما. كنت على وشك البكاء لأنها بجانبي الآن في هذه اللحظة التي أموت شوقاً إليها. أمسكت بيديها بقلبها بروحها. قالت في حلم: آه لو نملك بيتا مثل هذا المكان. ثم سألتني: أين تسكن؟ أردفت: كلمتني عن ازدحام مكانك.. بل قلت أنك لا تجد مكانا تنام فيه.. بل قلت أنك تحلم بأن يكون لك مكان به شجرة تمر حنة يأتي عليها العفريت فتكلمه. أكلمه وأسامره وأصاحبه وأحكي شجني وغربتي وضيق روحي وطموحي. سكتت طويلا وقالت مثل طفلة بديعة الروح: صح!

في الحقيقة لم أتذكر، لأن صوتها أحياناً يجعلني لا أنتبه لأشياء عديدة، ولأن دفئها الخاص يطغى على أحلامي فأنسى الأحلام، لكني أتصور أنني قلت مثلا أحلم بالمكان والزمان في قارب يمضي بنهر تحت مطر. انفلتت وراء صندوق زجاجي، رأسها يعلو الصندوق، صدرها التصق بالزجاج، ضغطت على الزّجاج بصدرها، فانشق صدري، علتي.. يا من كنت لي الداء.. ضغطت واستدفئت بمستقبل لا أفهمه، تناديني مثل عصفور على شجرة وإليها تعود رجفتي تسكن فيها لا تعود. بيني وبينها زجاج وآثار وأحجار وجماجم ومئذنة ملوية وعطر وجواز سفر وتبغ ونقود وكتاب ونفس وصراخ ووله وموسيقى ومدية وخط عمر مقطوع. لهثت.. لهثت، شددتها من وراء الصندوق الزجاجي. مسحت عني عرقي، قالت بانفعال: ما معنى الدمار؟... لا تعرفني... كسر لعبي. ومزق كتبي... ليرجع

الزمان... وعش دنياك الحلوة. سكتت، عضت شفتها، تمتمت: ولا تتركني. ثم سألت بهمس: ماذا جرى؟ حاولت تذكر أيامي المجهدة، عمر ضائع في هوامش الحياة، أزقة من التفاهة، والسكك المغلقة. كنت أطمع أن أطير تذكرته قبل موته. جبينه بارد. طلب سيجارة فأعطيته، وشرب نصف السيجارة الثالثة ومات. وطردني من جنته، وكلما سكنت حجرة طردني صاحبها. والغريب أنني متأكد أني لي مكان فسيح وواسع وبه حديقة بها شجرة رمان وشجرة دفلى وزعتر. والغريب أنني ظننت أنني كان لي بنات وأولاد. حلمت كثيراً بغير ما يحدث لي. جذبتني من قلبي الذي لم يئن. قلت سيحبس أحفادي في عينيك للاستحمام في ضوء شمسك. جذبتني، تمددت على عشب صناعي، نمت برأسي على رجلي ملك قديم. حكت لي عن شاب فتحوا عليه الباب فوجده ميتاً من رعب مسبق، وتؤكد أنه لم يفعل سوى الحلم. كان له وجه صبي. اختنقت بالدموع. سخرت من الجميع، وقدمت لي القهوة وجلسنا في رحابة المتحف الخالي، تلألأت الدموع في عينيها فامتزجت ببريقها الفضي. ميسور الآن رؤية المسافات الشاسعة بيننا. ها هي تذعن لذكرى ميت. تنهدت بقوة، أخرجت لها من جيبي خرز ملونه. خرز حمراء وخرز زرقاء وخرز بيضاء. لعبنا بها، جمعناها في أكفنا.. نثرناها في الفضاء.. فرحت كل التماثيل ورفعت أياديها الثقيلة لتجمعها، لكنها لمتها في دفء صدرها. ضحكت وضحكت. قهقهنا حين تذكرناهم في

البهو الواسع يسمعون بعضهم في ضجر. جاء الرجال جريا، فقد أزعجهم الضحك المشوب بفرح. قالوا: ممنوع. وكانوا يحملون على صدورهم صوراً لشخص واحد. سكتنا وقبلنا الصمت حتى نظل وراء الزجاج. همست: أنت حبوب. تمنيت لو غافلنا العالم وركبنا الطائرة لتحط على جزيرة من جزر السندباد البحري، الخالية، المليئة بالأشجار المثمرة والطيور التي تغرد بلا أمل، اقتربت من عطرها، من لزوجة أحمر الشفاة، من معجون الأسنان، من رائحة القرنفل، رائحة الشعر، رائحة العرق، اهتز القرط الفضي، قالت محذرة: هل أنت مستعد للثمن؟ قلت ما أسهل الروح لقاء يوم من عمرك. صرخت بفرح ودهشة: مستحيل!! قفز الولد أمامها وقال بطريقة ميلود راميه مبتذلة: أنا لن أعود إليك. بصقت في اتجاهه. وانتبهت لصوت قدم ضخمة تجرجر في الأرض. وسمعت سعلته وحاولت طول حياتي المرهقة أن أتجنبهم وأتجنب خطواتهم ورائي في قلب الليل، وتركز حلمي في الوحدة والبعد عن الناس، وكلما ابتعدت أجد رجلي مغروسة بينهم. أحاول الإمساك بالصفاء. افتقدته طول بؤسي، لكنني الآن أراه مستقراً في قلبك المرهق وعينيك الشاخصتين دوماً لمستقبل تجهلينه، لكن ثمة صفاء وسعادة حقيقية في ضحكتك التي تغمرني. انتبهت حين كاد الولد يطير من فوق الأرض وكاد يرتطم بالصندوق الكبير. لو انكسر الزجاج لرموا بنا في الخارج. قالت: هذه أحجار غير كريمة. وهذه

سكاكين وخناجر وهذا سرير قديم نام عليه كاتب قديم وحفر أنشودته التي لم يحل رموزها أحد. كح، ورأيته.

يبدو أنه قاطع التذاكر، قلت لها: هل هو نفس الرجل؟. قالت: يتسلق النافذة، يتوعدني، يريد ذبحي بحد نقوده.. طلبت أن يغير حجرتي ولشد دهشتي عندما قال أبي وكيف سيراك؟. سمعنا الهمسات قادمة من تحت، ثم ضجيج مكتوم. قلت أتركيه.. أسقطيه من ذاكرتك حتى الموت. كان التابوت تحت النافذة السوداء، ناداني، برهبة خلعت حذائي وجوربي، وبدت قدمي الصغيرتين كقدمي طفل، رجعت للوراء، تقلصت عضلات وجهها وانحبس الصوت. مددت رجلي بوجل، ثم نزلت التابوت وتمددت، كنت أسعى لراحة، وأريد شفاء لمرض، رجف قلبي ثم استراح. انحنت وانتحبت، غطتني بشعرها وفاح عطرها، بللت دموعها شفتني، ورأيتهن يبكين مثل اليتامى، ثم راحت واحدة منهن تنوح، التمعت القبة الذهبية لبرج قديم، ورأيت حدائق معلقة. قالت: تجيء من آخر البلاد لتموت في حضني. قلت: أقفلي عليّ جفونك. انطلقت الحراب، بصدري دافعت عنها. ودخلت دغلها الدافئ فمالت على كلّ الأشجار وحطت كل الأطيار، وسرى دفء في التابوت. تقيأت كل أسراري وقلت لها عن ما ملكت يدي، وحلمي الأبدي بحجرة ليس لها صاحب سواي. علا الضجيج، واقتحم تلاميذ المدرسة المكان، ركبوا على أكتاف الملوك، واختبئوا وراء الملكات. نزلنا الدرجات نهرع، وتحت شجرة ضخمة

ذات ظل هزيل جلسنا: قالت: في كل مساء يعد نقوده، ويرص أمامه زجاجات الويسكي، وخلف السور تربض سياراته بألوانها المتعددة. قلت لا مفر.. سأقول له أنا الذي... صرخت لا. خلعت نظارتها.

قالت: انهض.. انهض وخذني للنيل، وهناك نلعب بورد النيل. بدت لي طفلة وأنا عجوز. أمسكت بيديها. وخرجنا من المتحف. رفع قاطع التذاكر عينيه الثقيلتين نحونا. ثم نام.

استقبلتنا شمس حانية بعد مطر قاسي. تنفست بعمق. ثم دندنتُ أغنية عن الراحلين فجأة. وجدتها تحفظ نفس الأغنية. أخذت في الغِناء وهي تتمايل بانكسار وألم. وكانت بطريقة مدهشة تحشر أصابعها في قفاز صغير. ثم رمت برأسها على كتفي، ولا أعرف ما الذي بلل وجهينا، ونظرت طويلا لأرجلنا الأربع المغروسة في طين العشب.

# زهـــــرة الشمـــــس

تركنا أحلامنا في عربات القطار، وأغنيات فيروز، وبقايا الطعام، والمحاولات اليائسة للحظة عطرة. وتركنا الجرائد، ونبوخذ نصر، وبابل والحرب، وناصر، والشعر، ودموع حقيقية اختبأت في عباءة الخمر، وحملنا حقائبنا.

ما أن مست قدمي رصيف المحطة حتى أخذن قلبي مني، هؤلاء الفتيات الصغيرات الجميلات المتشحات بالبسمة، والمزينات بالزهور، كن على الرصيف يغنين، لا أفهم على وجه التحديد معنى الكلمات، ولكن الحماس أدركني. ونحن كثيرون، قذفت بنا الخرائط والبحور، أخذنا نلوح بالأيدي، مددت يدي. رأيت الصغيرة ذات الشعر الناعم تنط وتلوح لي. لي على وجه التحديد من الصف المنتظم، وقدمت لي زهرة حمراء في حجم الشمس، داعبت شعرها الناعم، واحتضنت زهرتها بكفي المرتعشة، ارتفع الهتاف، ومن الحناجر للقلب تنطلق الأغاني المغمورة بالفرح الباكي. رأيت النساء، والأطفال، والعجوزات، والرجال الشيوخ، لا أرى الشباب.

وبحثت عنها بينهن فلم أجدها، أصبحنا بين ضفتين من الفتيات والصبية ولمحت بعض البزات العسكرية، لم تكن النجوم تلمع، كان التوتر هو السائد. أخرجت زميلة الكاميرا وأخذت في التقاط صور الدم الحي والروح المتألقة، وبكت أخرى. طبطب عليها صديق وأخذها من يدها ونزلا حتى قضبان السكة الحديد واختفيا. وكان شاعر ما زال يرتل أبيات شعره. الحناجر تزعق ما تستطيع، هذه العروق الطرية. هذا الدم الطفل كان يهز الجبال والقطار والعواجيز، وتهترئ أمامه اللافتات، ويهزنا نفس واحد ورعشة واحدة. ضاق الممر واختلطنا مع الأطفال والفتيات والصبية. وكن متحشات بالسواد فوق مكان علا يزغردن في بكاء.

نثرت الزهور فوقنا، والتحمت الأغاني. وهرب بعضنا جرياً إلى الباص من شدة الزحام، وحين أنفض الجمع قليلا، خرجت من بين دفئهن، لسعني البرد، ورأيته، بملابسه الفقيرة. بقدميه الحافيتين، وعينين لا تفهمان بدقة ماذا يحدث. لم يكن مزينا بالورود. اتجهت إليه. حاذر مني، وربتت على كتفه. استسلم ثم حاول الابتسام فلم يستطع، أعطيته الزهرة الشمس، تردد، ثم أخذها، نظر للشمس، ثم لى، تركته، وحين هممت أن أركب الباص، كانت الهتافات تعلو، وهو نأي بنفسه بعيداً.

# العـــــازف

كنا على موعد للعشاء، وكان المطعم مزدحماً، وسقفه المرايا يعكس الرؤوس والأحذية، صعد هو بخطوات متئدة إلى مكانه المستطيل، ويحنو مسح على الجيتار وبدأ العزف.

كنا نتحلق الموائد، والمطعم يفوح منه رائحة اللحم، والشعر، وكن يجلسن هناك في الغالب جميلات، كانت بينهن تدخن السيجارة، ولا تقول الشعر، لافتة للنظر. قلت لهم ما أعرفه عن القصة والحكاية.

لمس بأصبعه الوتر، وأحسست بالموسيقى ترجني.

ضحك صديقي السمين وهو يضع كل السكر في فنجان الشاي، علت الهمهمات، وخبطات الملاعق في الأطباق، وارتفع الضحك.

ازداد إيقاع الجيتار

وكنت أحاول أن أتابعه، كان وسيم الوجه، له شارب ولحية أصابعه حية وسريعة. هزني وقال: كل اللحم في كل وقت.

قبل أن أشد الغطاء علي أرى القصف، وحرائق الخليج، وآخر الأخبار وأنام.

أكلت قطعة جبن وشربت الشاي.

ضرب على المائدة وقال: أنا لا أخفي موقفي السياسي.. إن الشعر والسياسة.. قامت، وأطفأت السيجارة، وجلست معه في ركن مظلم.

انطلقوا ضاحكين، وتناثر من أفواههم الفتات أثر نكتة، هرج غريب يجتاح المكان، والأحاديث تعلو حتى تتحول لمشاجرة.

الشهداء أكرم منا جميعا.

كنت أبحث بعيني في المكان وفي الظلمة، أرهقني البحث عنها، وكنت دائماً ألتقي بالعازف، وموسيقاه التي تضيع في الصخب.

نهض وقال إن الأكل ممسوخ، والآخر وقف وألقى قصيدة ولم يسمعه أحد. كانت الأصوات عالية، وكنت أبحث عن راحة.

فجأة توقف شيء ما. حاولت أن أعرفه. ليس الهرج. ولا الصراخ، ولا الضحكات هل وصلت هي إلى المطعم. نظرت إلى الباب. لم يكن ثمة شيء. كل الوجوه ضاحكة، وتأكل بشهية. حاولت. حتى رأيته وكان قد توقف عن العزف. نظرت إليه.. في عينيه، وكأنما يراني، في البداية اتكأ على جيتاره، ثم حمله صامتاً وانسحب. نهضت من مكاني، أسرعت للخارج، وكانوا يضحكون. خرجت، ولم تأت على موعد العشاء.

في المصعد الهابط كان ثمة راحة، وكان يهبط بي بلا توقف.

# نخيـــل النشيـــد

"احنا مرة نعيش

مرة نموت

مرة بكل عمرنا"

في البدء كنا غرباء

وفي الباص كنا غرباء

عراقيون، كويتيون، فلسطينيون، ومصريون. وكان الطريق إلى الحضر طويلا، قال صديقي العراقي: أربعون عاماً حتى دخل الرومان، ومئات الأعوام، واندثروا، ولم يبق سوى الحجار.

كانت الصقور بلا رؤوس، وقادتهم بلا أرجل، والتماثيل برهان الهزيمة، غير أني رأيت الشموس على بعض المعابد، واسم "وسام وقال وهو يضحك ويسخر: هذا كان حمام جدتي، فيه استحممت، ومنه حكم جدي، هذه الدرجات الرخامية هي كرسي العرش. رومان... رومان في كل آن.

وفجأة سكت. ثم وقع بيديه إيقاعاً حزيناً، بطيئاً، أطلت علينا

السيدة الكبيرة طيبة العينين، وقع معه زميل آخر بالدق على ركبتيه، ابتسمت السيدة ذات الشعر الأسود الفاحم، فقام "كويتي له وجه طفل وشارب فرحا ما يزال، ورقص في إيقاع بطيء معبرا بذراعيه برقة وشجن. ثم صفق الجميع، وازدادت الرقصة سرعة في الإيقاع، نظرنا لبعضنا وغمر الباص دفء ما، شجعنا بعضنا، ومعي بعض المصريين:

"بلادي بلادي... لك حبي وفؤادي"

كانوا يحفظون ذات النشيد.

تركوا مقاعدهم، وقفنا في الطرقة، وهم يركزون على الكرسي بجمال أخاذ. أشار بيده فسكتنا، وبصوته الحلو قال:

ما هو منا.. ولا له مسكن ويّ أهلنا

ولا حلال عليه مي دجله وفرات

المأ يصون رغيفنا البيه الحياة"

ارتفع صوته الشجي، وكان الباص ينهب الأرض، والآنسة التي في مقتبل العمر كانت تلتقط بعض الصور، ثم تقدم الأجنبي، وبعدساته الأجنبية أخذ يلتقط الصور، كان يبدو عليه الفرح والاستغراق في التصوير بألاته الحديثة، والصوت الشجي يتمدد في القلوب:

"ترابنا يتبرأ منه.. واحنا هم نبترأ منه

ألمَا يشد حزامه وى شدة حزامنا

احنا مرة نعيش

مرة نموت مرة بكل عمرنا"

كنا نوقع بأيدينا، وتفجر فينا الحماس:

"ألف هنيا له اللي يستشهد بحبك يا وطننا"

صرخنا عالياً:

هيه... هيه

وصفقنا.... وصفقنا، وكان النخيل شاهدا، فقال:

"فينا واحد بيلعب فينا واحد بيعاني لكن أكيد فينا واحد لا يستاهل التاني

أصبحنا أقارب وأخوة:

"عيني عليه ساعة القضا من غير رفاقه تودعه عيني عليه.

بكت.

"لكن أكيد.. ولا جدال جيفارا مات.. موتة رجال"

ونحن اتحد عرقنا، وللأغنية وطن واحد، وللحضر طريق واحد، والنخيل يمرق منا. وهي تحط في قلبي أغنية أبدية.

# قمـــع الهـــوى

تكتمنا الفرح، وتظاهرنا بالبكاء، بينما تحضر لي بمسمار عشقها عنوانا لا أعرفه، خرجن من أزقتها بملابسهن السوداء، وبكين، ولطمن الوجوه على ما حدث وما سيحدث، يبكين الذين راحوا والذين في طريقهم للرواح. وانطلقنا إلى سراب من الأغنيات بعد أن خلعت الحذاء وقررت أن تفرح بلا توقف وظلت تقفز بين صور لأطفال لم تلدهم ورجال ينتظرون لحظة نهشها وتلاشت بين أشلاء لم يتحدث عنها سوى تاريخ كئيب، حتى وجدتني وحيداً إلا من صحراء بلا ناقة تزين رسمها، واشتعل النخيل بالمشيب وتحول إلى هشاشة، فخرج لي دون أن أدعك مصباحه السحري ولف حولي وسألني الأمنية الأخير، فقطفت كل الزهور وشممت العطور تفحصت العيون وتنصت للهمسات فقلت لم أجد زهرتي، لعلها هناك مرشوقة في القلب الذي يئن من وهج العينين.

مددت يدي لذات الأطراف البديعة: خذيني إلى حيث التماثيل التي تتدفق فيها الحياة من لمسة اليدين المرتعشتين، ومن هذا

الحريق الذي يشب في القلب، وبين أنهر ثلاثة، يشتعل. وكن هناك يرقبن من بعيد الذي لم أره. كانوا جميعا في البحر تجمعوا ليفرقوا ما بيننا. وقف القرصان ولوح بعلمه، فجريت من برودتي لدفء صدرها طبطبت علي لتهدأ الروح وقدمت القهوة واللبن وأنة الروح والعينين المسبلتين على جراح. فهدأت ولم أستمع نبض القلب من الصدر الذي احتوى رأسي، ورأيتني طفلا تفسحه في السيارة، وتطعمه الحلوى وتسقيه الدفء في عز الشتاء، وتداري عليه برموشها، فأرى العالم لوحه تشتهي الألوان، يشتعل ناراً ليفرح الآخرون ويشعلون المشاعل ويرقصون الديسكو، بينما الصوت يترنم بأغنية عن الليل والعين والقلب والموت. ركعت على ركبتي أمام الصندوق أبحث عن شريط أغنيتي المفضلة ولم أجده. خبطت على الأرض والحيطان فانفجرت كل الخطب القديمة والأغنيات تناثرت فوق رأسي. فدندنت هي بالأغنية التفت فوجدتها جلست القرفصاء تدندن وقد احتضنت ابنتي الباكية، ونهضنا يخذلنا الضعف حين أطل علينا من الشباك بلباسه الأسود وعينه الواحدة فجريت منها إليها، وأخذتني إلى المنتهى وقالت هنا السرير.. وهنا المذياع.. وهنا الولد والبنت في عناق مرسومين على التراب، بينما الثور يشده النقش إلى الحائط فلا يطير ولا استعمل رجله الخامسة، وحين دخل الليل دخلت الهوام. قلت ابعدي عن الهوام؛ فخلعت ملابسها وتمددت تحت الضوء في فزع، فجثمت عليها

كل الهوام، تجمعت فغطت الجسد، واختفت إلا من شعرة ناعمة طويلة التفت حول أصبع قدمي الكبير، هلعت، جريت، دست على الولد والبنت. الولد صبي صغير يلبس قميصاً أبيض بنصف كم وبنطلونا قصيراً وصندلا بنيا. له عينان ممسكتان بحلم أكيد، والصبي في جيبه قرش صاغ عليه صورة أخناتون، ومنديل أبيض في طرفه تطريز بالأحمر لاسم مجهول، ويتدلى من بنطلونه ميدالية صغيرة عليها صورة أبيه الذي ألف عشرات الكتب، والبنت بفستانها ذي اللون البنفسجي وعلى صدرها تتدلى سلسلة فضية بها صورة كاتب ونسر، وكانت حافية القدمين. وحين التفت الشعرة فوق أصبع قدمي وفزعت وجريت ودست على الولد والبنت ظل الخوف يدفعني في ظهري فأكاد أنكفئ يدفعني حتى البحر، والبحر يتمدد في حمى ويهمس لكل الجزر بأن يرحل الشجر لأن الماء يغلي، وأنا لا أملك سفينة ولا عوامة، ففكرت في الطائرة.

أربعون عاماً أحاول صنع الطائرة. اعتزلت فوق السطح وقاطعت أرسين لوبين ومذكرات أيفا ورحلة الدكتوراه، تكورت في قش الأرز أفكر في الطائرة، جمعت كل ما أحتاجه خلسه الخيط، والورق الأزرق والأحمر والأخضر، والهلال والنجمة والورق المفضض، والريح والميزان والذيل الذي سيرقص بالآف القصاصات، واحتفظت بسري أربعين عاماً وحينما أتممتها وأهديتها لريح وزرقة السماء سقطت في ترعة بها السمك والصياد والعيال الفقراء ويعومون بفرح عناق

البلهارسيا الأبدي. ثم جلست أربعين سنة أخرى وأعدت تكوينها غيرت أوراقها وثبت بها عينا زرقاء، وأهديتها للريح وزرقة السماء فوقعت فوق حقل به أذرة ناشفة وأم وأب وفلاحون فقراء يلعبون مع دودة القطن لعبة الانتحار والملابس الإنجليزية. وأربعون أخرى رسمت فوقها وجهي بدم أعرفه، وأهديتها للريح نعم ولزرقة السماء فحطت في البيوت الفقيرة حيث الأم المسكينة والأب المسكين والعيل الذي يغني مع كوب الشاي. وقلت يا طائرتي هل يوجد من هو أبرع مني؟ يا طائرتي هل حلمي يحققه غيري؟ يا طائرتي يا طائرتي أغيري على الأعداء واقتليهم حيث هم ليسوا في ديارهم. يا طائرتي يا طائرتي أعيدي لي رايتي والشاب الذي اسمه غسان الذي قتلوه مع ميس.. غنى يا طائرتي "دع قناتي فمياهي مغرقة" والقلب حطت فيه الصاعقة وردت لي طائرتي مجرحة. ولم أبك، فحط في جسدي المرض، وصرت ولدا ممرورا، وفي ركني جلست أربعين سنة أخرى، حتى اكتملت وطارت. أخذت زخرفها وطارت، أخذت بهجتها وطارت. أخذت حلمها وطارت، أخذت قلبي وطارت وحطت فوق الأملس الذي تلقاها بدفئه وليونته من البطن حتى العنق، ارتاحت الطائرة وتحولت إلى جسد، غامر هناك في الغابات الحجرية وبالمسمار نقشنا اسمينا وتواريخ ميلادنا، وتركنا على الجسور آثار حياتنا معا لتأخذها الجسور عندما تتناثر معها بلا عودة سوى ذكرى لشعر محمر وبسمة تشعر غدر اللحظة، ودفء عبثا حاول أن يغمر الكون.

وضحك الملك الأريب وسألني هل تستطيع البناء؟ فأنا الحالم بنيت بيتاً لطيفاً صغيراً من أخشاب وأشجار خضراء به شباك يطل على بحر أزرق وتطلع منه البنية عريانة تشتهيها حتى النساء، تبثني بهجة الحياة والبهاء المفتقد، ثم تنشد وهي تنشف شعرها بورقة كبيرة من البردي بصوت يغطي العالم بسحر أخاذ. أحببتها حتى الموت، أهديت لها مفتاح الحياة فوهبتني الحياة، وركضت في البحر. ومن الشباك امتلكت العالم والبنت وكرة أرضية فوقها كرة من نار، فقهقه الملك الأريب ورفس برجله البيت فمال، وجاءت الموجة أخت الشيطان فأخذته على جوف بحرها الأسود. وسألني هل تستطيع البناء؟ فأنا الواقعي بنيت بيتاً من طين وسوقاً للماشية وكفا بلون أحمر وفرناً للخبيز رائحة القرى مدخنة، فعطس وعطس وقال أف، ورفس برجله البيت والسوق والفرن.

مسحت أمي دموعي ودفعتني بخفة للتي أفسحت لي صدرها، وقالت اجلس في ركن صدري وأحلم بقلعة وبرج، قلعة بسبعة أبواب وسبع رايات، وبحجرات تسكنها تلك الرائحة العطرة وتلك الروح العنيدة وفي البرج أنا أحمي حماك لا يخدعني الموج ولا السحب أهتدي بالشمس والقمر والعينين، وكان أن ضحك الأريب وقال لن نغتالك في وضح النهار ولن نقبض عليك في الليل البهيم، ولن نتهمك بما ليس فيك، فقط إرحل سافر.. غادر، وسيكون بينكما البحر قلت والسماء والأعداء والأشلاء. فرشقوا البحر بأعمدة

من نار، والتي وهبتني هدأة السلام وحلاوة الحروف وعطر الحياة غابت عنى، فقهقه، وتفحصني بعين واحدة، ورفع بإصبعيه علامة الانتصار، بينما طائرتي تطير إلى حيث بنت تتفجر شظايا وحبا خلف شجرة من صبار.

# وســـــن

ببساطة، جلست بجواري، لفحني نفسها، ولمس أنفها خدي، ومددت رجليها في النهر فهرعت إليها كل الأعشاب وعانقتها، مالت للنهر لتسمع خريره الخادع، أمسكت كتفها بقوة خشية الغرق الذي جربته مرات عديدة، تجمعت الأعشاب وندهت لها الأعماق، فأمسكتها من بطنها وحذرتها من الشرك. فرح بنا الشاطئ وأخذنا على حجره حتى الأصيل حكيت لها عن المملوك الشارد، وحين هاجمنا صوت "الجاز" صاخباً نبهتها للذي قبالتنا إذ كان يجلس على الشاطئ الآخر معلقا فوقه قمراً صناعياً بينما هو يحتضن عوده يعزف عليه "الجاز" وبجواره علق شجرة في قصيدة. مطت شفتيها الحمراوين وأخرجت لسانها، ثم بصقت، ولم أفهم شيئاً. تكدر النهر والتفت على رجليها الأعشاب والأسماك والطحالب، رمت لهم بقطعة من الفضة فغطسوا وراءها وضحكت. همست في أذني ببساطة: أيها الغالي ألا تستطيع أن تشق قلبي وتنام؟ نظرت إلي رغبة عينيها، وانفطر قلبي. بيدين مرتعشتين فتحت

أزرار بلوزتها الحمراء وتلمست أصابعي الصدر المنتفض.. ثم بيد مشبوبة شققت الصدر، فقالت ها. طويلة، وصمتت، وانداح الدم وتلونت المياه بحمرة ذكية فنزلت كل الطيور التي اختبأت طول عمرها في أغصان الزيتون تحسو دمها. آه.. أنت التي اقترحت، أنت التي شدتني، أنت وحيدة في فعلتك لا أستطيع الإفلات من سحرك الذي أخذني طفلا ثم جنينا حطني في رحمك، حاولت فك لغة عينيك وتاريخك الذي اختلطت حروفه، لم ترد أين سأنام الآن؟ ها صدرك مفتوحا وقلبك انفتحت حجراته لم ترد. هل سنعود يوما ونحكي لبعضنا؟ سؤلك أرده إليك بكل عجزي. الآن أستطيع أن أجلس تحت الشمس حتى الاحتراق، ما الذي يبقى سوى الروح، والأحرف التي خطتها يدي في الحجر الأصم وبعض من محاسن الكون سأودعها في حجاب وأدفنها تحت ضلعي، وربما تحول ترابي في قبري إلي ملمح من وجهك الذي غاب في سراب اللون. هززتها، شخشخت الفضة وسمعت صلصلة الأجراس تعلن عن همجية الآتي فانتفض العصفور على الشجرة وهجمت الطائرات بعنف واشتعلت القلوب.

منذ قليل كانت معي، تجلس بجواري ببساطة، كانت تلبس الجورب وهي تحدثني عن آلام المعدة مدت ساقيها على حجري وحدثتني عن حبها لـ "البيتزا"

منذ قليل عندما كنا في الشتاء الثلاثين من عمرها جلست

قبالتي في المكان الدافئ وقالت لي: احمني. ودهشت في ذلك الشتاء الثلاثين لأنني لا أملك ذلك. وضعت قلبي على المنضدة وقلت: كل ما أستطيعه. جرت، تركتني وجرت، وهبوا وراءنا جميعا. وكنت خلفها أنادي باسم غير اسمها حيث اختلطت الأسماء. لم تفتهم الفرصة، تعقبونا كانوا حريصين على ذلك. تركتني وجرت، وتركت معطفها على الكرسي. ولما كنت على وشك الإمساك بها تذكرت معطفها فإليه رجعت وحملته في حضني، فشممت عطره. أخذني العطر، دفنت وجهي في المعطف فوجدت رسائلي فيه فأخذت أعيد قراءتها، فانسابت موسيقى، نظرت لأعلى حيث الصوت. هو الذي كان على الشاطئ الآخر يحتضن آلته الموسيقية بملابس قديمة وعباءة غريبة تفوح رائحة عربية قديمة، وكان منفعلا بلا صوت.

وانهمر المطر فلبست معطفي وحين فارقني عطره تذكرت الجارية في الأرض فجريت، فوجدتني بينهم، وبينهم جلست، كانوا يلعبون الورق ويشربون العرقى ويلقون شعرا. دخنت سيجارتي، وقلت له: لا مشكلة.. فليحمها أحدنا. مسد شاربه وقال: لا تحمل هما.. هي لا تحتاج لحماية. ثم أخرج من جيبه صورا لها وهي عريانة فضحك الجميع وأصبت بالدوار. أخبرتهم أنها أختي وأني سأصنع لها معبدا تزوره الشمس مرة في عيد مولدها، ومرة في ذكرى وفاتها، إنها أختي التي تسبح على ظهرها في النهر فتكون بطنها قبه السماء. شدني هو وأعطاني المسدس وقال: في الغالب

أحمله ولا أستعمله، مشيت في أرض الوطن الذي لا أعرف وسألت نفسي: ما الوطن؟ فخرجت على غيلان الشجر ووحوش الرمال، وهبت العاصفة على الصحراء ورمدت عيوني في رمالها. ثم ترددت أغنية حماسية لم تتوقف وأنا في السيارة الأجرة. نزلت الميدان فعانقني الجندي، ومنه تفوح رائحة عرق الحرب كلها، وجلسنا على رصيف الوطن، أعطاني صورة فتاته، وصورة أمه. وخطابا عن رغبته في أكلة سمك سألته هل ستحنى ظهرك للعاصفة؟ أجاب: لا. سألته إلى أين إذن؟ قال: إلى هناك، عند الآخر، تحت النصب المجهول. وحين أصبح المجهول على مرمى البصر انهمر المطر بشدة شممت فيه رائحة التعويذات، وسيل السباب بين كبار قومنا، وكان وسخا كالنفط، وانهمر على رأسي برد أضاعني. قلت: ربما سيصيبني السل. وقلت: ربما سيسكن البرد عظمي. وتذكرت دفئها حين ضمتني في صدر طيب وسخونة مرتعشة، همست لا تخف لست غريبا...ها... كلنا عرب... أليس كذلك؟ ثم سألتني أن أدعك لها ركبتها وحين قبلت ركبتها، فأخذت أفعل، ركبتها بكت بقوة، ودفعتني، وصرخت: لماذا؟ ثم جلست وأخفت مفتاح الحياة في صدرها وسألت: لماذا؟ وصنعت لي القهوة بالهال. قلت انظري. وطمرت نواه البلح في الطين، وقلت: سننتظر. ردت وهي تقرأ كتابي: غريبة.. ألا تملك بندقية؟ كان النصب مملؤا بالبنادق القديمة التي قتلت القليل من أعدائنا والكثير من أبناء عمومتنا.

والأزياء العسكرية مفروودة تبخ في وجوهنا رائحة الموتى. وأعرف هذا الجندي المجهول الشكل والنسب عرفته عندما منحونا أجازة في العام الدراسي، ورأيته في الزجاج الأزرق المعتم، وعرفته ذات صيف مرير وقاس وعرفته ذات شتاء طويل، وأسمع عنه كل يوم من البث الخارجي والفحيح الداخلي. قرأت عليه الفاتحة وألقيت عليه السلام، لم يكن راضياً، نحن سقام، رفعت يدي داعياً بالسلام، فرأيت الرايات كلها منكسة رغم شدة الهواء الذي دحرجني، وتبدلت أشكال الرايات تنط الصقور والنسور والسيوف وتتبادل مواقعها، وتخفت النجوم، وتتبادل الألوان شحوبها. هويت من فوق درجات السلم حتى الأسفل. كانت تقعي مرتعشة مبتلة ساخنة، تساقطت الحناء من شعرها فبللت الأرض بلون الحنة وشوقها. وكانت ترتعش وهي تهرف: الملجأ... المخبأ. قمت إليها وانحنيت عليها، صنعت من نفسي خيمة عربية، لكن الريح الغربية تأتي الآن من الشمال والجنوب. جعلت نفسي بساطا من الصوف ملونا، ومن عين غجرية هربت الحروف العربية. الملجأ التلاميذ. زعقت حين أعادتني الكلمات لذكرياتي المنهزمة كفى. ووقعت خيمة متهاوية. نهضت الناقة وفزعت العنزات بكى الغريب على الخليج. قالت سأرحل للحجارة. لم أرد. ولما رأتني على وشك لفظ نفسي الأخير. ارتمت فوقي أنا أحبك وأعبدك وأشتاق إليك وأحب وجودك وخلودك وكتبك وفمك ثم نفخت بفمها في فمي. تسربت أنفسها في

رئتي اشتهاء وبكاء وهواء. همست في أذني ببساطة: قلبك... أخذته من على المنضدة وجريت، ونسيت معطفي! أحكمت معطفها على دمي، وودعنا الشهداء، وغاض ماء النهر.

# غـــــزال

أخيراً وجدنا الباب مفتوحاً فدخلنا. أمسكت يدها، وضغطت بحنو، وابتسمت لأول مرة هذا الشتاء. كان المكان خالياً، واسعاً، وفقد رائحته القديمة، ولم تتسرب الهمسات للأذن. الآن ندخل من الباب ولا يلمحنا أحد. صورة الغزال رصينة ما تزال. امتلك الغزال رغبة الفرار من الإطار. جلست على أول كرسي إذ كنت متعباً فصعود الجسور المكسرة والهبوط إلى الشوارع المهجورة أمر مرهق. خلعت معطفها البنفسجي اللون وطوحت به فارتطم بمائدة اهتزت بعنف، ووقع الكوب الزجاجي ليصنع ضجيجاً. ضحكت بصوت مرتفع وما حدث في اللحظة هو اكتشاف المكان. هنا كان يجلس المحبون والعشاق وأصحاب جرائم الحب الصغيرة والأزواج الذين فروا بعد شخير زوجاتهم.

قالت: انظر مائدة مفروشة وبها مزهرية مزينة بالورد الناشف. وشدتني بقوة لأجلس أمامها على المائدة، تأملت عينيها المصممتين على الفرح والبهجة. قلت لها: أنت مسكينة. تحسست

بيدي مفرش المائدة لأنني أبحث عن كلمة مناسبة لا تقتل رفاهتها وبحثها الدؤوب عن الحياة. تحسست عملة نقدية تحتها ورقة الحساب، بفضول قرأت عن مشروبين وقيمة المشروبين. وسألتها أين أكواب المحل، وأين المشروبات؟ أمسكت بيدي ترجوني وتهمس: اترك الهواجس.. نحن الآن نتنفس. ذات مرة بعيدة حين حضرت لهذا المكان كان مضيئاً ودافئاً، كان البرد في الخارج شديداً. خلعت الكوفية عن رقبتي ودعكت يدي ولمست ذقني الناعمة، وشممت رائحة عطري، وتصنت للأغنية التي أحب والضحكات الخافتة الراقصة، ونظرت في ساعتي بقلق لأن دقائقا ثلاثا مرت ولم تأت بعد. فاجأني قائلا: صباح الخير... أنت!.. انتظرتك العام الفائت ثلاث مرات.. وبالأمس سألت عليك أربع مرات.. وفي صباح اليوم.. هاهي. فتحت الباب بهدوء ودخلت مضيئة بالفرح، وابتسمت، وخيل لي أن الجميع بادلها الابتسام، لأن أغنية واحدة بدأت تتسرب في المكان، ويومها أمسكت بيديها الباردتين حتى استدفئتا تماماً وقبلتها فصفق الجميع، ورفعوا أكوابهم الزجاجية في تحية متلألئة، أطرقت برأسي، بينما هي شكرتهم، وطلبت أن تقدمني لهم فرفضت، وقالت إنهم أصدقاء وأهل. قدم لنا النادل القهوة باللبن، وصورة الغزال كانت متوهجة بقوة دفينة ولامعة لامعة لامعة. الآن الغزال خارج من تحت التراب لتوه لينظر لنا بعينيه الكليلتين. سألتني: هل أنت نادم؟ قلت: على أشياء كثيرة، وليس على هذه اللحظة. تذكرتهن:

الأم والبنات، كن يلتففن حولي ونحكي لبعضنا حتى وقت متأخر، أهديت للأم وشاحاً، وأهدتني عيون التي أهوى، وأنست إليهن، وعني كن يبحثن، لهن بعض ملامحها، ولي بعض أحلامهن. وقفت، استأذنت لتدخل الحمام. ما أن اختفت حتى كدت أركض وراءها. شعرت بالوحدة، نظرت خلال الزجاج للشارع الخالي البارد. بنايات، وأسفلت، وفضاء يفضى لفضاء، لوحه متجهمة لا يشقها عصفور، لو أني أرى رجلا يمضي واضعاً يديه في جيبه ويصفر لحنا ما. لو أن سيدة ينفرط منها الخضار والفاكهة فيهرع العيال يساعدونها ويخطفون منها وتصيح فيهم، وتبتسم عجوز تطلق نفير سيارتها ويتعطل المرور! صمت ثقيل. لا الطيور ولا الطائرات تمرق الآن. لون واحد يطغى على الشارع قمت واهنا، وضعت يدي في جيبي حاولت أن أصفر لحناً جديداً. لم أستطع. حاولت الجري والقفز، لوحت بيدي، ناديت على أصحابي بأسمائهم. بلل جبهتي العرق. لم أجد منديلي، وحدي والصمت. هرعت إلى المكان. الباب المفتوح والمائدة، وبالضبط مزهرية الورد الناشف... ومنديلي. ناديت عليها. لم ترد، ناديت خفت أن أكون الوحيد في العالم، وجودها فقط يثبت أني لا أحلم، بسرعة جريت إلى الحمام، كانت تضحك ورشاش الماء يداعبها، داعب روحي أيضاً، ركنت بظهري على الباب لو غابت مائة عام أنا مطمئن الآن. ليهنأ بها الماء، وليمسها برفق. ضحكت عاليا. سألتها: ماذا؟ أجابت بدهشة ألا تدرك معنى وجود مياه في

هذا الزمان. ثم زعقت عليّ: اصنع لي شايا... عندك كل الأدوات.. فقط احترس من الحشرات والنمل... والنمل في السكر.

خرجت للصالة الواسعة، وقفت خلف المنصة الرخام هناك.....

هناك تماماً كانت الفتاة تضحك وكان الفتى الذي معها يغني بصوت شجي وجميعا تركنا محبوباتنا وسمعنا إليه، وبعضهم أخذ يردد معه، والفتاة تعض على شفتها السفلى خجلى، لماذا لا يغني أحد الآن؟ وحين دخل الضابط مع امرأته –يومها- ظل يبحث عن مكان ملائم، ثم انزويا بعيداً تحت هذا الشمعدان، لم يهمس في أذنها مثلما نفعل ولم تتعانق الأصابع، كان جامدا أو بالضبط على وشك البكاء، خلع الكاب وأخرج علبة سجائره. ثم نسيته ورحت في عينيها إلى المستحيل، ضوى شعرها الأسود المحمر والتمعت عيناها عندما اعترفت بوجودها الوحيد. قفزت فوق المائدة وأسفل الغزال، ورفعت يدي بالمعطف ولمعت الصورة الكبيرة اتسعت رقعة الرمال وراء الغزال وبانت الشمس الغزالة، وكاد الغزال من فرط بهجته يرمش، أنا داهمني الفرح، وبهمه أخذت أعدل الكراسي الخضراء، والموائد الخضراء جاهدت في تذكر وضعها القديم لأعيدها إليه، وضعت المزهريات على الموائد بدون ورد، تقابلت الكراسي، كدت أسمع همس الكراسي لبعضها. وفي الركن البعيد مكان الضابط لم أجد سوى كرسي واحد وضعته مكان السيدة، هكذا ستجلس وحدها، وبجوار العمود الذي يتوسط المكان رأيت المرأة ذات الرقبة الطويلة

التي انتظرت طول الوقت ولم يأت رجلها. هنا كانت المائدة، وضعتها في مكانها. هنا كرسي المرأة ذات الرقبة الطويلة، وهنا كرسي الرجل الذي لم يأت. تردد قليلا. جلست أمامها، ابتسمت، ابتسمت بألم، حاولت أن أقوم بدور الرجل، سمعتها تتمتم: كيف خرجت من تحت التراب؟ فزعت، تركت الكرسي، وناديت على التي تستحم فخرجت بشعرها المبتل وسعادة ناطقة، أخذتها في حضني. أخاف عليها من البرد والرجال، فكرت كثيراً أن أضعها في صدري وأقفل عليها وأمضي بها وحدي مخترقاً تلك الغابات التي لم أرها أبدا. سألتني: أصنعت الشاي؟ ابتعدت، انحنيت، قلت بطريقة النادل: سيدتي... مشروبك الساخن بعد قليل. شددت الكرسي: تفضلي. أضفت: الأستاذ سيأتي بعد قليل، لو في المعتقل سيأتي. وتركتها، ودخلت حيث الموقد والأكواب. وقفت أمام المرآة تمشط شعرها، وحين ظننت أنني لا ألحظها أخذت تبكي وتنشج، وأهدرت المناديل. أعرف أنها تراهن الآن عندما كن يلعبن ويمرحن ويجرين فوق الجسور، وتذكرتهم وهم يسهرون في القوارب ويهسمون في السينما، ويتناقشون في الكتب، وفي الآخر يشدون أغطيتهم وينامون، كانت لما تنام ترى في المنام طائراً كبيراً يلقى عليها حب الرمان. قلت الأحمر المتوهج. انحنيت، قدمت الشاي، سكر خفيف، اعتذرت عن عدم وجود اللبن. وضعت رأسها على المائدة ونامت، استغرقت في النوم، وبدأ الظلام ينتشر في المكان. لا توجد كهرباء، المصابيح باردة

ومتربة، داعبت شعرها فقامت، وكأنها نامت دهراً. قالت: ياه... كنت معهم... عندما دفنوا جميعا سواي.

أخذتها تحت إبطي وخرجنا من الظلمة إلى الظلمة، وصدمتني رائحة البارود والموت. مالت برأسها على كتفي وقالت تداعبني بابتسامة مكسورة: انظر: الغزال يركض ورائي.

# خفـــــق

قال الرجل إنها ملكي، وكان عجوزاً جداً، وكنت أنا صبياً جداً، بين يديها أغني التواشيح فتنساب هي عطرا يدخل الدور، يمكث في قلبي مسكاً لا يبرحه، فيما حاول العجوز انتزاعه فأدمى قلبي، وكنت أنا صبيا جداً أنط وأقفز أعدو فتحسدني العجائز على مهارة روحي، ربتت على رأسي وقبلت خدي فهدأ جنوحي. وركبنا السيارة حتي تكدس كرسيها الخلفي بأوراق لم نفضها بعد. كانت تقود بسرعة فائقة وتتكلم بسرعة فائقة، وقلبي يرجف يرجف، رأيت عينيها في المرآة الصغيرة، لم تكن الحرب قد شظت المرآة، ولم تكن قد تشرخ قلبها من حفرة في باطن الأرض. ولم أكن بعد قد شخت وعلقت حزني على فرعها الذي جف وأن. أنست بعينيها الواسعتين الحمراوين، لعلها بكت أو كانت على وشك، لكني كنت أرتجف من لذة وجودها بجواري، تأملت بدقة رموشها وذقنها وأنفها، وضعت يدي على ركبتها "لا تسألي عني الطيور.. فإنني أصبحت من نبع الطيور غيورا" ثم رقصت أظفارها على الزجاج، تترنم، لم

تكن قد ولولت هي "أيها الراقدون تحت الثرى نهنهت ففردت ذراعها اليمنى وأخذتني تحت إبطها فشدتني تلك الرائحة إلى ولع لم ينته. قالت سنصعد للجسر، وننزل خلف الجسر حيث البنات يمارسن تحققهن مع الصبيان تحت شجرة الرمان، وطارت من فوق الجسر، هلعت وضحكت، شالت يدها عن كتفي، وضعت النظارة على وجهها النحيف. قلت لا تتركيني. شطت بنا السيارة وجرتها الجن إلى وهدة في صحراء، فرأيت فيما بعد النخيل وقد جزت رؤوسه، ورأيت فيما بعد أن الجسر الذي حملنا كأجنة توأمين بيع في صور ملونة مدمرا. وقفت فوق الجسر وسألتني ما رأيك؟ قلت لا بأس، فأجهشت، وصرخت: أتتركني للعجوز؟ لا بأس!! نزلت من السيارة مسرعة، وأخذت تردد بأسي لا بأس !! ثم اعترفت أنني لم أسمع كل ما حكت، لأنني شغلت بلون العينين وأنني دهشت من جمال كثافه شعر حاجبيها، وأنني ظللت طول الوقت أخمن لون طلاء الشفاة. فضحكت وضحكت. أخذتها في حضني، مرقت كل السيارات، لم نأبه، رموا إلينا الزهور والمناديل رشونا بماء الورد وعلقوا الجعران الأزرق في السماء من عين الحسود والعدو، وطارت فوقنا النقود الورقية تحمل في طياتها تذكار رائحتهم، ورأيت فيما بعد كل هؤلاء وقد وقفوا مقطوعي الأيدي بجوار ملجأ للأطفال يشحذون ورقة نقدية واحدة أو كوبا من اللبن، ورأيتني لم أبخل عليهم بدموعي، لأن حليبي قد سكبه الشيخ الأعمى حين ضرب

بعصاه على يدي الضعيفتين. همست في أذنها لن أتركك لهم، فطارت بسيارتها بلا توقف فسكت المذياع عن هول ما يحدث وذكر فقط بأن أصابعنا تشابكت في عنفوان محب، وانفتحت الصحراء قلبا عطوفا.. أما حنوانا، ورأيتها فيما بعد جحيما تخرج غلها من طائرات وقنابل، وناح الحمام على القبائل. صرخت لن أقف بعد اليوم. رمت معطفها ونظارتها، وأنا دعوتها للدخول في الهواء وشق الفضاء وحين وصلنا سألتها: دمشق.. أم البصرة؟ قالت وهي تعض على شفتها السفلى وتكتم ضحكة بالوجه: وصلت إلى قلبك مباشرة. وأرخت الحرب سد ولها ولم يخرج عنترة وعرفت أنه كذب علي لأن ناراً صارت الأرض وجحيماً خيولنا. سحبت أصابعي من خصلات شعرها. انتبهت قالت انظر. كانت الأشلاء تفرش الرمال، تلغ في الدم، والدم حار، تحسست جسدي لم أجد جرحا واحدا، ليس سوى آلاف الأحلام. القصص... الحكايات تتقشر على جلدي. أخيراً دمعت عيناها وقالت: لا عليك... سنرجع سيرا على أرواحهم. وبعد أن تعبنا تماماً رأيت العجوز جداً يبكي كطفل فخلعت معطفها عليه. وسارت بجواري عارية فسترتها، وخرجت التواشيح مواويل ممسوخة، وبكل ما أستطيع خبأت ابتسامتها المكسورة في ذاكرتي للأبد.

# ملـــح على جـــــرح

كانت تضحك، باليقين. كانت تملك ابتسامة عذبة، ومكسورة، ولما ضاق بي البيت أخذتني خارجه، شكوت لها الذي يترصدني والذي يرهقني والذي يمص دمي، فداعبت أصابعي قلبي، وغنت.. يا برتقالة قلبك يا حبي كالبرتقالة.

ثم أخذت تصفر وهي تلف رأسي المثقل بذراعها، وفرحت بها فأخذت أتلو حكاياتي وهي تقف كمعلمة وتخلع نظارتها وتقول: هذا جميل.. هذا جميل.

وتمسكني من أذني وتقول: هذا حقيقي أيها الولد العجوز. وجرينا على جسر يتمدد فوق النهر بحب بالغ وحنو اللحظة. جسر من حديد وأسمنت له دفء القلوب ولنسمته حلاوة الحياة. طار شعرها من نسماته فبدت جميلة وهي تحدثني بشعر منكوش، فقلت لها حكاية التاجر الذي خطف البنت الجميلة من المثقف ذي النظارات الطبية. فضحكت بصوت عال فجرى المارة علينا، وجرى العسكري والمتحفظ والمستهجن، وانفلتُ معها إلى قلب المدينة. قالت لي: هذا المطعم الذي أفضل أكله. وأكلنا، وشربنا الشاي الذي نهوى.

وحين شربت الماء البارد قالت: هذه عيادة طبيب أسناني.

قال الطبيب: لا تشربي الشاي الساخن مع الأغراب وبعده البارد مع الأغراب. فتحت فمها عن آخره دهشة وقالت: ليس غريباً، وهذه أسناني لآلئ أهداها لي يوم ميلادي الذي لا أحبه. ونزلنا الدرجات نضحك ونضحك ونضحك. وصعدنا الدرجات بعد أن ضمت بلوزتها جيداً على صدرها، صعدنا الدرجات ودخلنا فكان المرسم الذي به مئات الصور من أجل عينيها. وقال لي العجوز:

كيف أمكنك العثور على هذه اللوحة. وبحثت بعيني التي لم تفهم، فقال لي: هذه فنظرت وأخذتها وجرينا نضحك ونضحك. ثم قالت: الآن أسكت.. هذا بيتنا. ورأيته وحين أردت دخوله وحدي نبحت علي الكلاب، فجريت. فضحكنا وضحكنا وضحكنا.

وحين عدت إلى بيتي لم أر شيئاً غير سواد، ولم أشم سوى رائحة البارود والجثث. وحكت لي القنابل كيف دمرت كل شيء وسألت نفسي وأنا أبكي: ولماذا بالذات الجسر والمطعم والعيادة والبيت؟ وسألت نفسي ولماذا كنا نضحك كل هذا الضحك؟

# البكـــاء الأخيـــر

بعد أن حلقت ذقني، وارتديت المعطف الذي تحبه، دققت النظر لأتأكد من ملامحي، نصف ابتسامة، وفرح يغمر القلب. بعدها قالوا أنني كنت أطير ولم أر أحدا في طريقي، وأقسم صديق أنه شدني من يدي اليسرى، لكني كنت بعد لحظة راكباً التاكسي الذي حدثني سائقه عن الغرام وروائح العطر والأغاني القديمة ومناديل العشاق. وتوتر القبلة الأولى والموت في القبلة الأخيرة، ثم أصبح أكثر حدة وهو يحكي عن التاريخ الدامي ومشانق النخيل ومسدسات المحبين، وقبل أن أتحسس قلبي رماني أمام المكان. شممت رائحة الطعام، وسمعت موسيقى خافتة تطن في أذني، والمصابيح تضوى، فدخلت متعثرا. على الباب التقيت به، وكان عجوزا وفي يده عصا من شجرة عتيقة، رفعها في وجهي سائلا: إلى أين؟ نظرت حولي وسألت: هل المكان مغلق؟ أشار بعصاه وتمتم في عجب: أدخل. ومط شفيته خلفي، وسمعت همس الجنون، فدخلت. لحظة من سكون رهيب ذي رائحة مميزة. أحسست بثقل الصمت

الناتج عن خوف أو دمار.. أو... سمعت ضحكتها، تنفست بارتياح، لم أخطئ المكان، تحسست العنوان بجيبي وتذكرت أنني رغم كل شيء دفعت النقود للسائق وبأنني قرأت اللافتة وميزت ضحكتها، وشممت عطرها وأنا واقف بجوار الباب وخلفي العجوز يتابعني بعينين محروقة الأهداب. ضحكتها.. هناك. دخلت، مشيت باتجاه مائدة محددة كأنني أحفظ سكتها منذ وضعتني أمي في يناير قديم وبارد. كانت المائدة في برودة ووحدة، شددت الكرسي وجلست، بعض الدفء سرى في الكرسي والمائدة، وبعض البرودة سرت في جسدي، بحثت بعيني وبقلق عنها. لن تتأخر. تعشق المحبة لهفة العاشق المحب فتتأخر الدقائق لتمتلك أكبر مساحات من القلب. تابعت السيارات. لم يأت النادل، هو يعرف أني في انتظارها، جلست حاملاً قلقي مر رجل متفحم وجوعان. أنا أعرف شكل الجوعى لكنني لا أفهم في التفحم. قرضت أظفاري لعلني الآن طفل.. لعلني.. معي العنوان والنقود ومعي قلبي. نظرت خلال الزجاج، العاصمة تموت الآن في البرودة، بينما يتسلل أحدهم حاملاً قنبلة وقابل سيدة عجوز فابتسمت العجوز ابتسامة واسعة ثم انحرفت يمنياً واختفت بعد انفجار القنبلة. وعندما أتت سيارة واقتحمت المطر حاولت أن أتابع الوجوه، أن أحس رعشة البرد ودفء جيوب المعاطف. لم أستطع. أكلني قلقي إذ أنها وعدتني بتفاحة وصدر وشفاه، وكنت أحمل في حافظتي هويتي. قال سأحاول إيقاف دورة

الأرض حتى أشبع منك، لكني قلت سترحلين معي إلى حيث نهاية لا تنتهي، ثم أنها وعدتني بيمامتين وأغنيتين، ووعدتها أنا بجملة لها مذاق التراث وجنون المجهول. ابتسمت. أنا أحب ابتسامتها خاصة. في الهاتف أخبرتي بمفاجأة. سألت هل لها ملامح؟ قالت لها روائح عطرية وحب مدهش، فسكت ونسيت أن أقبلها. وحين دسست في يدها سرى لم تفتح يدها بل دست يدها في صدرها وسرها ووضعتني بين دفئين، ياه. ثم إننا.. لماذا يبص على هذا الرجل بهذه العين ولماذا يمسك بعصا ولماذا خلع ملابس زماننا وارتدى ملابس الصحراء؟ ويدندن كلمة واحدة بملل: يا ليل... يا ليل. ولا أعرف بالضبط كيف شممت رائحة بارود!. كانت في الهاتف قد دعتني على عشاء مع روائح عطرية في بهجة الزمن قبل البكاء الأخير. سمعت همسها، شهيقها. دخلت بفستانها وكلامها وحقيبتها كدت أركض إليها، قلت اهدأ أيها القلب فها هي. ودخلت واكتشفتني من أول وهلة كما اكتشفتني لحظتها فوق جسر على نهر، رفعت يدي ملوحاً فعضت شفتها السفلى بفرح فتاة وأدراك امرأة، وقبل أن أناديها باسمها رأيت أختيها معها. الكبرى ترتدي فستاناً جميلاً مثل نجوم السينما وشعرها يسدل ستاراً على ظهرها وقبل أن تجلس حكت لي عنه وعن شروده مثل ظبي وبكت وقالت أن الصحراء تافهة وأنه حبة رمل مضمونة في يدها، ثم قالت لا تزعل وحاول أن تغني معي. سحبت يدي من يدها الباردة ودهشت لبكائها وأخرجت مناديل

الدموع ونشفت ما فاضت به العين، وابتسمت الصغرى وهي تقلب بين يديها مجلة مصورة ملونة، وكانت مشرقة الوجه، ترتدي البنطلون والبلوزة البنفسجية ويبدو في شقاوتها سحر الأنوثة. أما هي فكأنها ليست هي. كانت كعروس تمد يديها للحناء، قدمتها لي. إعرفهما من سنوات بعيدة، تربت بيننا الحكايات وقصص العشق والشجن كنت أعرف ما يخبئن تحت الوسائد، وما يحلمن به، وآخر ما اقترفن من آثام حب صغيرة. جلستا أمامي. جلست هي بجواري ابتسمت وقالت تقدمهما: روائح العطر.. أكذبت عليك؟ قلت لا.... هما أختاي من زمن بعيد. قالت: وهما تحبانك مثلي. أحمرت الصغرى خجلا. أكذبت عليك؟ قلت لا.. هما حب مدفون في صدري.. ابثهما الحنان والحب كلما اقتربا. أخاف عليهما كلما ابتعدا. قالت: لكنك لن تجد مثلي في المدن والبراري ولا في السماء. قلت لم تكذبي. اقتربت مني لامس كتفي كتفها، ثم استندت برأسها على كتفي. ماذا سنأكل؟ شددتها من يدها، قامت معي، درنا في المكان. علينا أن نختار اللحم والأرز والبيتزا والشاي والقهوة. حملنا السلة، قطفت زهرة قرنفل بيضاء، ودخلت بها تحت شجرة الموز ولعبنا معا في نافورة السمك وسبحنا خلف الألوان ونشدت نشيدها الباكي وخلعت ملابسها تحت النافورة باحثة عن أغنية للدفء فيما كنت أدعك لها ظهرها، حدثتها عن الطفل الذي يحلم بسندباد، وحين تمددت أمطرت السماء عصافير ملونة حطت عليها، وشممنا رائحة

الفستق وأكلنا الفستق ورجعنا بشبع. وفي لحظة فرح يحاصرها الخوف أمسكت أيادينا ببعضها وسرى دفء بلا حدود، وعلى المائدة من كل صنف ولون، تلهينا عن الأكل بالحديث عن الفرس والروم وماركيز وشوق البنات وهاجس الكتابة والموت في قوقعة، والسياب وعفيفي مطر، قلقت وقامت، تبادلت مكانها مع أختها الصغرى، قالت: لأجلس في عينيك. ولما تكلمنا في العشق والقتل قامت بقلق وجلست مكان أختها الكبرى قلت تشبهين الشموع في تألقها.

قالت الأغنيات تستعصى عليّ. أمسكت يدها لأشدها نحوي. سألتني: ترى كيف تكون نهاية علاقتنا؟ أخال أنك اضطربت وأنني هزني الدوار وأن الزمان حط بكل مسخه على كتفي. ترى؟! قلت: لعلها البلاد وأزقة البلاد وجوعها وحواريها وعيالها وموتها لعلها.. ولعلها الجبال بشمسها وجفائها، ولعلها الصحراء بعاصفتها تفصل بيننا، لعلها السحب تنأى بعيداً فلا تحمل السلام لعله المطر.. مطر مطر.. لعلها القنابل قلت تتشظى بيننا، لعلها المائدة... قلت لا.. لعلها الرسائل تبعد بيننا حين تعجز عن نقل سخونة القلب وفزع الخاطر.. ولعلني سأكون في هذه اللحظات في البعيد البارد وأنت هنا في القريب الملتهب، ستعيشين في الموت وأموت أنا في الحياة. سأقف في طابور الخبز وأقرأ الجرائد القديمة واكتب الحكايات المفعمة بالشجن ستمتزج المرارة بطعم القرنفل وتعرى الحدوته في الشمس. السهد في ليالي الصيف والقهر في ليالي الشتاء، لكني على

أي حال سترجفني رسائلك، ربما حكيت عنك للأصدقاء أو عنك كتبت ملحمة، وربما أعيش طويلاً فتعبر بي ابنتي الطريق وهي تسألني ماذا تشتهي؟

فأقول ذكرى فريدة أكاد أنسى تفاصيلها، لكنها دائماً تضعني على حد الحياة، أو.. ربما هو انقضاض النسور علينا، فأهرب من الجوارح وأكتب لك وتكتبين في معركة لا متناهية... وربما يتحلل الجسر الطيب الذي تعبره رسائلنا، أو لعله الفلسطيني يهجرنا بلا عودة... ثم.. ثم.. الرسائل الأسبوعية تصبح شهرية ثم في كل عام بطاقة تهنئة بعيد غير سعيد، وفي يوم ميلادي ترسلين بطاقة وتقولين ظللت طول العام أبحث عنها ثم يبيض شعرك وتتكئين على رسائلي وتنسي الرد عليها و.. وهكذا تضحك علينا السنون، بعدها بعشرين عاماً سأرجع عجوزاً أراك عجوزاً لا نتعرف على بعضنا وحين نتعرف على بعضنا ستنطقين اسمي بصعوبة ونروح في ضحكة مصحوبة بالسعال...و... فقط.

ضربت المائدة بيدها فاهتز الطعام، واهتزت أحياء المدينة والجسور، علت أمواج البحار، وسقطت اللوحات في معارض الفنون التشكيلية، وتلعثم الشاعر فوق المنصة، وهرب الرجل من بيته وهو يتحسس مسدسه، وتساقط البلح، وازدادت دقات قلبي ومسحت عرق جبهتي. ربتت علي الصغرى، وأمسكت برأسي وضمتني لصدرها. ضربت المائدة ثم هدأ العالم، لا.. بل مات العالم في هدوء، واغرورقت عيناها بدمع حارق، وبصت في عيني وتمتمت بألم: ليس هكذا.

وكن يبكين وقد بدأ صاحبا المحل في سحب المفروشات والأكواب والملاعق، ونزع الصور من الحائط وكتم صوت المغنية ورفع تسعيره المأكولات وحلق شاربه ووضع حذاءه فوق المنضدة، وهرب البعض وهو يصفر لحناً غامضاً، والبنات حملن أحذيتهن وهرولن كأنها غارة، فيما سألتها كيف أذن؟ خلسة عبرت قطه، ترنحت هي ثم استعادت حياتها وقالت: ببساطة.. ذات صباح له شمس سننزل البحر.. ثم أروق لك مبتلة فتحضنني سأشعر بيديك خلال الماء، بدفء ينتشر مثل الدماء.. وحينها نغرق في فرح وموت بلا قرار.

تأملت وجهي المتغضن طويلاً وقالت: أو... ربما....ذات مساء شتوى ثقيل نستمد من الجمرات دفئنا واحمراراً للجسد يحترق المنزل ونطير رماداً ناعماً رقيقاً شجياً فوق كل القرى ونختفي في حبات القمح أو نغوص في قرار مكين.

اعترفت بشح خيالي وضعف طموحي وهرم روحي، أطبقت على يديها فاستسلمت كطفلة ولحظتها ابتسمت الكبرى ووقفت الصغرى بحماس بالغ، فجاء صاحب المحل وزغر لهما بعنين قاسيتين فانطرحنا أرضاً فيما وابل من السباب يحط علينا لأن العاصمة كانت تشتعل. ولم يبق أمامي سوى ضمها بين جناحي الصغيرين القصيرين الواهنين فتسقط مني كثمرة أقوى من شجرة. ولم أكد أصرخ حتى جاء الرجل وعصاه وسألني بسخرية وغيظ: هل حضرت؟ دارت عيناي في الخراب.. أكوام وتراب، وأرجل

مائدة مقلوبة وأحمر شفاه مغروس في الأرض، وصورة فتاة خلفها بخط نسائي اهداء للذي جاري الأطفال رهافة حسهم، ومفتاح في سلسلة مشدود إلى جزء من قميص كان يرتديه. دهشت. سألت الرجل: ألم يكن هنا أشجار.. وطعام.. وبنات يعشقن الرجال؟ أخيراً ابتسم وقال: كان.. كانوا يجلسون هنا.. وكن يضحكن في أنوثة وخجل.. وكنت أنت تأتي عندما كانت هي. اذكر.. كن يأتين خلسة.. والرجال كانوا كأطفال في يوم عيد، وأذكر البنات، كن يظهرن بعضا من محاسن ودلال... وكن...

## من مجموعة طعم القرنفل 1986

# الفــــظ

قالت:

هل تتذكر لحظة مست يدك يدي، فتفجر القلب دما أغرق الميدان وتوقفت ساعة الحائط وخلع الأجنبي قبعته وارتمى تحت قدمي وحين أدرك انشغال عيني بألق عينيك هاجمني وحاول عبثاً أن يسحقني، فيما أخذ ابن عمي، يقرأ أشعاره على مسمع من الجميع ظناً أنه يهمس لي. أنا أتذكر. خرجت "مع السلامة" من بين شفتيك بعد لأي، احتجت النهرين لتطفئ الظمأ وترد الروح التي ساخت حين مست يدك يدي. وعندما أدرت رأسك لاحظت الشعيرات البيضاء تضيء روحي، حاولت التشبث بها، لكنهم- أولئك- أطلقوا المدافع وأرسلوا الطائرات وغنوا أغنيات سحقنا، وأنت في البعيد كنت في حجم قبضة يدي فوضعتك في قلبي بين حجراته ودفئه وخفقانه، وأمامي لم أبصرك.

قالت:

طن الذباب على جثتنا الجميلة العذبة، وتصاعد الدخان

وسافر إليهم- بتحيات الموت الفاجر فيما أنت وراء البحر تبكيني، ركضت... ركضت فوق الجسور فتشت أسفلتها وحديدها، ولم يبح النهر بأي سر عنك، فجثوت على كتلة طين ويا حبيبي لم أستطع أبداً استدعاء ملامحك.

قالت:

كان قلبي يدق مع صافرات الإنذار خوفاً من ذعرك على قلبي الذي قد تخطفه منك قنبلة.. حافظت على نفسي واختبأت في سطورك، فكان لي الهوى والغزال، ونهضت بعد حرب مضحكة بقوة عشبة صغيرة خضراء.

وأقول:

أنني وقفت ضد الأساطيل وأفنيت والطائرات في صدري، لم يبدر مني سوى دمعة ساخنة أحرقتهم في البحار، ولكنني اكتشفت أنني محاصر بهذا الرجل الذي وقف يسد بابي، هذا الرجل الذي أرسلته لي بشاربه الكث وقلبه المستعطف وقد أشهر في وجهي حبه لها.

# الإرث

عندما انفتح الباب نفثت الشقة رائحة زمن قديم، وأنفاسا محبوسة، فاح عبقها المخزون مع هواء عطن، وضعت السيدة ذات الشال يدها على أنفها الدقيق، وقالت الأخرى العجوز بينما تدير وجهها نحو الشارع الضيق:

- زمن طويل يا أختي.

وتهدج صوتها، ثم قالت:

- الله يرحمك يا بابا.

قالت السيدة ذات الشال بصوت مسموع يصطنع الحزن:

الله يرحمك يا بابا.

بينما تقدم الشاب بتؤدة، عدل رباط عنقه ذا الدبوس المذهب، واندهش لأنه لم يتذكر المكان أبداً.

في سيارة الأجرة قالت أمه- السيدة ذات الشال والتي يشبهها تماما ما عدا شعره المجعد:

كم لعبت بذلك المنزل وأنت صغير، وكنت تقعد على حجر

جدك حتى تنام، ويشيلك الله يرحمه حتى السرير، ويلفك بالروب الحرير، وينزل ستائر (الدانتلا) عليك فتبدو كملاك نزل حالا من السماء.

صرخت العجوز وهي تمسح شعرها:

- يا ساتر.. العناكب تفرش السقف والأركان، انظري النجفة.

كان المكان مظلما تماما، رطبا، تقدم الشاب، فتح الشباك بصعوبة، فأحس باندفاع هواء جديد.

قالت خالته العجوز:

- الآن نفتح كل النوافذ، ثم نبدأ في التفتيش.

فتح الشاب النافذتين الوحيدتين في الصالة والحجرة المطلة على الشارع، وسعل وحين هم بالجلوس، نظرت له الأم مشيرة للخالة، وأحس في عيني أمه قسوة، كان المقصود هو متابعة الخالة حتى تتم قسمة الأشياء مناصفة إن لم تكن هي الفائزة.

الصالة واسعة عالية الجدران، لها مائدة طويلة وكراس من النوع القديم، وكنبة مبطنة ومنجدة بالقطن ذات تلبيسة من القطيفة الحمراء، لم يتذكر المكان أبدا.

لم يحك له أبوه عن بيت جده، كان يقول أنه تزوج بأمه من بيت خاله الكبيرة، الذي توفى بعد زواجهما بشهر ونصف، لم يحك، وهو على الأرجح لم يأت لهذا المكان أبدا.

- في العيد كنت تلبس البدلة الضباطي والكاب وتذهب لجدك

فيعطيك العيدية ورقة بخمس جنيهات، وتظل عنده يوم العيد الأول لتأكل الديوك الرومية والبط، واللوز والجوز.

لم يتذكر أبداً، عندما مات جده كان صغيرا لا يتذكر سوى البكاء والسرادق الفخم الذي سد الشارع، وأن أباه كان يأخذه إلى المطبخ ليأكلا - بين الحين والآخر - دون أن يراهما أحد.

أقسمت أمه أن البيت ذا الطابق الواحد لن يباع مدى الحياة، لأنه الذكرى الباقية لأبيهما الذي رباهما أحسن تربية.

كانت خالته تقول:

بابا الله يرحمه اشترى لي من باريس حذاء أبيض وشمسية بيضاء.. ولكن الزمن الأغبر..

ووضعت أمه الشال على كرسي متسخ، بان القرط والخواتم والعقود الفالصو، وكانت تبرق، وضعت ساقا فوق ساق، قالت الأخت الكبرى:

- كما قلت قبل أن تأتي: النجف.. النجف من نصيبي.

حين سأل الشاب أمه الليلة الماضية:

- لماذا قررتما بيع البيت؟

قالت وكانت تقلب مجلة بعصبية:

إن العقارات ارتفع ثمنها، ومن سيشتريه سيحوله لعمارة.. هذا مكسبنا.. ثم.. إن الحي أبقى من الميت.

ورمت المجلة.

كانتا تتفاخران في الماضي بأنهما لن تبيعا البيت، وترددا دائما في الأحاديث والجلسات:

- بيت بابا.

وظل بالفعل شاهدا على أنهما ليستا في حاجة له، وأنهما لا تطمعان في إرث.. كانت هي تحكي:

لما مات بابا وجدوا في جيب بيجامته ورقة بمائة جنية، وأعددنا له (عتاقة) لم يشهدها الشارع، وأحيا تلك الليلة الشيخ محمد رفعت.

خلع الشاب الجاكته، ووقف فرأى في منتصف الصالة صورة جده في إطار من الخشب لونه بني غامق، اقترب فرآه برأسه الأصلع وأسنانه المكسرة، وكانت ابتسامة حقيقية تشع في وجهه العجوز.

أخرج الشاب منديله الأبيض ومسح الصورة من تراب السنين، فاتسعت ابتسامة جده.

صرخت ذات الشال:

- يا بابا.

قالت العجوز وهي تغلق عينيها بجفنين مترهلين:

- كفى يا أختي.. زمن بعيد.. هيا.

ونهضت وفتحت باب الحجرة الكبيرة.. زيق الباب، كانت الظلمة، تقدم الشاب مسرعا وأضاء الحجرة مصباح مترب، فرأى السرير وعرف أنها حجرة النوم، ورأى أنها حجرة بسيطة، وليس

فيها ما يبهر، همس:

- حجرة عادية.

سمعته أمه، التفتت في حدة، قالت خالته بلا اكتراث، وهي تنظر لأمه معاتبة:

- ألم أقل لك.

قالت أمه بهمس كالفحيح:

- أنت لا تعرف شيئا.. كانت أفخم حجرة نوم.. بابا الله يرحمه اشتراها من اسطنبول.

تصوره دائماً- كان- لبيت جده أنه ذو بوابة ضخمة ودرجات سلم عالية. ولكن الباب الخشبي والهواء العطن والظلمة جعلوه لا يفهم، وتوتر.

صاحت خالته:

- لا تفضحنا "يا بشمهندس"، انتظرنا كل هذه السنوات، قافلين على باب أبينا سره وسرنا.

استندت الأم بيدين معروقتين على شباك السرير الخشبي وقالت:

- مات أبوك وكان أمنيته أن يرى بيت جدك.. فاهم.. إياك أن تتلفظ.

لما عرف بحكاية بيع البيت وأن أمه وخالته اختارتاه من بين جميع الأهل ليذهب معهما لأخذ الأشياء الثمينة قبل البيع، كان في

حلم وشوق لرؤية المرايا التي تزين الجدران، والسجاجيد العجمي، والزجاج الملون، والنجف الكريستال، والكنبة ذات الكنوز.

انحنى ولمس بيده السجادة المفروشة على الأرض.. من النوع العادي.. ولا تبدو نقوشها واضحة.

أنا من عائلة، لو دخلت بيت بابا الله يرحمه كنت تنكسف من نفسك.

اندفعتا تفتشان في الدولاب وتجذبان المراتب رمت الأم الوسادة ذات الزهرة على الجانب الآخر، والبطانية المؤطرة بـ (البستان) رمتها الخالة من الباب إلى الصالة، وتحدثت بهمس ومرارة:

شفتي يا أختي البطانية التي اشتراها زوجي من بورسعيد الأسبوع الفائت.. أو البطانية التي أهداها لنا (سلفي) وهو عائد من السعودية.. حاجة تهوس!!

غمزتها الأم قائلة:

- الدنيا تغيرت، هل تريدين زمن أبيك كزمن بورسعيد؟ الدنيا تغيرت يا أختي.

في أعياد الميلاد والأفراح، وفي استقبال الراجعين من السعودية، وفي كل المناسبات كانتا تتكلمان عن بيت الأب المغلق بالمفتاح، عن طوابقه وأشجاره وأثاثه، وعن كنوزه ينبهر السامعون، هو نفسه كان مبهوراً، وبعد أن أصبح مهندساً مدنياً أفضى لأمه بشوقه لرؤية بيت جده، قالت:

- لا تكن فضولياً مثل أبيك.. هذا كنزنا الذي نعيش به.

اتجه إلى الحائط حيث شماعة خشبية عليها بيجامة مقلمة، متسخة قليلا (عندما مات وجدوا في جيبه..).

ارتفع صوتاهما اختلافاً على بعض الجلابيب والبيجامات وملاءتين للسرير.

سآخذ النجف.

- خذي ما تريدين.. سآخذ النجف.

خرج مسرعا للصالة، لم تكن سوى نجفة واحدة من الزجاج الهادئ اللون.

كانت هي تحكي:

عند بابا نجف كريستال.

عند بابا ثلاث فازات من الصين أيام كان يطوف العالم.

بالنجفة الزجاجية ثلاثة مصابيح.

خرجتا من الحجرة، قالت الخالة:

سآخذ النجفة وأبيعها في أول محل، وخذي ما تريدين على شرط بيعه قبل وصولك للبيت.

اتجه الشاب إلى الكنبة ذات القطيفة الحمراء الأنيقة، وكانت ببابين صغيرين، جاهد في فتحهما وهو يركز على ركبتيه. قالت له أمه:

- ماذا تفعل؟ ربما تفزعك الفيران.

اندهش كثيرا.. هي ليست كنبة الكنوز إذن!

حاول مرة أخرى فتح الباب، حتى فتحه عنوة، مد يده يتحسس، قال لخالته:

أضيئي النجفة من فضلك يا خالتي.

مد يده بتوجس وقلق، تحسس كتباً، عبث بيده ليتأكد، ثم أخذ يخرجها كتاباً كتاباً لا يتذكر أن أمه قالت عن جده أنه كان يقرأ الجريدة، رغم أنها في كل صباح تنادي على بائع الصحف وتقول- وهي ما تزال بقميص النوم - الجورنال بسرعة.

جلس على الأرض تماما. كتب في الأدب والموسيقى. كتب ضخمة وصغيرة ومجلدة ومنزوعة الجلد.

قالت الأم وهي تتنهد:

- قم بلا هم

امتلأت الصالة بالكتب التي تخرج منها رائحة قديمة نفاذة، تصور للحظة أن يشترى مكتبة ويضعها في صالة بيتهم، ويجلس بجوارها كلما زارهم أحد، وتصور نفسه أيضاً وفي يديه (بايب) وكلما تحدث يشير به للمكتبة.

قام متلهفاً إلى أمه التي كانت تتناقش مع خالته عمن سيدفع أجرة العربة التي ستحمل هذا الكوم من العفش والهدوم القديمة.

- أمي سآخذ الكتب.

زعقت فيه:

- ولد.. لا تفضحنا.. قلنا لك هاذ سرنا الذي به عشنا.. لن نعرض زبالتنا على الناس.

نهضت الخالة، مسحت وجهها العجوز بمنديل صغير، وقالت لأمه:

- كوني عاقلة، سأذهب وأعود برجل يشتري ما في الشقة، ونخرج بالمفتاح، وبعد ذلك تتم عملية البيع بسهولة، ولا تنسى أن تحطمي الإطار وتحتفظي بصورة أبيك.

وخرجت.

اتسخ قميص الشاب وبنطلونه من زحفه وراء الكتب التي لم يرها في حياته، هو يشتري مجلة السينما ومجلة الشبكة، وبنات عمه وبنات خالته وبنات العمارة، كلهن يعولن عليه في شراء أشرطة أفلام الفيديو، ولكن ولع ما أصابه هذه اللحظة من هول الكتب.

جعله ينهض على مهل، وقال مشيرا لحجرة مغلقة:

- وهذه الحجرة!

قالت بلا اكتراث وهي تدعك جبهتها بإصبعين مرتعشتين:

- افتحها.. لن تجد فيها شيئا.. كانت حجرة جدك وأصحابه..

فتحها بشغف فوجدها مفروشة بالحصر، وفي الركن مكتب صغير بثلاثة أدراج، وفوق المكتب ما جعله يفزع حقا، إذ رأى (عودا) اقترب منه.. حمله.. أزاح عنه التراب بمنديله، مسحه جيدا.. داخله

إحساس غريب بالمكان والجد والعود، فتح النافذة فأطلت شمس باهتة صفراء، جلس على الحصيرة، واحتضن العود لمست أصابعه الأوتار فاهتزت، وحاول.. حاول عبثا أن يخرج نغمة صحيحة.

# المبـــــاح

حين التقت أعيننا عرفته، استعدت ملامحه الأولى، وبسمة خجلي لم تعد على وجهه تردد هو قليلا، زر عينيه من ألق الشمس، اتسعت ابتسامتي وفرحت به، قلت وأنا أشد على يده الطرية غير المتحمسة: أنا زميل الثانوي. فتح باب سيارته ودخل برأسه وهو يقول في عجلة: أهلا. وكان في رجليه شبشب. قفل الباب، قال مشيرا للبيت المجاور: بيتي. ولم يعطني الفرصة لأقول له أنني جارك إذن وإنني في ذات الشارع في هذا المكان المستحدث على طرف المدينة، وجرى بسيارته مخلفا التراب.

كان تلميذا طيبا خجولا، كان لا يلعب معنا الكرة، غير أنه لم ينجح في الثانوية ولم أره منذ تلك السنوات البعيدة.

فتحت زوجتي الباب، كانت راجعة حالاً من عملها، أخذتها من يدها، وفي البلكونة أشرت لها على بيته. هل ترين هذا الصف الذي أمامنا؟ حسن.. البيت الرابع بعد العمود والذي نراه من هنا بعد ثلاثة بيوت من الصف المقابل لنا. حسن. انظري جيداً. البيت

الأنيق ذو الطابقين. نعم الذي تحته جراج، أنه لزميل لي من أيام الثانوي.

قالت زوجتي وهي تلم سراويل ولدنا الصغير من فوق حبل الغسيل: نعم عرفته.. إذن هو زوج السيدة ذات الأكتاف العارية، قلت مندهشاً: الأكتاف العارية! قالت وهي تضع المشابك في كيسها، لا تمشي إلا بكتفين عاريتين، ولا تبين في البلكونة أو من خلال النوافذ إلا شبه عارية، قلت. كلا. قالت: أنت لا تعرف.

في المساء ذى النسمة الخفيفة جررت الكرسي الخيزران، وجلست في البلكونة وضعت أمامي كوب الشاي، ظللت أحدق في البيت الثالث من الناحية المقابلة، كان مظلماً تماما، لكنني لاحظت البوابة الحديدية الضخمة الخالية من الزخارف والبلاط الفاخر الملون الذي يشغل مساحة كبيرة أمام البيت، بعد أن رشت زوجتي الناموس بالمبيد كحت ودخلت تشكو من صدرها المريض، سألتها: أيسكنا هنا من زمان؟ قالت: من؟ قلت: زميلي.. و.. زوجته: قالت ضاحكة: نحن الذين نسكن.. هذا بيتهم. رشفت الشاي أردفت هي: منذ أن جئنا هنا والبيت قائم ولكنهما لم يأتيا بالأثاث الذي تفرج عليه الشارع كله ما عدا أنت إلا من شهور عديدة.. كنت أنا في الشهر التاسع، بالضبط يوم عودتك من القاهرة برواية ماركيز.. هل ستنام؟ قلت بسرعة: لا.

عندما انتهيت من الشاي، وقفت سيارة أمام بيته، سيارته،

وقفت أنا.. حدقت.. نزلت زوجته على كتفيها شال يبرق.. هو يرتدي البدلة الكاملة. بدا أنه يفتح البوابة، فانطلق نباح كلب، ثم ظهر كلب "وولف" عال، أخذ يعلب بذيله وينط على صاحبه بفرح، احتضنه زميلي ودخل، حملت زوجته حقيبتها ورفعت الشال عن كتفيها ودخلت وانغلقت البوابة بصوت مسموع. أضئ الطابق الثاني كله، وسمعت النباح يتردد.

قبل أن أنام استغربت مقابلته الفاترة لي.

في اليوم الثاني مباشرة وأنا عائد من المدرسة رأيته من بعيد يداعب كلبه بسعادة على البلاط الفاخر أمام البيت، ثم أدخل الكلب وأغلق البوابة. أسرعت الخطأ حتى ألحق به وأرمي عليه السلام أو تحية رقيقة، أو لعلنا نتكلم معا، أننا كنا زملاء على أي حال وكنا متجاورين بفصل ثانية/ ثالث، وكان يشيل لنا الكتب عندما نلعب نحن الكرة. أسرعت إليه وفي اللحظة التي وصلت فيها لسيارته صفق هو الباب بشدة، وزمجرت السيارة بصوت أفزعني، ونبح الكلب.

في الأيام التالية بدأت ألحظ زوجته كثيراً في شرفتها وتبين لى أنها تقلد كواكب السينما في ملبسها وباروكة شعرها ووقفتها بجانب السيارة. الغريب أن زوجها اعتاد- فيما بعد- أن يجلس أمام البيت على كرسي قاعدته جلدية ومعه كلبه، وكان الكلب يتمدد فوق السيارة بشكل لافت للنظر، وبدأت ابتعد عن أن ألحق به، أو أرمي

عليه السلام، إلا بالصدفة.. أنا مدرس ثانوي، وهو طلع فجأة في هذا المكان بالبيت والسيارة والكلب، وما أدهشني حقاً: شدة تأنقه!

ذات ليلة وأنا عائد في ظلمة الشارع الخالي من الأطفال والناس والدكاكين، لمحته جالسا أمام البيت ممسكا بسلسلة كلبه ويدخن سيجارة، قلت لنفسي لابد من إلقاء تحية المساء، انحرفت إلي اليمين قليلا، ثم قلت له بود: مساء الخير. لا أجزم بأنه رد التحية، غير أن النباح فاجأني في أذني، نباح عال وسريع.. رمقت الكلب وهو يندفع تجاهي.. هرولت.. كاد أن ينقض علي، انسحب الدم من جسدي.. وهو ينبح ويتبعني كأنما سيأكلني. الشيء الوحيد الذي قررته في هذه اللحظة: ألا أجرى.

تماسكت بقدر ما أستطيع، ثم سمعت صوت زميلي فرجع الكلب جريا إلى البيت ذى البوابة. بلعت ريقي، نظرت خلفي لزميلي وبيته وكلبه، وابتسمت. يا الله.. كاد يأكلني.. ترى كيف انفلت هذا اللعين من يد صاحبه. ابتسمت ودخلت شقتي.

لا أعرف ما هي الصدفة التي جعلته يعرف أنني أرجع مساء كل ليلة في هذا الوقت بالذات؟ أو الذي دفعه لأن يرقني؟ صارت خطواتي عبئاً، في كل لحظة أتوقع الكلب وقد خمش ظهري فيندفع الدم الأحمر يملؤني الغيظ وأكتمه، والصراخ أكتمه، والخوف أكتمه، ثم ألاعب طفلي فيركب على ظهري وأنط كدابة فيقهقه بضحكته العسل.

قالت زوجتي: لماذا يترقبك؟ صاحب فيلا وسيارة، يفرغ نفسه وينتظرك ويحيل كلبه عليك!! وأضافت: نعم زوجته سيئة السمعة، ولكن لماذا يترقبك؟

قلت وأنا أتهيأ للنوم: هي الصدقة إذن.

ولكن ليال ثلاث، وكلما مررت ينطلق ورائي الكلب بجرمه الضخم ولونه الغامق، وبنباح ذي صدمة يتردد في ليل ساكن. ليال ثلاث في هذا المكان بطرف المدينة ولى ابن يلاعبني فلا أنتبه من زميل يدهشني تصرفه وكلبه.

فكرت أن أمر من حارة أخرى.. ولكنني لست جبانا، هكذا قلت لنفسي.

علق على باب بيته مصباح نيون رفيعا وقصيرا يبعث الضوء الأبيض الهادئ، وكان ميسورا رأيته من بعيد. وجف قلبي وشعرت لأول مرة بالبرد وأننا في نوفمبر. قلت لأننا في نوفمبر وشعرت بالبرد.

وقررت في لحظة يائسة أن ألقى تحية المساء عليه، ربما يرجع بعض الود ويدعوني لمجالسته، ونستعيد معا ذكريات التلمذة، خاصة رحلة الإسكندرية.

ولكنه في الإسكندرية لم يبرح الفندق وقضم كل أظفاره، بينما كنا نشاهد نحن قلعة قايتباي ومحطة الرمل وسينما الهمبرا.

انحرفت ناحية اليمين لأكون قريبا منه، هممت أن أقول مساء

الخير، لكن الكلب هذه المرة انطلق بسرعة تجاهي، هاجمني بعنف، وقفز علي، خرج صوتي محشرجاً، ناديته أن يمنع كلبه، لكنه دخل وأغلق البوابة بشدة، وظل الكلب يهاجمني، وفي لحظة نزعت ذراعي من فمه، ثم جريت فجرى ورائي.. جريت فجرى. الشارع خال تماما، وأسمع صوت عبد الحليم حافظ يغني في أحد أفلامه من كل "التلفزيونات" جريت حتى باب البيت الذي أسكن في إحدى شققه ودخلت لاهثا. وقف هو.. زام.. التمعت عيناه، هز ذيله وعاد، جلست على درجة السلم التقط أنفاسي، نشفت عرقي البارد اللزج، وقلت أنني في الصبح سأذهب لزميلي القديم لأقص عليه سخافة كلبه، وسأقبل اعتذاره بالطبع لأننا لا نستطيع أن نؤاخذ الحيوان.

أطبقت على كوب الشاي الساخن براحتي يدي، ربتت على زوجتي بلطف وقالت: أنت بردان.. جهزت لك المعطف هذا الصباح لتستعد للشتاء. سألت زوجتي: هل زميلك عنده كلب؟ أجبت: عنده كلب، كثيرا ما أزعجني بنباحه، لكنك لا تأخذي بالك.. لماذا؟

قبل أن أضغط على الزر الكهربي لأضرب الجرس حتى ينزل زميلي فأحدثه بلطف، رأيت الكلب نائماً على طول درجة السلم، رجعت للوراء، وفي لحظة الخوف أدركت أن البوابة مغلقة، لكنني خفت أيضاً، أخذت حذري لأنه سيحاول مهاجمتي من خلال قضبان البوابة. إلا أنه ظل مسترخيا تماما، فضربت الجرس مرة.. ومرة.. ومرة، فنزلت سيدة جميلة الأنف هي زوجة زميلي،

ترتدي جلبابا شفافا، ورأيت كتفيها العاريتين وبيد ذات سوار من ذهب داعبت شعرها، وقالت بصوت لا جمال فيه: نعم؟ قلت: الأستاذ موجود؟ ردت بهدوء: أنه لا يريد مقابلتك.

وأعطتني ظهرها العاري وصعدت بهدوء وتبعها الكلب وهو يحرك ذيله بفرح. وقفت وحيداً.

الليلة كانت قاسية جداً.. إذ كانت شديدة البرودة.. وأنا شديد التوتر، ولم أكن مواظباً على مشاويري الليلية مثل تلك الليالي لأنني خفت من نعت الجبن، ولكن خوفي كان يزداد وتوتري وقلقي لانشغالي المفاجئ بكلب زميلي ومحاولاته الدائمة لإفزاعي، رأيت مصباح النيون مضاء، لن أقول مساء الخير، ولن أنحرف ناحيته، ولن أعيره أي اهتمام، والكلب!! على أن أتفادى هذه اللعبة وأدخل من مكان آخر. سألت زوجتي و.. متى.. يطلق كلبه؟ قالت: لا.. لا يطلقه أبدا.. هو ليس كلبا.. أنه تحفة. ثم سألتني: لماذا؟ قبلت صغيري، وقلت: لا شيء.

كنت بردان.. لن ألقى التحية.. ولن أجرى.. وازيته تماما.. لم أطرف بعيني غير أن الكلب شدني من معطفي، فاضطررت للوقوف، فواجهني بنباح غريب شرس، وخيل لي أني رأيت أنيابه وأسنانه، سرت، فظل يهاجمني، هم على ذراعي فشددت ذراعي.. و.. جريت فجرى ورائي، جريت، وكان ينبح بشدة، وسمعت من بعيد ضحكة عالية ذات صدى مرتعش.

قبضت مرتبي واشتريت بندقية.

# طعـــم القرنـــفل

طرقت الباب أول مرة، وكنت قد خلفت ورائي الظلمة والبرد اللاسع والكلاب الضالة، طرقت مرة ثانية، ارتجفت، لو لم أجده سأرجع للبرد والظلمة، مرة ثالثة طرقت على الباب ذى الشراعة الزجاجية، ولما تبين لي طيف، سمعت من الداخل صوت أقدام خافتة، اقترب الصوت حتى انفتح الباب، وطالعتني "عايدة" بوجه مجهد، ثم لما تبينتني تهلل وجهها فرحا، وكانت الساعة العاشرة في 'ليل أمشير.

قلت لها: مساء الخير. رحبت. سألتها: "محمد موجود. وهنا قالت باستغراب وبسمة مكسورة: أدخل من الباب. نظرت حولها، فأدركت أنني مزعج للجيران.

- أدخل.

تخطيت العتبة. غمرني دفء المكان، ورأيت الكتب والمجلات وشعرت بصديقي الذي أود رؤيته.

قالت وهي ما تزال واقفة وكان في صوتها شجن: إذا لم يكن

"محمد" موجوداً لا تدخل.. لا يدخل أحد.. لسنا أصدقاء إذن.

ثم علت نبرة الصوت: لا أحد يسأل عنا.. وحين تجيء تريد أن تمضى لأن "محمد" غير موجود.. ألا ينبغي أن يسأل الناس عن بعضهم.

فشلت أن أفهمها شيئا. اتجهت للباب وقالت بصوت هامس: تفضل: امش. وأردفت: وسأكون زعلانة جدا. قلت متلعثما: أنا.. في الحقيقة.. لأن الوقت متأخر.. و..

قالت: محمد سيرجع حالا.. اشرب الشاي على الأقل.

جلست في دفء الكرسي ذى القاعدة المنجدة بالقطن. وقلت لها: أين "ليلى"؟

قالت بهمس حان: ليلى.. حميتها وسرحت شعرها.. ونامت.

ثم ابتسمت ابتسامة واسعة أعادت للوجه شكله الأليف، نهضت واقفة وقالت:

أتشرب شاياً؟

أومأت برأسي. على الحائط لوحة زرقاء مكتوب فوقها. بخط كوفي سورة الإخلاص، على الجدار المقابل مفتاح فرعوني، وبعض المسامير، وسلك التلفزيون الذي يتوسط الصالة. حين وصلت "عايدة" للمطبخ استدارت ساهمة، وأشارت لى بأصبع نحيف: أتشرب الشاي بالنعناع أو القرنفل قلت لها: لا أحب الشاي بالنعناع أو القرنفل.. أهوى الشاي بمفرده.

على البلاط "موكيت" قديم، أعيد صبغ ألوانه بيد غير ماهرة، وعلى "الموكيت" أعداد من الكتب والمجلات والورق، جاء صوتها من الداخل: لماذا لا تدخلون عندنا؟ نحن نحبكم و "محمد طيب. قلت لها: بالطبع.. ونحن أيضاً. ردت بسرعة؟ فلماذا تتركوننا؟

ثم واجهتني في الصالة وهي تتحدث بيديها الاثنتين: لماذا يقطع الناس ما بينهم من صلات؟

وجرت وفتحت النافذة، قالت وهي لا تبص ناحيتي:

انظر لهذا العالم المظلم.

أحسست بالبرد. جلست على الكرسي المقابل لي.

تبدو مرهقة، مسحت جبهتها، وصمتت.

كانت ترتدي جلباباً ذا لون فاتح، فوقه معطف أسود قديم وواسع، وفي رجليها جورب أسود ثقيل النسيج وطويل، كانت بين لحظة وأخرى تضع يديها في جيبي المعطف ثم تخرجهما.

سألتني عن ابنتي وزوجتي. قلت لها: كل هذه الأوراق.. هل يكتب "محمد" قصة جديدة؟

ضحكت بدون التماع العينين القديم وهزت رأسها قائلة: إنني أذاكر.

اندهشت لأنها تعمل من زمن بعيد بشهادة عالية. حقا!! قالت: ماذا أفعل؟.. قل لي أنت.. وحدنا نعيش في هذا المكان الذي يقع بين الريف والطاحونة والقاهرة.. لا أحد يزورنا.. كنا زمان نزور

الأصدقاء.. نفرح ونتناقش ونزعل ونعود نجري وراء "التاكسيات" نعود مرهقين فرحين فنأكل لقمة وننام بشبع.

تقدمت على حافة الكرسي: هل مطلوب أن نظل نزورهم نحن؟ "محمد" يخرج يوم الأحد لزملائه.. فقط.. هكذا.. لابد أن أذاكر.. أو.. أجن.. عن إذنك.

وقامت، دخلت المطبخ، التلفزيون مغلق، ولعب "ليلى المكسرة والبسيطة تستولى على جزء كبير من الصالة، لاحظت الغسالة في مدخل المطبخ وفوقها ملابس كثيرة متسخة، وعلى الثلاجة مطفأة السجائر ومنبه.

تقدمت بالشاي. جلست. قالت بلهجة طيبة: حالما تشرب الشاي سيأتي "محمد

قلت لها: على أي حال المذاكرة شيء جيد. قالت: أنا أهرب.. اتهموني بالضعف.. هل تتصور؟ لماذا؟ لأنهم يريدون طالبة الجامعة مثل الأم.

تصورت أن خيط الكلام ضاع مني- إذ كنت أتابع حركة عقارب المنبه- قلت: لا أفهم.

قالت: وأنا في الجامعة كان السجن بالنسبة لي مغامرة.. اكتشاف.. سياحة للثوريات.. ندوات.. كنت حتى لا أريد الخروج، وأحببت "فريدة" حتى "فريدة" كنت أتصور أنها لن تتركني أبدا، لم أعد أرها.. ولكنني في المرة الثانية كنت أما.. كان السجن بالنسبة

لي موت، عذاب، "ليلى  هي التي سجنتني.. تركتها عند الجيران بعد القبض علي أنا ومحمد.. صغيرة جدا كانت.. هل تدرك؟ تساقط شعر رأسي ألماً.

كتمت "عايدة" البكاء.

رشفت من الشاي، كان الشاي بالقرنفل!، أنا لا أحب الشاي بالقرنفل. قلت لها: الشاي جميل. لكنها ردت: خرجت متعبة.. متعبة.

أمسكت كوب الشاي بين راحتي يديها، قالت بفرح: "ليلى" الآن وبعد الاستحمام نامت في هدوء قالت لي احكى لي يا ماما عن الشجر والغزلان والورود.. حتى نامت.. تصور.. لا أحد يزورنا.. إنني أذاكر الآن.. أمضي كل وقتي في المذاكرة.. وعندما يأتي "محمد  يقضى كل وقته في القراءة والكتابة.. ما رأيك في الطفل الثاني؟

فوجئت، فشربت رشفة شاي، وقلت بعد أن خلعت نظارتي ومسحتها: الظروف هي التي تحدد مجيئه. سكت. ثم قلت: ألن يكون عبئا قالت: كيف.. لم أخبرك يا صاحبي.. فقط هذا سر لا تبح به.

وتابعت بهمس فرح: سنأخذ شقة فوق شقة ماما.. يقوم "محمد" ويساعدني في إعداد الفطور، نفتح "البلكونة" فترتمي الشمس في الأرجاء، أرضع الطفل، أحميه بالشمس، ثم أعد له رضعات بقية اليوم ويرتدي ملابسا كيفما اتفق على أن يكون في

رجليه جورب "كورشيه بفيونكة، وننزل.. أمر على ماما لأترك الطفل.. مجرد نزول السلم.. تصور.. أترك الطفل و"محمد يأخذ "ليلى ويجريان على السلم ويقولان لماما: صباح الخير يا نينا ويهبطان السلم.. وأنا أوصى ماما على الطفل وأقبله وأجرى وأنط على السلم، ونمشي معا في شوارع بها بعض الشجر.

نظرت لي في توجس: هل لك وجهة نظر أخرى؟

قلت بسرعة: لا.. ولكن محمدا!

قالت: سيوافق.. حين تتبدل الظروف سيوافق.. هو طيب وسيحب أولاده.

قلت: إن الظروف ستكون مواتية فعلا وعليكما أن تنجبا عشرة أولاد.

قالت: نعم.. الشقة هنا رديئة جدا.. والشارع والأثاث.. سنشتري أثاثا جديدا.

سكتت.. ثم سألتني: هل لو تغيرت الشقة سيزورنا الأصدقاء.. ويكون لنا أصحاب؟

قلت لها: شكرا على الشاي.

قالت: ما رأيك في الشاي بالقرنفل؟ قلت: جميل.

ثم نهضت واقفا، تجاوزت الساعة الحادية عشر، على أن أمضي لأبحث عن مكان أنام فيه.

وقفت قائلة: لماذا تريد أن تمشي؟ سنتحدث قليلا.. كيف

زوجتك.. لقد أحببتها..

لكننا لا نراكم في السنة مرة.

قلت لها: زورونا.. سلمى على "محمد

مددت يدي بالسلام، سألتني بصوت خفيض: ألا تريد أن ترى "ليلى"؟

قلت بالطبع.. لكنها نائمة. قالت: تعال.. تعال الق نظرة عليها، لابد أن تراها قبل أن..

أين ستبيت؟ قلت في أي مكان. قالت: خليك معنا. قلت في الصباح سأمر على "محمد"

قالت: لابد إذن أن تبص على "ليلى" قلت يا ليت قالت: تعال.

مشت بحذر، وأشارت لي بيديها أن أكف عن أي حركة أو صوت، دخلنا الحجرة المظلمة، أضاءت المصباح، تململت الصغيرة، قلت لها: لن أقبلها حتى لا تستيقظ، قالت بصوت خافت: انظر إلى رسوم "ليلى الرسوم على الحائط مثبتة بالدبابيس ذات الرؤوس الملونة، أخذت تشير لي بإصبعها النحيف: هذا رسم لشمس: هذا أسد، وهذه نخلة، وضحكت بفرح وقالت: تصور.. كل الرسوم متشابهة الأسد كالشمس.

أطفأت النور وخرجنا، اتجهت إلى الباب، قلت لها: إلى اللقاء.. تحياتي لمحمد.

ردت: لو انتظرت قليلا لجاء. قلت سأراه فيما بعد.

أصبحت خارج الشقة. أمسكت "عايدة" الباب وقالت: مع السلامة. قلت: الله يسلمك.

واجهت البرد مرة أخرى، كان أشد وطأة، نزلت بحذر على درجات السلم المظلمة.

لم تقفل الباب. تعثرت كثيرا في النزول، وحين أصبحت على باب البيت سمعت الباب يغلق في الطابق الثالث، ارتجفت، والأزقة خالية تماما ومعتمة مضيت، وفي فمي طعم القرنفل.

# من مجموعة طائر فضي 1990

# عـــــزاء

قال إن أم زميلنا عماد ماتت، فأخذنا موعداً، والتقينا. غمرني حزن ما، كان يحدثني عنها كثيراً. هي أمه وأبوه وأخواته، وهو الكبير من يدها يأكل، وتربت عليه حين ينام، وفي حجرها يرمي بكل همه، هكذا قال لي.

نزلنا من التاكسي على رأس حارة ضيقة، المنزل 27، ضحك صاحب دكان حلاقة، وأخبرنا أنه لا توجد أرقام فوق المنازل المهدمة. قال: ولكن أم الأستاذ عماد المدرس ماتت اليوم وارتاحت ودفنت، وأشار وبيده موس على البيت.

هاجمتني رائحة الموت، والشيح والصابون. الباب الخارجي مفتوح، لمحت نسوة بملابس سود، لا يبكين بأي صوت، سمعت أذني همسا: أصحابه. تقدمت إلينا طفلة بوجه بهيج وقالت: الأستاذ عماد فوق.

درجات السلم ضيقة. أطل علينا فاروق- صديقه- وهو يمسك الدرابزين. وقال أهلا أهلا. أخبرني عماد ذات مرة أن فاروق مثل

أخيه هو الذي حرمته الدنيا من الأخوة، الصالة ضيقة مازال ماء الغسل يبلل البلاط القديم، ومازالت رائحة الموت، مررنا في الصالة على بوتاجاز وكنبة وكرسي خشب، في الحجرة الضيقة استقبلنا، عندما رآنا انهمر في البكاء، وارتمى على كتفي، وارتجفت، وأحسست بالدوار، طبطبت على ظهره، وحين رفعت رأسي كانت هي على الحائط تبتسم بعذوبة وحنان، والصورة مؤطرة بإطار قديم.

البقاء لله.

قطعت بي يا جابر. وبكى، وتمخط، واسند رأسه على بطن كفه، فأشعلنا السجائر.

أنت مؤمن.

لا إله إلا الله.

تنهد، سكت قليلا. ثم قال:

القهوة يا فاروق.

هم فاروق بالقيام، فقلنا أننا لسنا أغرابا، فجلس ودخنا السجائر بعد قليل سأل عماد:

- هل قدمتم لي أجازة عارضة؟

قال زميل:

- يا رجل.. الناظر يعرف الواجب.

تبدو في الصورة هادئة وعذبة وبعيدة الشبه عن عماد. السرير متسخ، وفوق الثلاجة 8 قدم تراكمت أشياء عديدة منها كتب

ومسبحة وعدد من زجاجات الدواء.

كنا مازلنا نهمس ببعض المجاملات والعبارات المحفوظة حين سمعنا فجأة صوت عويل عال يتبعه كلمة: يا أختي. مرة ثانية صمت الموت الجليل. قطعته قائلاً:

- متى دفنتموهما؟

مسح بيده على وجهه الناعم الحليق. قال:

- ماتت قبل أذان الفجر بقليل.. ودفناها قبل أذان الظهر.

جاء الصوت صارخاً مرة أخرى: يا أختي.

وقف عماد بدهشة وعصبية.

قال زميل:

- حرام.. قل لها حرام.

دهش عماد أكثر وقال:

- من هذه؟

وخرج. وتحدثنا نحن بصوت أعلى، ولاحظت أننا محشورون في أماكننا، وأن الكنبة ضيقة والمكان ليس نظيفا، والحصيرة البلاستيك الزرقاء المفروشة بالحجرة متسخة، كنت حزيناً. كانت هنا روح تعيش وتتكلم وتضحك، وكان هو ينام في حجرها ويرمي لها بهمه.

دخل. متغير السحنة، قال بسخرية:

- خالتي.

جلس. ثم أخذ سيجارة من فاروق وقال:

- من سنوات وسنوات لم نرها.. واليوم..

هدئ نفسك. الموت يختلف عن أي مناسبة.

رمى عقب السيجارة فوق الحصيرة البلاستيك دهسه بحذائه وقال:

كيف؟ والمرض. ألا يختلف عن أي مناسبة.. والله يا أستاذ جابر ذهبت إليها ذات مرة وأنا أبكي، وقلت لها تعالي، أمي تريد أن تستحم، قفلت في وشي الباب.

شد زجاجة الجلوكوز المملوءة بالماء من فوق المنضدة، وأكمل:

- وهي الآن تقوم بالواجب، تولول أمام النسوة، وستمضي، ولن تجري ورائي ولن تسأل عني، فلا يوجد ورث ولا أخت ولا ابنة ولا شيء.. آه بنت المركوب، تركتني في همها حتى راحت.

شرب. تمتم زميلنا:

شد حيلك

استغربت عندما رأيت صوراً للممثلات بفساتينهن المفتوحة، قلت لنفسي أن الأستاذ عماد إنسان جاد، ليس مراهقا، لابد أن أحدا ما قد علقها، لم تعد خالته تصرخ.

على المسجل الصق شخص ما زهورا صغيرة بلاستيكية شفافة، وقد رصع بها أضلاع المسجل في الركن لمحت جرائد ومجلة الشبكة.

كاد دخان السجائر يخنقني. النافذة الوحيدة مقفلة.

عطست في منديلي. على الحائط ورقة مثبتة بمسمار غليظ. حاولت القراءة. عقاب تارك الصلاة. مسحت نظارتي. لم أستطع القراءة.

انتبهت على صوته، ويده يحطها على فخذي قائلاً:

- والله يا أستاذ جابر..

مسح جبهته بمنديل، ثم أكمل:

كنت أحميها، وأسقيها الدواء.. آه.. لقد تعبت. من طبيب لطبيب.

لقد ضحيت من أجلها كثيراً. هل تعرفون الأستاذ عبد الصمد؟ لقد أتى لي بعقد عمل من الخارج، كنت قد غدوت ملكا، عمارة وسيارة ولا الحاجة للمدرسة والدروس الخصوصية، عقد عل بللته وشربت...

ضحيت كثيراً.

خلعت نظارتي، رمت الوجوه قناع حزنها وبدأت أسمع الثرثرات المتداخلة، بل والابتسامات.

عماد ذاته ابتسم وقال:

حمل.. كانت شايل حمل يا أستاذ.. لقد كنت.. كنت أدخل معها دورة المياه.. يا ساتر.. أيام سوداء، أشيلها من مكان لأجعلها في مكان، ربك كرمها.

قال لي الطبيب المعالج بالمستشفى العام:

لا فائدة خذها يا بني وروح.. وفعلا قبل الفجر سمعت شهقتها، فزعت من نومي.. جريت إليها، ومددتها. ولثمتها..

وبعد أن لثمتها جلست بجانبها، ونزل على الصبر، وقرأت القرآن، وحين جاء الصبح أخبرت الجيران والأصحاب، وتلفنت للمدرسة، ولم أخبر خالتي التي لم تقل يوما خذ يا عماد هذه الجنيهات واشتري لأختي الدواء، بل أنني حين شكوت إليها وطلبت المساعدة قالت:

خالتي وخالتك وتفرقت الخالات.

سكت.

مرق صرصور فوق باب الثلاجة.

أردف:

كانت طلعتها حلوة.. والقبر نور عند نزولها.. يا سلام.. الأعمال بالنيات.. الله يرحمها.. من أجلها ضحيت، قالت لي تسافر للبلاد الغربية وتتركني أموت وحدي. ثلاثون سنة ولم أتزوج لأعيش لخدمتها.

على جهاز التلفزيون عقد من الفالصو له حبيبات بيضاء كاللؤلؤ، لعله عقدها. في الصورة التي على الحائط يلف عنقها، لها وجه طيب، وكانت فرحة في الصورة.

- نعم.. عرضتها على أطباء.

وتبدو بسيطة وعذبة.

- كنت معها.. لا.. كنت نائماً بالحجرة الأخرى.. لا.. لم تتألم.. لكن الهام ما أيقظني في هذه الساعة قبل الفجر مباشرة.. كما لو.. كما لو.. كان حلما..

قمت.. لا.. فزعت.. وكانت الروح تطلع لبارئها. تململ فاروق في مكانه وقال:

- ولكن.. عندما حملنا الجثة للغسل. وكنا قبل الظهر مباشرة.. كانت الجثة دافئة.

وقف عماد مندفعاً:

- ماتت قبل الفجر، وقمت بالواجب نحوها.

قال فاروق:

- نعم.. نعم.. لكن الجثة كانت لا تزال دافئة حين حضرت أنا قبل الظهر.

عند الباب الخارجي المفتوح ودعنا، كان يبتسم ويسلم بحرارة، وهمس لزميل لنا:

- الأستاذ عبد الصمد.. نبه على الأستاذ عبد الصمد بأنني في انتظاره.

خطوت من عتبة الباب، وتعثرت في التراب المبلل، وداهمتني رائحة غير رائحة الموت.

# ولم يتـوقف الضحك

التقطته عيناه من زحمة الشارع التجاري. ما يزال نحيلا. انتظر هذه اللحظة عمرا. فتح شباك سيارته المكيفة، هاجمه صهد الأسفلت، بالكاد تمشي سيارته في الشارع التجاري. توقف بجواره تماما، قال له: اركب.

فركب.

لم يخطئا بعضهما، خمس عشرة سنة لم تقف حائلا بينهما وذكريات المقهى القديم.

- ما زلت ممصوصاً يا حسن.

خرج من الشارع المزدحم المثقل بالكهربائيات.

قال النحيل بصوت متعب

- تغيرت يا دسوقي.

أصبح سميناً، يلبس الجلابية البيضاء بعد أن كان يلبس القميص والبنطلون، على رأسه طاقية مثقبة ومطرزة، وأصبح عنده سيارة.

ضحك "دسوقي فاهتز وقال:

لابد أن تزورني.. والآن.

ثم لف الميدان بسيارته واتجه صوب البيت.

الشقة في عمارة فخمة في شارع واسع. على باب الشقة نحاسة بيضاوية الشكل، لامعة، محفور عليها "المعلم دسوقي السجاعي المعلم! ابتسم.

دق الجرسون وفتح وبمفتاح، وتنحنح، لمح حسن" امرأة عجزاء تجري لتختبئ في حجرة، عرف أنها زوجته.

هبت عليه برودة الشقة التي تخالف تماماً درجة حرارة الشارع وشهر يوليو، طالعته على الحائط قطط عديدة على لوحات بيضاء وسوداء ذات عيون خضر، لما غاصت قدماه- المنتعلة الشبشب- في سمك السجادة المفروشة بمساحة الشقة أيقن غربة المكان. أضاء "دسوقي الصالة الكبيرة رغم النهار فرأى حسن عدداً من الثريات تتألق ضوءً، وبرقت عيون القطط.

شعر حسن" برجفة لا معنى لها، تلاحقت أفكاره ليعرف سر "دسوقي في لحظة واحدة وفشل.

دخلت بنت بملابس رثة، قالت بانكسار: نعم يا حاج.

جلس "دسوقي يتصبب عرقا، تحسس كرشه بيد غليظة، ثم شد منديلا من جيب جلبابه ووضعه بين ياقة الجلباب وقفاه، عن يمينه تليفون أحمر اللون، وفي قطعة الأثاث الضخمة التي تحوى

التلفزيون والفيديو والشرائط يوجد تليفون زيتوني اللون.

قال للبنت دون أن ينظر إليها:

بارد.

تابعت عينا "حسن" ساعة حائط مذهبة، وصور بعض الممثلات الراقصات في أوضاع لم يرها بالمجلات الفنية، وصورة الولد الباكي ذي الدمعة المنحدرة، والزهور البلاستيك تكدس الأركان.

نزلت عيناه مرة أخرى للسجادة، ذهل قليلا، ونظر مباشرة في عيني "دسوقي" هذا الذي كان صبيا لمكوجي، والذي كان بحكم الزمالة في المدرسة الثانوية يجلس معهم في المقهى متفوقا في "الديمينو" والغوص في حكايات النساء.

قال دسوقي:

- كيف أنت؟.. انتظرتك طويلاً.. كيف حال الشلة؟

بعضهم أطباء، قرأت اللافتات.. هل ما زلت تقرأ؟

ضربه على فخذه.

- مصتك الكتب.

تلعثم "حسن" أهو العشم.. أم فظاظة؟ بعصبية تقلصت أصابعه المتسخة في الشبشب. لم يعد يقرأ. أكلته الوظيفة المتوسطة بالشهادة المتوسطة، والأم، والأخوات، ومكان ضيق. قال:

نعم.. أ... اقرأ.

ضحك "دسوقي" وضرب يدا بيد، فاجأ التغير "حسن" ظنه

ليس "دسوقي" لاحظ حسن بهاق اليدين القديم الذي كان منه يتقزز، حاول "حسن" الود، قال:

معلم!

رفع "دسوقي حاجبيه الكثيفين قائلاً:

- مقاولات.

بعد أن شرب البارد، قام "دسوقي يهز كرشه، ويتبختر، قال:

- تتفرج على فيلم.

ابتسم "حسن"، هرش شعره الخفيف ورفض. قال "دسوقي" أنه يملك كل الأفلام المباحة وغير المباحة، وأنه يمتلك ثلاثة دكاكين لبيع الكاسيت، وضحك عالياً.

لم حسن قدميه لبعضهما وطلب الاستئذان. الشقة تفح لسعات باردة، كادت القطط أن تخرج من مأمنها المؤطر لتأكله، تردد إذ حاصره للحظة خوف ما، لم تفارق عيناه أبهق اليدين كي لا يفاجئه بضربة أسفل الرقبة في الظهر.

وضع "دسوقي ساقا فوق ساق، وساعة يده تضوى.

عندي عربة نصف نقل تنقل الدواجن من المزارع للعيال الواقفين بأقفاص على نواصي الحارات.

ضحك وقال:

- مازلت تقرأ؟

بلع حسن ريقه بصعوبة، حصار لم يعد له، ثمة جفاف في

الحلق والعرق يتفصد. منذ متى يبحث عنه، وهل يصنع له الفخاخ؟ مسح عرقه بيد نحيلة.

قال "دسوقي وهو يمسك شاربه:

لكنني سأحتفل بك.. ستأكل.

هم حسن" أن يعتذر، كان "دسوقي قد صفق بيديه، فخرجت البنت وقالت بإنكسار:

- نعم

أخرج علبة سجائره، قال:

- غداء.. غداء لشخص واحد.

حسن يشعر بالجوع، لكنه معتاد على ذلك، مست أصابعه النحيلة صدره بحركة متوترة، وقال محاولا خلق حوار:

- الدنيا تغيرت يا دسوقي.

استلقى "دسوقي على ظهر الكرسي وتمدد قال:

أي نعم تغيرت.. تتذكر شلتكم، كنتم تغنون للسد العالي، وتفرحون بالكتب.

رمى الولاعة عالياً ثم التقطها وأردف:

- أحلام.. انتهت.. وبدأنا نحن حياتنا.

مال عليه فجأة وقال:

أتعرف كيف بدأت، ذهبت لبورسعيد وبدأت ببالة ملابس مستعملة.. وها أنا الآن.

قرر "حسن" أن يأكل ويمضي، ويهرب، ويختفي. لن يراه مرة أخرى، الخجل من الاستئذان، والجوع منعه من استعمال لسانه القديم الحاد.

لم يصدق أن كل هذه الأطباق له وحده، كل هذه الأصناف، دقت ساعة الحائط دقتين، للحم رائحة شهية، سلطات وأرز وخضروات ولحم مفرود كالسمك. بلع ريقه، نظر "لدسوقي"، قال "دسوقي

- لا.. هذا أكلك.

وقام ليجلس بعيداً في "الأنتريه" بالصالة المفتوحة. وحده حسن والأكل والجوع. بدأ في الأكل متوجساً، مرتبكا بين الملاعق والشوك والسكاكين، لكنه رمق "دسوقي الجالس بعيدا يقلب في صفحات مجلة فنية، فقرر أن يأكل كيفما اتفق، وبيدين جائعتين بدأ، دون أن يتذوق الطعام أكل بنهم، حتى أنه الوحيد عمل ضجة من خبط الملعقة في الأطباق الزجاجية، انتبه "دسوقي وبحلق، كان حسن يأكل كأنما يسابق شبحا، يلتهم ويأكل ويشرب الماء والسلطة والطرشي في وقت واحد، وتصبب عرقا.

لم يخف دسوقي ضحكته الشامتة، وداخله فرح غريب بمنظر حسن هذا الذي كان يجلس على المقهي ويعطي له ظهره، وكلما حاول "دسوقي" إلقاء نكاته الجنسية يقول له "حسن وهو غارق في قهوته:

- لا أحب التفاهة.. من فضلك.

نظر له مرة أخرى مبحلقاً، أنه يأكل بيديه وأسنانه بشراهة، كأنه لم يأكل من قبل. كأنه في حلبة مصارعة، نسى ما حوله، يأكل في سباق مع شيء خرافي غريب.

ضحك "دسوقي" مرة أخرى بصوت عال، لم يسمعه "حسن" وقال: "دسوقي" لنفسه: هذه فرجة.

فرح بالشمس والهواء. في الحديقة العامة خلع شبشبه واستلقى على ظهره فرأى السماء صافية، وتمنى لو تنزل العصافير تلقط معه الحب، وتحسو معه الماء وتفرد أجنحتها وتتمدد معه فوق العشب. خطر على ذهنه "دسوقي" كاد يضحك مما حدث، واندهش. تابع الأولاد يلعبون. فكر أن يكون له في يوم شقة. بحجرتين وصالة، وزوجة، وبطاقة تموين يصرف بها الشاي والسكر، وحلم بأنه سيقرأ مرة أخرى ويشتري الكتب. كان الكتاب بخمسة قروش وبقرشين، تقلب على العشب كطفل تركه في سنوات سحيقة. كانوا يقرأون ويحبون الليالي الساهرة.

بنطلون وقميص طول السنة، والعيش في شظف، هذا البيت الضيق، والأجساد المريضة، قال لنفسه بصوت مسموع:

- ياه

وتقلب فرحاً بالحديقة

قال له:

قم

فقام

كان "دسوقي بجلبابه الضيق ناصع البياض، وكرشه، وشاربه الذي خطه الشيب، والبهاق في اليدين.

نظر له حسن" في استغراب. قال "دسوقي مشيرا برأسه:

السيارة على الجانب الآخر.

سار وراءه، ثم بجانبه، ثم قال:

- ولكني.

- أدخل السيارة.

مضت السيارة مسرعة، كانت أغنية تنطلق عالية الصوت وقبيحة.

في الصالة الواسعة جلس حسن" على كرسي كبير عميق أمام التلفزيون قال "دسوقي بلطف وأمر:

- ستشاهد هذا الفيلم.

وحين كان يشاهد الفيلم الثالث كان "دسوقي قد أنهى كل مكالماته التليفونية. وزوجته العجزاء ذات الخمار تروح وتجيئ بسرعة، وكان "دسوقي قد غير جلبابه مرتين، وشرب ثلاثة فناجين قهوة على الريحة وهو يشاهد التلفزيون الثاني بالجانب الآخر من الشقة، وكلما ضجر "حسن" قال له:

- انتظر.

وقف حسن، فأفأ، تعلثم، ثم قال:

- عن.. إذنك.. سأمضي.

أخيراً ابتسم "دسوقي وقال:

- أنت مدعو للعشاء عندي.. لم يبق إلا القليل ويحضر ضيوفي.

أضيئت الشربات والمصابيح والأركان، وتصاعدت رائحة الحشيش مع دخان السجائر، وكان "دسوقي" قد أجلس حسن" على مائدة الأكل المستطيلة بالركن القصى من الصالة، توقع حسن احتفالاً "دسوقي تململ في مكانه، يعامله بشكل ممجوج، قال "حسن" لنفسه، العاهات القديمة، والأمراض تطفو، والخوف من المستقبل أيضاً، كان يحاول رؤية الأمور بمنطقة، وأخذ يتابع وجوه الضيوف، الأكرش، والطويل والأبيض الحليق وذو اللحية الكثة. ثلاثة يرتدون الجلابيب، وثلاثة يرتدون القمصان والبنطلونات، وكلهم هؤلاء المعلمين بالشارع التجاري، أصحاب محلات الكاسيت، والكهربائيات، والملابس المستعملة، والأحذية ذات العيوب. هاجم الجوع حسن منذ الظهيرة وحتى الآن محبوساً أمام النساء التي تتعرى والرجال ذوى العاهات وثلاثة أفلام قاتلة. تحرك "دسوقي بخفة وسرور، اتجه إلى حسن وقال مقلدا بعض المشاهد في الأفلام العربية.

- والآن.. أقدم لكم صديقي حسن".. صديق قديم.

في التيو دخلت البنت وأخذت ترص عدداً من الأطباق والأكواب والصواني، والمياه المثلجة والشوك والسكاكين. تجمع المدعوين حول "حسن" قال "دسوقي"

- تفضل.. كل.. نحن في غاية الشبع.

نظر للوجوه اللامعة ذات الأشداق المفتوحة، ولأجسادهم الضخمة النضرة، غمر جبينه عرق بارد، أحس أنه سيغمى عليه وأن روحه تسوخ. حمل كوب الماء البارد بيد واهنة، وشرب.

- كل

تحلقوا حوله، رأى أذرعا مفتولة، وعيونا مدورة تبحلق.

كل

مد يده المرتجفة، اهتزت في البداية، لم يشعر بهواء التكييف، تحفزت القطط، مد يده، كان "دسوقي" يعرف أن حبسه منذ الظهيرة حتى الآن سيقتله، شم رائحة الأنفاس والعرق، بيدين مرتعشتين أمسك بالطائر المذبوح المحمر الضخم وقطع منه، بدأ في الأكل، لا يعرف على وجه التحديد نوع الذي يأكله، أنواع من اللحوم والأسماك والجمبري، نسي الآخرين، ضرب بالملاعق والشوك، واندلق الماء على قميصه، ضحكوا هم بصوت عال رج المكان، صفقوا، قبل أحدهم "دسوقي" منتشياً، وقع آخر على الأرض ضحكاً. ضرب المائدة بقبضة متشنجة، ضحكوا وهم يشيرون إليه ضحكاً هستيرياً.

وحين توقف عن الأكل، ونهض، وداس على أرض رخوة، لم يتوقفوا عن الضحك، وحين جرى في الصالة حتى الباب وخبط "دسوقي" لم يتوقفوا عن الضحك، وحين فتح باب الشقة وصفقة وراءه وعلى أول دراجة من السلم تقيأ، لم يتوقفوا عن الضحك.

# وذنب مغفور

كانت الشمس في الخارج، وسليمان في الداخل اشتمل بأغطية وأحمال. وكان على وشك الارتجاف تكوم على الدكة في وسط الدار. وأمامه وضعوا التليفزيون. هو العليل يحملونه في الصبح ويحطونه على الدكة. وفي الليل يضعونه برفق على السرير.

دخلت بنت صغيرة ذات جلباب زاعق الألوان. وقالت أثناء دخولها المندرة الوسطانية:

- كل سنة وانت طيب يا جدي.

والتلفزيون يبث إرساله وينقل مناسك الحج، وسليمان مشدود بشغف للشاشة الصغيرة، الفرح يغمره إذ قال لزوجته "رمانة" وأقسم أن ابنته الحاجة ستظهر في التلفزيون ويحدق بعينين كليلتين في الشاشة وآلاف البشر المتشابهين. وينادي بين وقت وآخر:

- يا أم الحاجة.. تعالي.. أنا لا أرى جيداً.

ورمانة مشغولة بالكنس، ثم طرحت اللحاف على الشباك لتبادل الشمس الدفء بالرطوبة. هي تعرف أن ابنتها لن تظهر في

التلفزيون و"سليمان" موقن بأن الحاجة ستظهر. بل تتشابه عليه، وينهض على ركبتيه مشيرا بأصبع يرتعش:

الحاجة. وكان لا يتحدث إلا عن ابنته التي ستزور النبي. والتي أوصاها: اشربي ماء زمزم وادعى لي في الحرمين، يشيل عني العلة.

في الظهيرة حط الذباب على الباب المفضى إلى الشارع، والباب مفتوح دائماً حتى يتسلى "سليمان" بالفرجة على الرائح والغادي والشحاذ، وبائع أنابيب البوتاجاز، والعيال الملمومة على عتبة الباب. ولما كلت عيناه من الشارع والتليفزيون ورمانة، أخذته سنة من النوم، وقام، وقال: رأيتها في ملابسها البيضاء الحاجة زينب بنت سليمان، بارك الله في زوجها النقاش الذي دفع لها من حر ماله، وركبها الطائرة لتحج، بعد أن قضى هو في السعودية حجتين وعمرة.

واستمر فرحه وقلقه وخوفه على البيت طوال فترة الحج، حتى انطلقت زغرودة ذات صباح من لسان زوجته، ودهش لأن "رمانة" مازالت قادرة على تحريك اللسان بكل هذه البراعة، وصاحت في وجهه ووجوه العيال:

الحاجة رجعت بالسلامة.

ارتجف فعلاً، وأحس شعر رأسه يقف وتنميلة ما عبرت وجهه ويديه. سعل وسعل، وتمتم:

الحاجة وصلت.

خطفت الأم طرحتها السوداء وجرت، وخلفها ابنتها الأكبر من الحاجة والتي لم تتزوج بعد، والولد خريج مدرسة الصنايع، وبقية العيال، ما عدا الابن الأكبر الذي رمى الكوز في بطن الزير، وبرطم:

- حتى الزير فاضي

ونفخ ونظر له الأب بشذر، ود لو يسبه، غير أنه استدار وبصق، ونطت من فوق السطح دجاجة رزية اللون لتقع في وسط الدار، ثم قفزت في ذعر فوق التلفزيون المغلق. هش "سليمان" ذبابة عن وجهه. خرج الابن الأكبر، والباب مفتوح بص "سليمان" فلم ير مخلوقا، وظل على نار وردد:

- من يذهب بي إلى الحاجة؟

نهق الحمار في الداخل، فقال "سليمان" وهو ينحني ليرى الحمار في الزريبة:

- نعم أنت، ومن سواك؟

فنهق الحمار وشخط "سليمان" بعنف:

- اسكت يا حمار.

رجعت الأم مع الأصيل، وسألها عن العيال فقال:

عند أختهم الحاجة.. يفرحون بالأنوار.. والميكروفون المعلق في البلكونة يغني..

ولعلهم سيأكلون.

تجاهلت رغبته في رؤية ابنته ولما قال لها ذلك زعقت:

كيف؟ حين تفرغ الحاجة من استقبال زائريها ستحضر لرؤيتك.

ضرب على الدكة بيد واهنة:

لا.. سأذهب لرؤيتها:

سكت قليلا.. ثم أردف:

- الواجب.. هذا هو الواجب.

ولما كانا على وشك الخناق. تدخل بعض الجيران وقالوا لها:

لا يضير أن يركب الحمار ليرى ابنته العائدة من زيارة بيت الله.

تمكن الرجال الأربعة من حمله ووضعه على الحمار. أمسك هو باللجام ومن أمام تجر "رمانة" الحمار الذي خطى عتبة الباب ثم تعثر، ثم بتؤدة سار. أحس "سليمان بنسمة هواء رقيقة. واغتبط بالشارع. كانت داره أول دار في هذا الشارع، وغيطان الفول والأذرة كان تحوطه من الأجناب. تذكر الحداة وصوت الغراب والكروان والضفادع وصوف العسكري. ضرب بكعبيه بطن الحمار ليسرع، و "رمانة" تمشي رافعة الرأس متقدة العينين، رجلها مهما كان. لو عظام في قفة. من زمان لم تمش معه.. من أيام مولد سيدي إبراهيم الدسوقي، الحمص والحلاوة واللحم في الخيام. رجعت للوراء. سارت بجانبه بالضبط قالت بسرور.

- لابد أن هدية الحاجة لك كبيرة.

ابتسم وبانت أسنانه المكسرة والمسوسة. قالت هي:

- لا تقل عن جلابية صوف.

ودخلا بالحمار في شارع المدينة الواسع، "سليمان" يتفرج بفرح كالعيال، تنط عينه في الواجهات الزجاجية اللماعة ذات الأضواء الصارخة، الازدحام والضجيج، ضحك وقال وسمعته "رمانة"

- يا سلام. كم كبرت يا محلة.

على الطوار: التلفزيون الملون، والمسجل بمكبرات الصوت، والمنتجات البلاستيك، وفي الشارع لافتات القماش الانتخابية ترفرف كأعلام مثقوبة، أول زواجه من "رمانة" ذهب لأول وآخر مرة وقال نعم لجمال عبد الناصر. ابتسم.. ثم قال فجأة:

- رمانة.. اشترى للبنت اثنين كيلو برتقال.

أشاحت بيدها، وقالت:

- عندهم الخير كله..

في اليمين حارة على ناصيتها فرن أفرنجي. لم ينس، لكن الحارة أكثر اتساخا، والكناسة في كل ركن. سمع صوت الميكرفون. هو احتفال الحاجة. لعب برجليه كطفل، هتفت "رمانة"

- الزينة.. زينة ابنتك يا سليمان.

البيت مدهون، ومنور كعروس، والكعبة والطائرة باللون الأزرق، وبالخط العريض المتقن: حج مبرور.. وذنب مغفور.

بهتت زينب سليمان، وانسحب الدم من وجهها المتورد وهمست:

ما الذي جاء بك يا أبي؟

عندما استغرب، ولم يفهم قالت:

- أقصد.. أريد راحتك.

وعندما أنزله الرجال. تشعبط في رقبة ابنته زينب، وظل يطبطب على ظهرها ويحضنها ويردد: حمدا لله على سلامتك. وبكى بدموع غزيرة. وشم رائحة المسك. وأخذ في يديه الوجه الأملس المغسول بماء زمزم. وزاد وجده فبكى بحرقة.

بين مسكنة الأهل. وامتعاض بعضهم دخل "سليمان محمولا. نفخ النقاش زوج زينب وقال:

أهلا يا حاج.

وجلس سليمان وهو ليس بحاج في حجرة الصالون المذهب. عيناه تدوران ما بين النجفة والصور. من زمان أيضاً لم يأت لابنته. لكن ما شاء الله البيت تغير وتبدل.

انزوت الأم مع ابنتها وهي مزهوة بابنتها التي تلبس فستاناً ذا تلبيسة، وله لون يضوى كأنه المرايا، والذهب في يد ابنتها مفخرة لزوجها. وأكثر ما أسعد "رمانة" هذه السمنة التي حطت على ابنتها وبالذات على نهديها وردفيها، بحلقت في العيون البصاصة وقالت في نفسها: الله أكبر.. الله أكبر.

والرجال في حجرة الصالون يضحكون ويدخنون السجائر وسليمان بدأ يسعل ويتحامل على نفسه. وقدم له صبي كوبا

من الشربات الأحمر اللون وسليمان يشم رائحة اللحم المشوي. فوضعوا أمامه صحنا به التمرات ولم يقربها. لا الزغاريد كفت، ولا صواني الشربات ولا الازدحام، هو جذلان. غير أنه لم ير ابنته منذ دخل من الباب.

هل ينادي يا زينب.. يا زينب؟.. زاغ البصر وشوق لرؤيتها بنت الكلب، حاول أن يلتقطها عبثاً. وزوج ابنته لا يبادله الكلام. إنما مشغول بأصحابه.

وحين انتصف الليل خفت صوت الميكرفون، وقل عدد الزوار، وتبددت رائحة الشواء، ودخلت الجوزة حجرة الصالون، وقام زوج ابنته وقال:

- نفرجكم على فيلم في الفيديو.

هللوا، وصفقوا، وغمز بعينه وقال:

فيلم لن تروه في السينما.

همس "سليمان" في أذن الصبي، وهمس الصبي في أن "رمانة" التي هرولت وتقدمت واستأذنت الجالسين بأن يحملوا رجلها.

خفتت الأضواء وثمة برد لسع "سليمان" اقعدوه على الحمار، وقبل أن يسأل عن ابنته كانت قد أتت وهي تهز لحمها السمين. مدت يدها بمسبحة لها لون مشمشي وقالت: وهي تضحك.

- خذ يا أبي هديتك.

شعرت الأم بوكسة وشدت الحمار من لجامه وسليمان في يده

المسبحة يشغله البرد ومن سيساعد "رمانة" في إنزاله ومن سيحطه على السرير.

غاب هنيهة، ثم سأل:

- هل أمست الدنيا يا رمانة؟

# ساكن الطابق الخامس

ولما كانت الليلة الخامسة والعشرون من الشهر السابع من هذا العام فقد لزم ساكن الطابق الخامس شقته الحجرتين وصالة، واكتفى بكوب شاي، وقرر ألا ينزل من الطابق الخامس، أو يتنزه، ويشرب كوب عصير ألا بعد أن يقبض راتبه، وأحس بشدة الحر فخلع جاكتة البيجامة وظل بالفانلة الداخلية الصيفية وارتمى على الكنبة، وأمسك بعلبة السجائر، خمس سجائر. لا.. سيتركها للغد. في المصلحة الحكومية سيفطر ساندويتش الفول مع "عنايات" ويشرب الشاي من البوفيه على الحساب، ويدخن سيجارة من سجائره. ترك العلبة. أطل من الشباك. من الطابق الخامس تبدو الأشياء جميلة وأحياناً فاتنة. من الطابق الخامس لا يرى الكناسة، ولا مطبات الشوارع، ولا العشش، تبدو الأشياء مغايرة، وفي الظل تختفي الدمامة، وانشرح صدره.

في البداية تسلل إلى أذنيه صوت إعلانات التلفزيون، ثم أحس بالمحاصرة، يسمع كل تليفزيونات الطوابق الخمسة، وأحياناً

ضجيج الأطفال، والنسوة، وسعال الرجال. فتح باب الشقة، هاجمه الصخب، الدنيا كلها مستيقظة في الصيف الحار. أطل برأسه ذي الصلع الخفيف من خلال درابزين السلم، طلبة الجامعة يلعبون "الطاولة" في صالات بعض الطوابق، وسمع ضحكاً، راودته نفسه أن ينزل ويلعب معهم، ود، ولكنه أكبر عمراً، ويكفيه ذهابه لبيت أبيه ليلعب مع أخواته الصغار، قفل باب الشقة، ابتسم حين تذكر أمه التي كانت دهشة لأنه تركها وذهب ليسكن في المساكن الشعبية، وقال الأب أنها فرصة لا تتكرر أن يكسب بالقرعة شقة بحجرتين وصالة، بدأ الفيلم العربي، صوت ماجدة يصرخ، أخرج سيجارة وأشعلها. الشقة المقابلة تفتح بابها دائماً حتى يصنع الباب مع الشباك تيار هواء ينقذ عليل الربو الذي يكح ليل نهار، ويظل جالساً على كرسي في صدر الصالة ويقول كلما رآه: تفضل يا أستاذ، الأستاذ خجول، أو في حالة، أو قرفان. فلا يتفضل أبدا، فاستلقى على الكنبة وفكر في الذي يكح دوماً، وقال أنه بحاجة لمنزل واسع متعدد النوافذ غير رطب، أما المرأة السمينة، قاطنة الطابق الرابع، فهي بحاجة لحديقة حيوان وساعة تنطلق فيها وتركض وتركض، ابتسم، وخطر على ذهنه الطالبات والموظفات بالعمارة لكنه رأى "عنايات" ونظرتها المؤدبة وجمالها الهادئ وخطتها الملحة على الزواج.

جلس القرفصاء وأطل من الشباك لم يلمح في العمارة بنات جميلات، أو لعل طريقة ملابس هذه الأيام من إيشارب وغطاء

الرأس وفساتين طويلة، لعل ذلك لم يلفت نظره. اعتدل في جلسته، ولكن بعض الطالبات جميلات، وأيضاً الموظفة زوجة الموظف التي تدفع عربة صغيرة كل يوم حتى محطة الأتوبيس ويكمل زوجها المشوار إلى حماته ليترك ابنتها هناك، حكى له ذلك ذات يوم مطير تحت مظلة الأتوبيس.

طبعاً لابد من الزواج. قال لنفسه.. وهذه شقة. بل مشكلة محلولة لأي رجل وأية بنت ثم قال: يبدو أنها سترسو على "عنايات"

أحس بهدوء ما. فقام ولبس الشبشب في رجليه، وبص على الشارع من عل، ولما دخل برأسه ثانية عرف أن الفيلم العربي انتهى، وأن الإرسال التلفزيوني كف، وألقى نظرة على لوحة لجوجان لواحدة من نساء تاهيتي، قصها بمحض صدفة من مجلة ملونة، وابتسم وشد الجريدة من تحت كتاب، وفتحها وقبلها وطواها، ثم رماها، اتجه مرة أخرى للشباك وقال بصوت مرتفع: اذهب لبيت أبي وأنام الليلة مع أخواتي. وكاد يخلع البنطلون، لكن آخر الليل أثناه. رفع البنطلون ونط إلى السرير، رأسه على الوسادة، عيناه تحملقان في السقف.. مصباح.. قشور.. وصهد.. سمع صوت أقدام يقترب من شقته.

خبط على الباب. استغرب. لا أحد يستعير منه شيئاً، ولا يطلب أحد منه معاونة، دقات سريعة. قفز من السرير فتح الباب، فرأى رجلا يلبس جلبابا أبيض. نعم يا سيدي أي خدمة؟

مع الرجل فتاة، جذبها الرجل بشدة من ذراعها ودفعها حتى مدخل الشقة، وقال في غيظ محاولا ألا يزعق، مشيرا إلى الفتاة:

- ماذا كانت تفعل هنا؟

فاجأه السؤال. فنظر إلى البنت، وأشار بأصبع غير واثق:

- الآنسة!!

ارتفع صوت الرجل. وكذا انفعلت عضلات وجهه.

وقال:

- ابنتي ماذا.. كانت.. تفعل.. هنا؟

يضغط على كل كلمة. اندهش الساكن أكثر وقال:

- يا سيدي الفاضل ابنتك لم تكن هنا.

فإذا بالرجل يدفع الساكن دفعة قوية داخل الشقة ويقتحمها دافعاً ابنته أيضاً للداخل بانت ملامحها العادية والكلف الذي يغطي وجهها.

عندئذ زعق الرجل وهو يهدد بأصبع غليظة:

لن تضحك علي.. ولا الجن سيضحك علي.

امتدت أول رأس فضولية تطل، زوجة العليل، نظرت وتراجعت، ثم نظرت، وتوقف رأسها صراحة في مدخل الشقة.

قال الرجل وهو يمسك كتف ابنته:

- أنا أول ساكن في هذه المخروبة.. لم يذلني أحد.. يجيء آخر الزمان ويحدث هذا.. ومع من؟ مع ابنتي المحترمة؟

حاول الساكن أن يشد جاكته بيجامته، غير أن الرجل حال دون ذلك، ورفع عقيرته:

- يا خلق.. ماذا تريد أن تفعل؟ إخفاء الجريمة! يا خلق.

وفي ومضة وقبل أن ينطق الساكن نطت رؤوس العمارة من صغار وكبار ونساء ومرضى وهز السكون همهمات.

رغم هذا فإن الساكن حاول أن يتذكر، ماذا فعل في هذا اليوم، لعله فعلا التقى بها. نظر في وجهها ذي الكلف والملفوف بإيشارب. هز رأسه. لا يعرفها. حاول. ثم إنه يقول كانت هنا.

تلفت حوله. هنا أين؟

بل إنه لم يرها بالصدفة من مدخل العمارة أو على درجات السلم، وحين انتبه وجد كبار رجال العمارة يهدئون الرجل المتصبب عرقا، ويزعق ابنتي، يتزوجها.. الحلال.. سأقتله.

تقدم رجل تقي وسأله بأدب جم:

- ماذا فعلت يا بني؟

التمعت العيون وبرقت، وكبرت الأذان واتسعت لتسمع إجابة الساكن. وكانت البنت قد جلست على الكنبة وأخذت تنشج بكاء. نظر إليها ورد مرتبكاً:

- يا سيدي أنا لا أنزل سوى مرة في اليوم وأصعد مرة.. وأنا في صعودي أفكر ماذا سآكل وكيف أنام.. وفي نزولي أفكر في عملي وكوب الشاي.. وأنا لا أفكر في الزواج ولا أملك مهراً.. ولا أعرف ابنته.. ولم أرها من قبل.

وقبل أن ينطق الرجل. ضرب الأب الترابيزة بقبضة قوية فاهتز دورق المياه، وصاح:

- كانت هنا.. إما الزواج أو النيابة.

علت الهمهمات والهمس انطلق كلاماً. جرى الساكن إلى البنت الجالسة، وضرب صدره العاري سائلاً:

- هل كنت معي بالشقة يا آنسة؟

صمت الجميع، ما عدا الذي سعل وكح، واقترب منها الرجل فأومات برأسها، وهزته بهدوء. وبثقل ضربة رصاص قالت:

- نعم.

ارتفعت الأصوات. واندست الرؤوس:

- البنت المغمضة.

- منذ حصلت على الدبلوم من ست سنوات لم يرها أحد.

- معقول..!!

و.. و..

وتداخلت الأصوات، وهاجت رائحة زفرة، تركهم، وسخونة أنفاسهم تلفح وجهه، نظر من شباك الطابق الخامس فرأى هداة الليل الخادعة.

# طـابع بـــريد

قلت لزوجتي: آن لي الذهاب للطبيب، فقد طالت علتي.. لعله يشفين. طبطبت على كتفي اليسرى، وقالت بعين عطوف وعين محتاجه للنقود: نذهب. فقلت لها معتذرا: شدة المرض وانصرام العمر. قالت وهي تلمع مزهرية من زجاج، وتخفى دمعة تحت الرمش: تحت الوسادة الورقة الباقية ذات العشرة جنهيات. وفرت منها الدمعة، وسألت:

هل تكفي؟ قلت: نعم.

منذ أسبوع ذهبت إلى عيادة الدكتور شكري عبد البديع، وعرفت باب العمارة المجاور لأكبر محلات "الموكيت" وعرفت طابق العيادة وقيمة الكشف ومواعيد العمل، وكانت بي رغبة أن أرى "شكري وكيف أصبح؟ غير أن البنت ذات الإيشارب الجالسة على مكتب صغير زجرتني، ولم أره، لكني لاحظت الصمت الذي يحط على المرضى، وعيونهم التي تبحلق في الداخل والخارج، وكانوا لا ينبسون.

تمتمت: نعم ستكفي. ونظرت إلى وجهها الشاحب، وأضفت: معي جنيهان في العودة نشتري للأولاد كراتية وبسكويت و.. سكت، يكفي الكراتيه والبسكويت.

كان الباص يهتز بشدة، أمسكت جنبي الأيمن، وأحسست أنني أكثر مرضا، وأن أعراضاً أخرى تظهر على، وتفصد العرق.

أمسكت زوجتي يدي اليمنى الباردة وسمعتها تقول: ترجع مجبور الخاطر يا شكري يا ابن شريفة.. يا رب. ثم قالت: والنبي شوية برد، بعد تردد وتلعثم قلت: هل تعرفين.. أنه زميلي.. أقصد كان زميلي في المدرسة.. ضحكت أو حزنت، لا أعرف على وجه التحديد ماذا حدث لوجهها المجهد؟

ها هي اللافتة السوداء الضخمة، والتي تحمل اسم "شكري" بكالوريوس وماجستير ودكتوراه وزميل الجامعة الأمريكية، والدرجات اللامعة نظيفة، لو تمدد الإنسان على درجة سلم لأخذه النوم حيث الراحة، حلمت كثيرا بالقطار الدولي لأرى الأتراك والبلغار واليوغسلاف، ولأرى الأشجار والرمال والجبال تسكنني أبداً.

كنا في أيام البرد، والصالة التي دخلناها دافئة ومكتظة بالمرضى، لم أسمع همسا. هكذا تسبقه سمعته. هو في الداخل إذن. أعطت زوجتي العشرة جنيهات للبنت ذات الإيشارب، وأملت عليها أمسى بصوت أملاه الجو العام إذا همست: شكري جمال.

جلست على كرسي، ووقفت زوجتي بجواري لفترة طويلة. كانت ترتدي جورباً أسود طويلاً على حذاء أسود اشترته من "أوكازيون نهاية الفصل الفائت. بدأت أسمع أنيناً متقطعاً. دارت كل العيون تبحث عن المصدر، وفجأة جأر وأخذ يشد في معطفه الجديد، جأر فأخرجوه من العيادة فورا وجلس على درجات السلم، لكن زوجته المشعوفة قالت: في عرضك يا ابنتي لا تلغي دوره في الكشف.. سيسكت.

وجرت إلى زوجها ولطمت خديها وقالت: اسكت، ولوحة "هدوء" على الجدران الأربعة، والهيكل العظمى بالألوان في إطار مستطيل، استبشعتها في البداية. وتابعت وجوه المرضى، بعضهم ببطون منتفخة، واستقر بي النظر إلى فحص الأحذية، أحذية المرضى المحملة بالطين والغائصة فيه، وأحذية نظيفة وشبشب، ورفعت عيني فوجدتها سيدة سمينة، كلما أخذت نفسها شدت زوجها من كتفه وهي تحاول كتم النفس ضاغطة على شفتيها بأسنانها، كانوا لا يتكلمون، والجميع يعرف أن الطبيب صارم وحازم، ويقولون من شدة علمه، وأن وقته من ذهب.

(18) رقمي النحاسي، (18) ستتأخر على الأولاد، لكن سنضحك عليهم بالبسكويت والكراتيه، وآه لو كان الموضوع شوية برد، لاشتريت لهم برتقال، وكيف لم ألحظ أن الجو ممطر، وأن الباص كان دافئا، والشوارع تغوص في مياه المطر؟

(18) نادت بصوت رفيع مفتعل. نشف ريقي فجأة، ولم أحس بأي ألم في جنبي الأيمن. منذ أسبوع وأنا أرتب الكلام الذي سأقوله للطبيب شكري. في البداية لن يعرفني،ولذا سأتعامل معه كمريض عادي، ولن أنسى الملاحظات: مكان الألم لون البول، ألم النوم، الأكل، والمشي. (18) دخلنا.

حجرة بديعة مكيفة، حين دخلت رأيت عينيه، بالضبط، شكري، هذا الحول في العين اليسرى تحت النظارة البيضاء. لم ينظر إلينا، كان يدون شيئا في ورق، وشممت رائحة عطر، بتؤدة تقدمنا، أشار بيده الممسكة بقلم حبر أن نجلس فجلسنا، أنا عن يمنيه وزوجتي عن شماله، لاحظت أو شعرت أن زوجتي ترتعش، هو شكري، لكنه سمين، أكثر بياضاً، والصلع، والكرافت، والدبوس. أشار برأسه أن نتكلم. لم يتكلم هو، بل قطع السكون الجائم على العيادة بأن همس: هيه.

تلعثمت، قلت: ..جنبي. أشار بيده أن أسكت قال من بين أسنانه: أسمك؟ تحولت ضربات قلبي إلى خبطات شاكوش في صدري، سيعرفني، أنا شكري أيضاً، كتب في آلية.. شكري جمال، ومرة ثانية سمعت: هيه، قلت: جنبي يا دكتور.

أشار بيده أن أسكت، كان وجهه جامداً، ولوحة براقة ذهبية التوت فيها الخطوط وتداخلت فشلت في قراءتها، كما لو أنه على خلاف مع زوجته، أو أنه شديد القلق على مرض ابنه. في فيلم لعمر

الشريف.. تحرك قليلا، أز الكرسي، بل كان المطر ينهمر بشدة أثناء ألم جنبي.

كان الكمساري يحدق في صدرى زوجتي وتلكأ في عد النقود الباقية.

خرج من وراء المكتب، لماذا لا ينظر في وجهي؟ ثم أنه لم يسمع شكواى ولا يعرف مستقر الألم، وأشار أن أتمدد على سرير الكشف فتمددت.

آه.. نعم.. هنا.. لا.. نعم.. آه.

تركني وعاد لمكتبه، قمت مهرولا وأنا أربط حزامي كيفما اتفق، ودسست قدمي في حذائي وحشرت قميصي في بنطلوني، واطمأننت على بطاقتي العائلية في جيبي، وجلست أمامه مرة أخرى، قالت زوجتي: أنه يا دكتور. فأشار لها أن تصمت. وصفرت أذني من شدة السكوت، ثم قال بعد حين وهو يكتب: قبل الأكل.. وسط..

ورفع هامته ليكتب الاسم مرة أخرى على تذكرة العلاج، وسأل من بين شفتيه:

ما اسمك؟

أجبت بسرعة وأنا انتظر رد فعل اسمى: شكري جمال.

بص في وجهي، ولحظة ضم حاجبيه هم بالكلام.. وسكت، وقبل أن يزيح ذاكرته هتف مسرعاً: نعم.. شكري جمال، ذات المدرسة والفصل والرحلات. ابتسمت قائلاً: والطوابع يا دكتور.

أحمر وجهه، وقال بوقار: تذكرت تذكرت.. سنوات طويلة. قلت أهون عليه الأمر: لا تهتم يا سيدي الطبيب.

سكت. دفعني للكلام في لحظة تعثره تلك، وأردفت: أنا الذي أخطأت ماذا كان يمنع لو أني أعطيتك طابع بريد العدوان الثلاثي على بورسعيد.. هو الوحيد الذي كان ينقص مجموعتك، ولكن تمسك الإنسان ولو بطابع بريد. ابتسم ابتسامة تكومت على جانب فمه الأيمن ولم يجد مفراً فقال:

نعم نعم.. كانت أيام.. كانت هواية لطيفة.. لعب عيال. قلت: سيادتك جمع طوابع البريد ليس لعب عيال. قال مقاطعاً: نعم نعم. خلع النظارة وقال لزوجتي التي نور وجهها فجأة: ولكن الظروف التي أخذت فيها ألبوم الطوابع الخاص به، كانت ظروفاً ضيقة، حيث الأجازة أعقبها الانتقال إلى الجامعة. وسألني: ماذا تعمل؟ قلت: موظف.

ابتسم بسعادة اعتقادا منه بأن الموضوع انتهى، وقبل أن يتكلم قلت أنا: هل تذكر رحلة القاهرة والأهرام؟

ضحك ووقع منه القلم، وقال: نعم وتذكرنا معا في لحظة واحدة- هكذا فهمت من عينيه- أنه ذات نهار شتاء بعيد، ضحكت على سائحة أجنبية، وشرحت لها بالإنجليزية المكسرة عن تاريخ خوفو وأمسكت يدها الباردة، ثم كتفها الأملس، وقلت لها انظري للشمس، وفمها مثل الفراولة، حتى جاء هو وبطريقة غريبة

هجم عليها وقبلها، وأخذ يحكي بعد ذلك في المدرسة كيف استدرج السائحة وراء الحجارة، وأخذ هو يمسك نهديها الصغيرين، حتى دعته لركوب الفرس وراءها، غير أن السائحة حين هجم أمامي ضربته هي بحفنة من رمال، بينما ربتت على كتفي وودعتني بابتسامة لطيفة. وقلت له هل تذكر السائحة؟ قال بصوت عال: نعم.. السائحة. وضحك، ضحكت زوجتي بخجل وفرحت. ابتسمت أنا، قال: السائحة!! وأخذ يقهقه. نسيت مرضى، وأضاف وهو يضحك: لا.. وحكاية طابع البريد! قلت: لا.. حكاية الألبوم، ضحك، ضحكنا.. ضرب المكتب بيده اليسرى والتي بها خاتم زواج من الفضة، وقهقهة. انفتح الباب، وأطلت البنت ذات الإيشارب برأسها وخلفها كل المرضى المنتظرين بين ذهول ودهشة وهمهمات.

لكنها أغلقت الباب، وظل يضحك، بينما توقفت وزوجتي عن الضحك، وكرر: السائحة.. أما حكاية.

وخلع نظارته ومسح عينيه الدامعتين بمنديل أبيض نظيف، ثم سكت، وسكت، وصمت حتى غصنا في السكون الأول. تنهد ثم قال مشيرا بيده إلى سرير الكشف:

- لابد أن أفحصك من جديد.

# حارس البحر

كنا والبحر، والمدينة وراءنا، شوارع خالية، بيوت مهجورة النفس، وحوانيت مكدسة بعلب الطعام المستورد في انتظار الصيف، والسماء تجوس فيها السحب. هزني الهواء، ثمة برد ورعشة. المدينة الخالية يتردد فيها الصدى، والرمال مشبعة بالماء المالح، الصخر صلد و جامد وبارد، كنا نخطف الأغاني عنوة من أرواحنا المرهقة.

كنا والبحر، حاولنا الاستمتاع به خلسة من وراء ظهر المدينة ضحك إبراهيم عبد الفتاح ضحكة عذبة، وفتح ذراعيه ليحتضن البحر، وطاهر كان يغني. وهما كانتا تسيران بتؤدة وفرح خفي. واحدة بفستان أحمر والأخرى بفستان بلون السماء، وكانت ذات الفستان الأحمر يدها فيها منديل طويل، وكنت أخمن أن واحدة تغني أغنية بصوت يرج المدينة. علا صوت فوزي بالغناء مشاركا طاهر، وحين كنا على وشك أن نغني جميعا خرج علينا. خرج علينا من بعيد، من عشة بالطوب والحجارة والأخشاب، خرج بنحول جسده، وقصره الملحوظ، دون الاقتراب صاح فينا:

- انزلوا.. انزلوا.

لما انتبهنا ضحكنا، ضحكنا حتى غضب وجه المدينة.

قلت ماذا تريد؟ قال وفيق:

لا تلق بالاً، وشارك إبراهيم في الغناء، لكنه على البعد صرخ وزعق:

- انزلوا.. انزلوا.

حين انتبنها كان منفعلا بشدة، يطوح بيده في الهواء، يكاد ينحني على رمل الشاطئ المدهوس من زمن الصيف، وعاود:

- انزلوا.. انزلوا.

سمعناه جيداً وكان يزعق:

- هذا بحري.. هذا بحري.. انزلوا.

هممنا بالضحك، لكنه فاجأنا:

- سأطلق النار عليكم.. عليكم سأطلق النار.

تقدم ثم قال:

مهربون.. لن تهربوا المخدرات.. سأطلق النار.

كانت مدينة الصيف تموت في ديسمبر الشتاء، لا تطؤها قدم طفل صغير، أسفلت بارد وشجر بارد. هب الهواء من ناحية البحر قويا، أحسست بأنه يدفعني حتى أنكفئ.

أمسكت بيد وفيق. صرخ مرة أخيرة واضحة واثقة عالية:

- سأطلق النار.

ثم استدار، وهرع في اتجاه عشة صغيرة مثل قبضة يد فوق اتساع الرمال. سكتنا لحظة ثم انفجرنا في الضحك المشوب ببعض خوف، الرجل القصير داخل عشته بحماس، ماذا لو خرج ببندقية؟ قلت لوفيق علينا أن نتجه إليه ونفهمه أننا ضيوف البحر. وفي اتجاهنا معا شعرت أن البندقية في صدورنا والرصاص يشق هدير البحر. بسرعة خرج إلينا؟

سمعت صوت الموج يضرب الشاطئ والخرسانات والحديد، ويصفع "الشاليهات" الفنادق، ولم تكن في يده بندقية. كان يلبس على عجل البالطو الكاكي، وبتوتر أيضاً، وحين واجهنا تماما كان لم ينته بعد من ارتداء البالطو، ولكنه فجأة أمسك بذراع وفيق،وضغط بشدة، رأيت وجهه النحيف ذا الشارب الكث يرتعش، غير أنه كز على أسنانه وقال:

- قلت لكم انزلوا.

أشار بإصبع قصير مبتور:

هذا بحري

التففنا حوله، وخالد يرقبنا باستمتاع، اتكأ إبراهيم عبد الفتاح على عصاه، فقال الرجل:

- هذا البحر عهدتي.

مرقت الطيور الجارحة من فوق رؤوسنا بصوت وحشي، فرأيت وجهه متغضنا. أكحل العينين، وملابسه قديمة ورثة، وحذاءه الجيشي ضخم. قلت نحن ضيوف، هتف في شموخ:

- والبحر بحري.. وأنا لهم بالمرصاد.. وأنتم بإشارة من أصبعي أقضي عليكم.. هل تهربون الحشيش؟

قال وفيق نحن ضيوف.

كاد أصبعه يدخل في عين وفيق وسأله:

- ما هو نشاطك؟

قال وفيق أنا صحفي.

قلت له: هاتان بنتان تسيران بلا خطر. فلماذا..!

ضرب رجله في الأرض وصرخ:

حريم.. حريم.. أنا لا أقتل الحريم.. أنا قتلت محمود الفحام.

برهة، صمت البحر، وبحلق فينا بعيون دهشة، وعندما أدرك أننا لا نفهم، قال بأسى:

- ألا تعرفون محمود الفحام؟

قلنا: لا نعرفه.

تغير وجهه بمسحة من حزن، وقال مكلما نفسه:

محمود الفحام.. أكبر تاجر مخدرات في مصر.

أمسك بخالد من كتفه وقال وهو ينظر للبحر:

محمود الفحام.. دوخ الحكومة والبوليس، فقلت لهم اتركوه لي، وأخذت بندقيتي ورحت وراءه، من بلد إلى بلد، من حارة لحارة، من بيت لبيت، ومن سنين لسنين، ونسيت امرأتي وأسماء أولادي ونسيت وجوههم أيضاً، لكنني أتذكر ولدي النحيل كان مريضا، لكني كنت عند كلمتي، حتى ذات ليلة في محطة سكة حديد، وكان

هو في انتظار القطار حين صوبت عليه من الرصيف الآخر. طلقة واحدة، واحدة، قتلته بها وبإمكاني أن أقتلكم أيضاً، لي الحق في أن أدافع عن هذا البحر.

وأصبح للطيور صوت، وللموج هدير، حتى أنفاسنا ترددت، ولكن لهاثه كان عاليا.

قال وفيق:

- ما اسمك يا عم؟

فمشى الرجل حتى قارب مقلوب وجلس عليه، وأخرج علبة السجائر من جيب الصديري، أخرج سيجارة وقبل إشعالها قال بزهو:

- صالح

قال وفيق:

من أين يا عم صالح؟

قال صالح وهو يشير إلى كل الدنيا

- من مصر.

قلت: نحن بلديات كلنا من مصر.

أشعل سيجارته بهدوء وقال:

- أنا كنت بقسم عابدين.. أحرسه وأخدمه وأدافع عنه.. قالوا لي عهدتك قسم عابدين، قلت لهم هاتوا بندقيتي واتركوني، وتعقبتهم، كل المهربين.. واحد.. واحد. لكنني لم أنس ولدي

النحيل الذي كان مريضاً. وأعرف كيف قتلت محمود الفحام.. طاخ طاخ طاخ. ولم يعد هناك مهرب واحد يهدد قسم عابدين، فهدمت الحكومة قسم عابدين، ولماذا يظل قسم عابدين؟ أعطوني البالطو والبندقية والبطاقة العائلية وأرسلوني إلى البحر، وعلى ورقة بيضاء بصمت على عهدتي الجديدة. أحميه من كل شيء: المهربين والقتلة. البحر في الشتاء ملكي، في الصيف يلعب به الأولاد والبنات، لم تسمعوا كلامي، وكان عقابكم واجبا، لم يأخذوه.. لن يأخذوا البحر مني. وقف في عصبية، فرفت العقناء وحومت، وخرجت جنيات البحر يبللهن الماء، وتكدرت المدينة، وارتج الأثاث المركون بها، وتهاوى عظام هشة، وسمعت بأذني التي سيأكلها الدود وقع حوافر الخيول تجتاح المدينة، واختلط الماء الآجاج مع السلسبيل، وحينئذ خلع البالطو الكاكي ورماه بعصبية، وصرخ:

لن يأخذوه.. سأقف لهم

وكانتا تمضيان على مهل، وسمعت ذات الفستان الأحمر تغني بصوت عال رائق وصاف، تمضيان.. حتى اختفيتا، ونحن انسحبنا في بطء نمضي، وخطونا فأسرعت خطانا. الرمل هش وماء البحر يتسلل إلينا، راميا من أعماقه كل الأصداف والذكريات الصغيرة، ولعب الأطفال التي تاهت منهم ذات صيف، لم أشا البوح غير أن صوته أوقفنا جميعا، التفتنا، جرى إلينا، أمسك إبراهيم من كتفه وسأله في حزن:

- بالله يا أستاذ ماذا فعل أولاد محمود الفحام بعد موته؟

## من مجموعة القبيح والوردة 1984

# القبيح والوردة

النهر رائق.. الشمس تدفئه.. وهو ينساب في هدوء وطيبة، وما هذه القوارب غير لعب صغيرة.. والنهر واسع.

النهر رائق، لا طمي، ولا أعشاب، والشمس تناثرت قطعا صغيرة في مساحته الواسعة.

ونحن على حافة النهر نتصبب عرقا، يحيى كان يلهث والعرق على جبينه، والتراب حط على شعره الأكرت. النهار أصبح طويلا على يحيى، هو في انتظار الليل.. حيث البنت العرجاء في انتظاره.

الشمس حامية، وحذائي ضاق على قدمي.. وحذاء يوسف من البلاستيك الأسود اللميع، انحنى يوسف على سور الجسر الحديدي، بنطلونه في لون الخضرة، وعيناه في لون الخضرة أيضاً.. هامت عيناه بالنهر الذي يحبه أكثر منا جميعا. قال يحيى أنه جائع، وأن الرجل الذي مثله في حاجة إلى صحن كبدة خاصة في ليلته الأولى.

همس يوسف:

- انظر.

سألته:

- ماذا؟

قال:

الوردة.

وردة بيضاء مغسولة بماء النهر، وتتماوج في بطء.. وثقة.. وجمال. عندنا نهر نحبه ونخافه، وبه وردة أحبها يوسف.

ويوسف يحب أشياء كثيرة، ويأتي لنا في الحارة بصور ملونة، ندخل بيت عم سراج- الذي به فناء كبير- نجلس ونتفرج على الصور صور جميلة ملونة لأطفال لا نعرفهم، غير أن يحيى يسخر منه.. ومنا جميعا، ويخرج من جيبه قرشا، ثم يفره في الهواء عاليا.. ويقول هل تلعب يا يوسف على هذه الصورة التي سأمزقها بعد ذلك؟

ينكمش يوسف، يتحول لون وجهه الأبيض إلى حمرة قانية، وتبدو شفتاه مثل الفراولة.. يهز رأسه خجلاً.. ويشير بأصبعه لا. ويقول يحيى: من ينازلني "الكراتيه" يرفض يوسف.. ونضحك نحن، ويتبرع أحدنا بأن ينازل يحيى. نحن جميعا أبناء حي واحد، والناس يستعيذون بالله منا حين ندخل الحي، ويحزنون من أجل يوسف الحبوب الهادئ، والذي تجذبه النسوة خلف أبواب الدور، ويفر هاربا كبنت.

ويحيى مكروه من أهل الحي، هو الأسمر الدميم.. صاحب الراس المدورة والشعر الأكرت.. ويقولون عنه: القبيح.. ابن القبيح.

- ابن الوز عوام.

هكذا كان الأب رحمه الله، يخرج على الناس بسكين، يخرج عليهم عند "الجسر" في الليالي الباردة والساكنة.

يحيى بعينين واسعتين يرعبنا، ولكنه يمدنا بالجرأة والقوة حين ننازل أبناء الأحياء الأخرى، وهو الذي علمنا السرقة.. والهروب من الشرطة، وتدخين السجائر، وأماكن حمامات البلدية، وهو الذي يسهر بنا كل ليلة في فناء بيت عم سراج، في هذا الفناء المهجور.. الواسع.. الذي به نخلة نجلس تحتها.. ويركن يوسف بظهره عليها ويستمع إلينا في هدوء.

## يحيى يتحدث عن أمه والبنت العرجاء

بالأمس نادت أمي على برفق.. وحنان.. فعرفت أن هناك شيئاً ما سوف أفعله لها، وأنا- كما تعرفون- كثيراً ما أضحى بنفسي من أجلها، فأحياناً أسرق لها الطماطم، والباذنجان، وأحياناً يضربني الباعة ولا أستطيع أن أسرق لها أي شيء، فتنظر لي بعينيها الكليلتين، وتقول:

خائب.. رحم الله أباك.. كان يهد الدنيا على دماغ من لا يطعمه شيئاً.

ثم تزحف على الأرض متكئة على يديها وذراعيها، وتقعد على عتبة الحجرة تتأمل في الحارة الضيقة.

وبالأمس نادت علي بحنان، وكنت راجعا منذ قليل من دار عمكم "علي" أتضحكون.. لا يهم.. إن ابنته العرجاء جميلة رغم كل شيء، أنها معجبة بشعري الأكرت، وتداعبني.. وتجعلني منتشيا، وأشعر بأشياء لن تشعروا بها إلا بعد عشر سنوات أيتها الكلاب الصغيرة، ولقد أعطتني "فرح" ابنه عم "علي خمسة قروش أطبقت عليها وفررت من الدار فاصطدمت بعم "علي شخصياً فضحك حين رآني.. وقال:

انزل استحم في النهر مرة في حياتك.

ضحكت عليه.. وسخرت منه.. وقلت له في نفسي: يا رجل يا جردل.. إن ابنتك العرجاء متيمة بي، ولو طلبت منها جنيها لخلقته لي من تحت الأرض.

وسرت لا ألوي على شيء. فقد كنت سعيدا، ذلك لأن "فرح" أحاطتني بذراعيها وحين لامستني بنهديها سرت بجسدي كهرباء، وكدت آكلها.. المهم أنني لم أضرب طفلا في الحارة، ولما رآني فهمي بائع الحبوب جرى ووقف أمام حبوبه.. فضحكت من أعماقي.. وقلت لأطمئنه:

كيف حالك يا عم فهمي؟

وتركته، وتمنيت في هذه الليلة أن أرى الولد يوسف لأشتري منه صورة ملونة، وأعلقها على الحائط- مثلما يفعل هو ولكنني أريد صورة رجل يلعب "الكراتية" ويكون طائراً في الهواء، غير أن

يوسف ينام من المغرب كالفراخ. ولم أشأ أن أدخن سيجارة. ولد يا حسن هل معك سيجارة..؟ طول عمرك رجل.. هل معك كبريت يا ولد يا حسن..؟ طول عمرك امرأة. المهم.. قلت ماذا أفعل.. كنت جائعا.. ربما أجد بالحجرة لقمة خبز.. أو بقايا فول. أمي رغم فقرنا امرأة حريصة، فدائماً.. وحياة النبي المرسل.. دائماً تجد عندنا فول أو قطعة جبن.. ودائماً عندنا بصل.

لما دخلت الحجرة رمشت أمي.. ثم نادتني بحنان.. فقلت لابد أنها تريدني في شيء ما. اتجهت إليها في تردد. قلت:

نعم؟

أمي رغم أنها مريضة وفقيرة فهي حنون، ورغم أني أضربها كثيرا- من غلبي- إلا أنها تحبني، وأنا حين أريد إرضاءها أسرق لها "العجور" فهي تحبه كثيرا. أمسكتني من يدي، كانت يدها شديدة الدفء.. ثم قالت همسا وكأن أحدا غيرنا بالحجرة..

- ينورها لك يا بني.. أريد أن استحم.

وأنت تعرفون حكاية الاستحمام هذه.. كانت "فرح" تعبدني.. وهي ابنة عم علي ماسح الأحذية، كانت تأتي وتحميها، وحين أفشى أولاد الحرام بالسر إلى أبيها.. ضربها بفردة حذاء حتى سال الدم من شفتيها وكاد يفقأ لها عين. ومن ثم لم تعد "فرح" تجئ.. ولجأت أمي إلى الجيران وفي كل مرة تحميها امرأة، وأمي تكره القمل جداً، ولكنها لا تستحم رغم هذا إلا كل عدة شهور مرة، هرشت في رأسها..

سألتها:

- كيف أحميك؟

ضحكت وقالت:

- هات الماء من النهر.. ثم سخنه.

ونزلت إلى النهر، وحملت برميل المياه على كتفي.. وأهل الحارة سخروا مني.. وعرفتهم بالواحد.. وسوف أجازيهم على أقوالهم.

لم يعد للسجائر طعم.. أف.

كانت أمي في الطشت غيرها في الملابس.. الجسد ضئيل.. ضئيل يرتعش.. والجلد مثنى.. وعلى الجلد وسخ غريب.. انتابتني رعشة في البداية، وقفت وراءها.. وبالكوز أخذت أصب الماء على رأسها، وكانت تحرك يدها التي أكلها الروماتيزم بصعوبة.. ثم قالت:

- أغسل رأسي.

نزلت المياه سوداء.. ثم أخذت أمر بالليفة الخشنة على ظهرها المعظم... ثم.. واجهت أمي من الأمام، كانت عيناها في هذه اللحظة فرحتين.. لكنهما تغوصان في جمجمة، وما كنت أظن أن شعر أمي بمثل هذا البياض، ملعون يا أبي.. لقد عاشت أمي في فقر غريب، وأنت الذي كان يملك سكينا حادة.

شعرت بالدوار.. هذا الجسد الضامر.. وهذه العروق النافرة، مددت رجليها بصعوبة حتى أغسلها دعت لي بزيارة النبي.

أحسست بالاختناق "فرح" لو أنها أتسحمت لو تمددت.. لو

نامت.. لو أن يدي راحت تتحسس هذا الجسد النضر .. الاختناق.. وابور الجاز يشع دفئاً.. عينا "فرح" تشعان نوراً غريباً.. وأنفاسها.. آه.. وابور الجاز خانقاً.. خانقاً..

صفقت الباب ورائي بشدة.. وجريت كالمسعور إلى "فرح" في طريقي ركلت أخوها الصغير.. ودخلت الدار، وكانت وحدها.. ويبدو أن شكلي كان غريباً، فقد شهقت حين رأتني أتصبب عرقاً.. تقدمت منها..، اعتصرتها في حضني، ارتجفت.. نامت كأنثى.. وعرفت أن نهديها غير ثدي أمي تماماً.. وأن جسدها شاب.. وأعدكم لن تفلت من يدي يوماً واحداً.

أنا القبيح أريد أن أنزل النهر غداً.

## يوسف يتحدث عن اللعبة والوردة.

كانت اللعبة فوق الدولاب الخشبي، وعلى الحائط صورة كبيرة ملونة لوردة بيضاء، وأنا أجلس في صمت بجوار أبي الكفيف.

أنا كما تعرفون لا ألعب "الكاراتيه" وأحب السينما.. وأحب ابنة الجيران، وأخاف من يحيى.. لا تسخروا مني.. أنا أخافه وأحبه.. ولا أستطيع أن أسرق مثله، ولا أن أهزم الصبيان.. ويقشعر بدني حين أرى البنت العرجاء.

أنا أخافكم جميعا.. وأحبكم وأحلم كثيرا بابنة الجيران.. بحق هذا القمر الجميل أتمنى أن تكونوا طيبين، ولا تؤذون عواجيز الحي، أن أبي عجوز.. كفيف.. وعمره طويل وأمي لا تحبه كثيرا..

وهو يحكي لي دائماً عن أيام صباه، ولعبه، وقوته.. هل تدركون معني الضعف والهزيمة بعد الشباب القوي.. لا أريد أن تعاكسوا ابنة الجيران.. أنتم تعرفون أنها في المدرسة الثانوية، وربما أصبحت طبيبة تعالج الحي كله بلا نقود.

هل تحبون أن أكمل كلامي؟

كنت أود أن أحكي لكم عن اللعبة- التي كانت فوق الدولاب الخشبي، العسكري فوق الحصان الأبيض، السيف مرفوع يعلو الرأس، العسكري له رأس يحيى وشعره خشن.

لو أن يحيى ركب هذا الحصان لدار به في البلد، يقفل الحوانيت.. ويقطع الكهرباء.. ويخطف البنات.. بل ويقف بقدميه على ظهر الحصان ويمشي في الشوارع ضاحكا.

وأنا لا أستطيع أن أفعل هذا يا يحيى.. بل أنك شجاع.. أليس كذلك؟

وماذا لو ركبت أنا الحصان..؟

أضع فوق ظهره بردعة حمراء وفي عنقه وشمة فضية ويكون الحصان بنيا لامعا، أسير على مهل.. وأتابع النهر، والمراكب المسافرات بعيدا، والشمس الجميلة. وأسير تحت النخيل العالي.. ويسير الحصان بدون ضجة، وأريد من الله أن يعيد بصر أبي عليه حتى يراني.. وأنا الذي رسبت في الابتدائية ثلاث مرات قد استطعت أن أركب الحصان البني، ثم أربط الحصان في سور الجسر، ويصهل

قليلا في فرح.. ثم أستلقى على الحشائش الخضراء، أستلقى وأكون جذلا.

عندي صورة ملونة جميلة لبنت دقيقة الحجم. ولها شفة رقيقة، وهي تنام فوق الحشائش باسترخاء وطفولة، في الليالي التي لا أنامها، استلقى بجوار البنت الرقيقة على الحشائش.. وأحلم.. أحلم معها بطفل جميل يشبهها، غير أن البراغيت لا تكف عن مضايقتي. أنتم تعرفون أن حجرتنا بها صراصير وبراغيت لا اعرف لم تهواى حجرتنا بالذات. وأنا صغير.. اشترى لي أبي لعبة العسكري والحصان. أيام كان يبصر مثل جميع المخلوقات. وأنا صغير ضربتني أمي، ولا أستطيع أن أنسى، لقد ضربتني حين حاولت أن أنزع الورقة المفضضة من فوق العسكري قالت أن لعبة مولد النبي لابد أن أحفظها لعام قادم.

ومرت كل سنوات عمري واللعبة فوق الدولاب.. وكل ليلة كنت أحلم أن ألعب مرة أخرى بالعسكري والحصان.

كل ليلة أحلم.. حتى كرهت هذه اللعبة.

لم تعد اللعبة بيضاء.. أكل الذباب وجه العسكري.. وأصبحت اللعبة شديدة السواد.. وكلما زارنا أحد- وهذا لا يتم إلا نادرا- يشير أبي إلى اللعبة ويقول:

لعبة يوسف.. اشتريتها له من طنطا.. زمان.. أيام النظر والصحة.

ويمد أبي يده يتحسس الدفء من الموقد، ويخرج الدخان، وتدمع عيني. هل تكرهون رائحة الدخان الخانقة؟ هل تكرهون القمل؟.. هل تحبون الطعام الذي يشبع..؟

ذات ليلة خلت منكم، فكرت أن أعمل في مصنع.. على شرط أن أنام بلا جوع.. ترددت ورحت أتجول في ميدان المحطة ونمت على دكة خشبية، وحلمت بالقطار يسير ويغني: تك تك.. تك.. تك وكانت البنت الصغيرة تضحك.. تضحك.

ولما استيقظت- وكنا في الليل- ولمحت المخبر.. هربت إلى السكة الحديد. قررت أن أراكم هذه الليلة، وأن أشكي لكم همومي. تعرفون أنني منذ أيام اشتريت أصيصاً لأزرع فيه الورد، غير أني لا أعرف كيف يشترون الورد...؟ ولا من أين يشترونه.

ولكن هذه الوردة المعلقة على الحائط.. تشدني إليها ساعات طويلة، يا للسحر الجذاب الذي تنطق به. إنني أريد أن أضع الوردة على الشباك وأقوم في الصباح الباكر وأسقيها.. وأرعاها.. وأحبها أن الوردة تكبر.. وتكبر.. والعسكري والحصان- هذه اللعبة السخيفة- تتسخ.. وتتسخ نهضت من جوار أبي فزعا عصبيا، وكأن أبي قد أحس بالسخونة التي تغمرني. سأل:

- يوسف!!

مددت يدي.. أنزلت اللعبة من فوق الدولاب.. ثم ضربتها بالأرض، فانكسرت.. تناثرت، رأس العسكري تدحرجت حتى قدمي

أبي. والحصان لم يعد له وجود، ونهضت الوردة قوية.. بيضاء.. حمراء.. قوية تفتحت، غمرتني برائحتها العطرية.. غضب أبي.. ولا أعرف كيف سيفهم أن الوردة البيضاء جميلة.. ورائحتها جميلة، وأن هذه اللعبة متسخة وبالية.. ومرتع للذباب.. هل تسمعون الوردة؟ أنها قادمة مع النهر.. أنها تنشد في فرح.. فرح بلا نهاية.

***

النهر رائق.. وعيوننا ألهبتها شمس الصيف، النهر يمضي بطيئا حاملا على ظهر موجه وردة بيضاء.. شهق يوسف:

الوردة.

الوردة لم تعد في الحلم، ولا على حائط الحجرة في صورة ها هي قادمة كبيرة.. ها هي تتهادى.

هتف يوسف:

- أريد الوردة.

وكنا خمسة صبية على حافة النهر، وليلة أمس كنا في بيت عم سراج، وأمس كف يحيى عن ضرب الأطفال وسهر يوسف خارج المنزل.

وفي الظهيرة هبطنا من فوق الجسر.. وجلسنا على حافة النهر.. فالتعب قد هدنا.. للنهر نسمة.. وللوردة رائحة.

وأصاب يوسف الجنون بالوردة.. وقرر يحيى أن يغتسل. نظر يحيى إلى بنطلونه الباهت، ودعك قفاه بيده، وقال:

لابد للرجل أن يستحم حتى لا تتأفف المرأة من عرقه.

سكت.. ثم مال على قدمه.. وفك رباط حذاءه الكاوتش المتآكل من الأمام. نهض.. ضغط على شفته السفلى بأسنانه الصفراء.. ثم سألنا:

- من يستطيع أن يسبح ويأتي بالوردة؟

الشمس قاسية، وما نزلنا النهر في هذا العمق.

أردف يحيى:

- انزل يا يوسف.

انتاب بقية الصبية، خوف، هل يختار يحيى واحدا ليرميه في النهر؟

تراجع يوسف بخجل- ما تعلم يوسف السباحة بعد- ضحكنا جميعا.. ولم نشأ أن نسخر من خجله، تقدم يحيى يسأل في زهو؟

- من يستطيع؟

تراجعنا قليلا.. وابتلت صدورنا وجباهنا بعرق غزير، النهر عال، ولا نعرف عمقه نحن نستحم حيث يضيق النهر.. وفي الترع الزاحفة وسط الغيطان.. رمشت عينا يوسف، وأحمرت وجنتاه، خلع يحيى البنطلون، وكانت عيناه تلتمعان في فرح.. علت زقزقة العصافير فوق الشجرة.. والعربات تمرق على الجسر بلا صوت... وكان يحيى يبتسم في خوف، تجمعت البسمة في ركن شفته.. ثم خلع بقية ملابسه، ضرب على صدره العاري بيديه هرش شعره الأكرت.

- سأذهب لـ "فرح" نظيفا.

وما هذه القوارب غير لعب صغيرة.. وما يحمل النهر إلا ماء ثقيلا.

رجع يحيى للوراء.. تقدم وهو يجري.. النهر فتح له ذراعيه.. النهر واسع.. قفز يحيى.. فرح الماء به وعمل ضجة شديدة.. ورفع يحيى يده لنا.. وابتسم.. تقدم يوسف من النهر.. كاد ينزلق رجع مشدوها. يحيى يندفع باتجاه الوردة، يشق النهر بلا خوف. مد يده إلى الوردة.. تراجعت الوردة.. ضرب الماء بقدميه، خفقت قلوبنا.. الوردة كبيرة بيضاء.. والموج يجرفها.. ويجرف يحيى معه.. يحيى بعيد.. نظر للخلف لم نر عينيه.. بصق.. تمخط.. أمسك الوردة.. ترك الوردة.. تمخط ثانياً.. لم يستطع أن يصلب نفسه.. اختفى من على السطح.. ظهر مرة أخرى.. رفع يده اليمنى.. آه.. يحيى سيغرق.. أنه يستغيث لم نسمع صوته.. رفع يده في عصبية.. حاول السباحة.. انقلب على جنبه.. على ظهره.. اختفى.

صرخ يوسف:

- يحيى.

ظهر يحيى.. والشمس حارقة.. حارقة.. والماء ثقيل.

- يحيى.

لم يسمعه.. ولم يسمعنا.. ولم يرنا.

ها أنت في منتصف النهر.. وها نحن على الشاطئ.. في انتظار

الوردة.. زعق يوسف فزعا.. وانتفضت منه العروق.

- يحيى.

صرخ يحيى حتى سمعناه.. صرخ في خوف وفزع ورعب:

- آه..

وكانت يده اليمنى مرفوعة عالية، تشنجت أصابعه، اختفت اليد المعروقة، وسكنت المياه.. واختنق كل شيء في حلوقنا، وعاد النهر أشد سكوناً ورهبة، ارتمى يوسف فوق ملابس يحيى وتشنج في البكاء.

# البيــوت

الأشياء بالداخل صامتة، يلفها الحزن، العيون منكسرة. عفش البيت كوم صغيرة، الحجرات الضيقة خالية إلا من رائحة الجبن القريش والأنفاس القديمة. على الحيطان كتابة بالطباشير. الفرن قابع تحت السلم الخشبي وبقايا الحطب المكسر لا تزال في البيت من يوم الخبيز الفائت.

فتحت البنت زينب الباب. زحف الضوء حتى أقدام الأم الجالسة أمام العفش.

قالت في صوت خافت مشيرة بأصبعها النحيف إلى الخارج:

- العربجي.

العربة الكارو ذات الحصان الأبيض العجوز أمام البيت.

- اجمع كتبك يا مصطفى.

أدرك مصطفى في هذه اللحظة فقط كل ما حدث. تأكد من كلام أمه. قالت بالأمس.

- آخر أيامنا في البيت.

بيوت القرية متعددة الأشكال.. بيت العمدة.. كبير.. مبني بالطوب الأحمر ومكون من طابقين بالطابق الثاني بلكونة ونوافذ البيت الزجاجية متربة. أمام البيت الكبير حديقة صغيرة بها بعض الأشجار الجافة (ذلك لأن العمدة له أراض مزروعة كثيرة وليس في حاجة شديدة إلى الحديقة).

وهناك أيضاً البيوت الطينية الواطئة، المنكفئة فوق الأرض نوافذها قطع من الخشب الصغير.. أو من أجولة قديمة متآكلة.. بيوت مظلمة يعيش فيها أهل "دمرو" كلهم. أما هذه اليبوت التي يؤجرها الأب عبد المنعم وغيره. بيوت ذات طابع خاص. بيوت إنجليزية الطراز، سقفها القرميدي الأحمر بشكله الهرمي تراه وأنت قادم من سكة الأتوبيس.

قال الأب وما زال سانداً رأسه إلى الجدار:

- يعني ننام في الشارع؟

والأم النحيفة قامت لتجمع أشلاء الأثاث. لم تنس شيئاً واحداً أعدت كل شيء منذ الصباح حتى تنقله للعربة الكارو. غير أنها ما زالت تبحث في كل الأركان عن "الكنكة" النحاسية.

صعدت البنت زينب إلى فوق. وضع مصطفى كتاب القراءة والمحفوظات فوق كتاب الحساب. والحساب فوق سلاح التلميذ. وبعض الكراريس مثنية الأطراف. وصورة للزعيم الخالد.

نزلت البنت زينب من على درجات السلم الخشبي القائمة وسط

البيت الإنجليزي. وكانت تدب بشدة- تتمنى لو تكسر كل درجة من السلم- شدت العصبة الزرقاء المتسخة فوق رأسها.

قالت:

- لم أجد الكنكة.

نهض الأب في بطء شديد. وكان ظهره مقوسا. صعد إلى الطابق الثاني لا يلوى على شيء.

في الحجرة الضيقة كم تناثرت الأحاديث. واحتضنت الحزن.. الفرح.. وفي ليالي شهر رمضان لا تنقطع الأحاديث ولا الدخان المتصاعد من الجوزة حتى وقت السحور.

حسد الناس عبد المنعم والآخرين على هذه البيوت التي ما كانوا يحلمون بها. ولا كانوا يبنونها لو عاشوا مئات السنين. وكان أبناء العمدة يحسون أن هؤلاء الفلاحين نفخوا صدورهم منذ أن أغلقوا على أنفسهم بابا خشبيا.

ولكن الباب الآن سيفتح على مصراعيه حتى يخرجوا بعفشهم إلى الخلاء.

قال سيد أحمد زاعقا.. ساخراً:

- طبعاً، لماذا ننام في مثل هذه البيوت؟

الحجرة الفوقانية خالية تماماً، الهواء يصفر فيها.. سقفها الخشبي النظيف ما زال لامعا من أيام الانجليز.

قال أبو مجاهد:

- وحياة ربنا العمدة بيغير من بيوتنا.

بالحجرة نافذتان كبيرتان. والغيطان تبدو مشققة، الطريق أمام البيت مترب. والترعة الصغيرة التي تشق قلب "دمرو"، ما زالت جافة وحمار أبيض هزيل يسير في بطء وراء ولد صغير. نحيف.

قال الأب معذباً نفسه:

250 جنيه.

قال لامرأته- وكان الناموس يأكل الوجوه:

250 جنيه.. نبيع الحمار.. والنحاس.. والفرش.. ولا نكملهم.

لكن سيد أحمد الذي نال قسطا لا باس به من التعليم من المعهد الديني قال:

نرسل شكاوى للوزارة.

تهللت الوجوه.. لمعت العيون السود.

الوزارة..

وبدأ الحلم في أن يكف التهديد عنهم. كحل الأمان جفونهم ليالي عديدة. في جوف البيوت الإنجليزية الطراز كانت الأنفاس تدفئ الحجرات الضيقة.. تتمدد الأجساد العريانة.. الضئيلة.. المنهكة.. وتتلاحم.. وتهمس بالأمان. والحمد لله على لقمة العيش.. وليمت الحاسدون بغيظهم.

ويغمض الأطفال عيونهم فرحين بالبيوت التي تلمهم تحت السقف الواحد.

وتسهر الجوزة في أيدي الرجال بمقهى عبد الستار حتى آخر الليل. والجميع اطمأن إلى موضوع البيوت وأن مجرد توقيع الجميع على عرضحال تمغة فيه كل الحل.

قال سيد أحمد:

- والإيجار المتكدس فوقنا.

رد بعد المنعم:

- على الأقل كل منا عليه عشر شهور.

قال صبحي عوض الأهتم الأسنان:

نخلق يا عالم؟

ثم جلس فوق الكنبة الخشبية وأخذ يداعب حجر الجوزة بأصبعه الأصفر النحيف. قال بعد أن جذب نفسا عميقا:

- طوبى للمساكين.

سأله عبد المنعم:

- يعني إيه يا صبحي؟

فسرها صبحي عوض ثم أعقب ذلك بضحك متواصل حتى دمعت عيناه..

في الحجرة تيار الهواء يتدافع من النافذتين المتقابلتين. والأب عبد المنعم جلس القرفصاء. أخذ ينبش بأصبعه في الطين الناشف

فوق قديمه الغليظتين. ردد في همس:

- طوبى للمساكين.

الطين الناشف يتساقط..

حط الذباب فوق الكراسي الجريدية والموائد بالمقهى.. أغلق عبد الستار مذياعه الترانزستور وكان المقهى كئيبا.. أقسم عبد المنعم أنه لا يحس للدنيا طعما. لم يسمعه أحد.ز كان كل منهم غارقاَ في الهموم.

في النهاية ستباع البيوت في المزاد. ولا مفر من تسليم البيوت.

قال عبد الستار وهو ينفخ في غاب الجوزة:

- ما العمل؟

تحسر الجميع..

- ما باليد حيلة.

قال أحدهم:

- العمل عمل ربنا.

رد عبد المنعم:

- العمل معروف.. المزاد..

ما أن خرجت كلمة المزاد من فم عبد المنعم حتى تولد الخوف القديم.. الخوف من النوم عند الأقارب والجيران حتى يصنعوا أعشاشاَ ليناموا فيها.

قال أبو مجاهد:

- ملعون يوم تأجيرها.

ويومها.. يوم استئجارها من الحكومة.. كانوا فرحين لأنهم سيسكنون البيوت التي حلموا بها كثيرا.. وكانت قديماً.. أيام الاحتلال- بيوتا للإنجليز الذين يشرفون على أراضيهم في الريف المصري. قال الأب عبد المنعم أنها فرصة أن يسكنوا بيوتاً نظيفة ذات طابقين وقائم في وسط البيت سلم درجاته خشبية. وانتهز الفرصة كل من سيد أحمد وحسنين أبو مجاهد.. وآخرون. التقطوا البيوت الإنجليزية المتناثرة في أنحاء "دمرو والتي ما تزال تحتفظ بأسوارها القديمة.

- الإيجار جنيه وربع في الشهر.

همس سيد أحمد لعبد المنعم:

- الحمد لله.. هدية من السما.

أخرج صبحي عوض علبة المعسل من جيب جلبابه المقلم.. ثم قال:

- طوبى للغلابة.

وبرغم ضآلة الجنيه وربع إلا أنه كان قاسياً عليهم. فالعمل في الغيطان والزرع عند كل إنسان باليومية لا يسد الأفواه ومن يملك قيراطين أو ثلاثة مثل حسنين أبو مجاهد كان يتململ أيضاً من الجنية وربع. والعيال في كل بيت كومة من العظام.. عدد كبير من الأفواه وأجسامهم العرقانة وشغل طول النهار يأكل الهدوم ولو كانت حديد.

عندما كسب صبحي عوض دورين "دومينو" من أبو مجاهد قال:

- لا يمكن الحكومة تقبل حكاية المزاد.

لكن الحكومة -أيضاً- لا تقبل أن يكون الإيجار متكدساً بهذا الشكل، ولذا يأتي المحصلون في الشهر الواحد أكثر من مرة.

الإيجار يا بلد.

يدقون الأبواب، يجلسون.. يشربون الشاي والجوزة والمعسل ويتحدثون مع الأب عبد المنعم عن زراعة القطن ويخمنون كيف سيكون مجهود الدودة هذا العام.. يتحدثون في كل شيء.

عن الأحوال السيئة الصعبة.. وظروف الجمعية. والحبوب.

حتى يصل الحديث دائماً إلى حمارة الأب عبد المنعم التي ماتت وفاحت رائحتها في كل البلد، ويضحكون دائماً عند ذكر أجزاخانة الشفاء المغلقة دائماً.. ولكنه بعد كل شيء يلح في طلب الإيجار.

لا مؤاخذة يا عالم.. أنا موظف.

تتبرم الوجوه.. تتغير سحنة الرجل منهم:

- يا محمد أفندي انتظر قليلاً.

- يا محمد أفندي انت تعرف حكاية الإيجار.

يرد محمد أفندي:

الفلوس تراكمت عليكم.

الشهر القادم.

يعده الجميع بأن التسديد سيكون على أكثر تقدير في بداية

الشهر القادم، لكن الأيام والشهور عندهم واحدة لا تتغير.. نفس الأكل.. نفس الشقاء.. والنقود الشحيحة.

والمحصلون بعد عودتهم في تاكسيات دمرو- التى يتكدس فيها أضعاف ما تحتمل- يبدأون في تقديم تقاريرهم:

"الفلاحون لا يدفعون

ولكنهم أخيراً المحصلون- ارتاحوا من هذه الحكاية بعد أن اتفقت الحكومة إنهاءاً لهذه المشكلة أن تعرض البيوت في المزاد.. والجميع من أول الإسكافي إلى العمدة له حق المزايدة.

ولأن سكان البيوت الإنجليزية يعرفون ما في حوافظهم من نقود قرروا أن لا فائدة.. فهناك من ينتظر هذه البيوت حتى يلتقطها بأي مبلغ.. قال بعضهم:

- إنه مكان جميل لأن تقضى عائلات الأفندية الأجازة فيه.

وأشيع في "دمرو أن العمدة سيستعمل أحد هذه البيوت كحظيرة للبائهم. لكنها بالطبع إشاعة لأن المرجح أن ينتقل إليها بنفسه.

في النهاية.. ترقرقت الدموع في العيون.. ومصمصت الشفاه.. وتحسرت على الأيام الحلوة.. والبيوت التي كانت تلمهم.. بكى صبحي عوض كالنساء.. وقال:

- العين بصيرة.. واليد قصيرة..

تقدمت البنت زينب في حذر.. رأت الأب عبد المنعم جالساً ممددا في الحجرة الخالية. وأحست أن الحجرة كبيرة.. كبيرة.

وكان يجلس- ممدداً- صامتاً.. وعيناه ثابتتان فوق الأرض الحبلى بمئات الجنيهات.

تقدمت.. تلعثمت.. قالت:

- آبا.. جدي حضر.. سيحملون العفش.

زينب شاحبة.. كلماتها مهمشة.. أصاب الناس السكتة في هذه الأيام.. الحكاية مثل الشمس في الوضوح.. المزاد العلني على البيوت.. من يستحقها يأخذها.

- طوبى للمساكين.

- آبا.. حضر جدي.. و..

الحجرة لا تزال نظيفة.. والطلاء لامعا.. لا شيء يتغير في البيوت الإنجلزية.

قال سيد أحمد في حسرة:

- سننام في العشش

قال الأب عبد المنعم:

"إن عاز الغنى شقفة يكسر للفقير زيره"

وكانت الخطوات فوق درجات السلم بطيئة.. مثقلة بالحزن.. العيال يلتفون حول العربة.. الوسائد المتسخة.. والمرتبة المهترئة.. والكرسي العتيق.. والحلل النحاسية الحمراء.. البيت كله فوق العربة..

- زينب.. أين الكنكة النحاسية؟

نفخ الحصان العجوز ببوزه في الأرض.. قال العربجي:

- أنا نقلت عفش صبحي عوض بربع ريال..

أخرج الأب عبد المنعم حافظته البنية ذات الثلاثة عيون والجيب أبو سوستة.. عبثت أصابعه في الجيوب.. نصف ريال موجود..

قال له:

- توكل على الله..

لسع العربجي حصانه العجوز بسوطه الطويل.. اهتزت العربة.. طفرت الدموع من عين الأم.. تمخطت في ذيل طرحتها السوداء.. شدت فتحية في يدها. وأمسكت زينب بالصغير أحمد.. وسار مصطفى محنى الرأس. كانت الشمس قوية.. الجو خانق ولا سعفة نخل واحدة تهتز. وكانت الأم.. وكان الأب.. والأولاد صامتين. عيونهم فوق العفش الذي يهتز.. والطريق المتعرج المترب. ولا شيء غير الحزن في القلوب.

البيت الإنجليزي قائم.. كما هو.. نوافذه مغلقة.. سيظل يصغر ويصغر حتى يختفى.. انحنى مصطفى.. التقط قطعة من الجير.. عاد مسرعا إلى البيت.. كتب فوق الجدار بخط متعرج "للذكرى الخالدة.. مصطفى عبد المنعم.. خامسة أول"

# الخمـــيس

النسوة متشحات بالسواد الكئيب.. الرجال صامتون، الحمير الكسولة تسير في تؤدة.. والبنات يحملن "الخميس فوق رؤوسهن "بالمشنات". الطريق المترب الساخن يلسع الحفاة في "المشنات" كعك وقرص وتمر"، سال لعاب الولد الحاج تحسس المصحف القديم في سيالة الجلباب المتسخ، أسرع الخطى حتى يلحق بأبيه الشيخ عبد العال.

النسوة صفر الوجوه.. نحيفات، الرجال جامدو النظرات، الشيخ عبد العال يحتمى من الشمس العمودية بالجبة الباهتة المرتقة.

الطريق إلى المقابر طويل.. شاق.. خارج البلد، لكن الهمسات والأحاديث عن المرحومين.. والحواديت.. والبكاء تؤنس الولد الحاج سيد.

النسوة طوال الأسبوع- أمام الأفران الطينية- يعدون كعك الخميس.

رحم الله الأموات"

الحاج سيد يحفظ:

"الرحمن علم القرآن"

الشيخ عبد العال يهتز يمنة ويسرة بلا توقف. "الفلكة" بجانب المرتبة شديدة الاتساخ فوق الأرض الرطبة، والمسبحة الخشبية الطويلة معلقة فوق المسمار.

النسوة.. الرجال.. الحمير.. والشيخ عبد العال والحاج سيد في طريقهم إلى المقابر.

أيضاً كان رضوان في طريقه للمقابر.

جذب الشيخ الجبة الباهتة من فوق المرتبة.. والمسبحة من فوق المسمار والمصحف أخذه الحاج ولم يتكلم.

كان يتابع نقل رجله مكان الأخرى.

لم يكن في الطريق ميت اليوم.

رحم الله عباده"

نظر إليه الشيخ عبد العال بقسوة فراح يمشي كالألف.

- هيه.. ماذا ستفعل مع رضوان اليوم؟

ارتعد الحاج، جز على أسنانه.. آلمه ضرسه المسوس، بحث عن إجابة ترضى الأب:

- رضوان.. لا شيء.

هتف الشيخ في غيظ:

- يا ابن الكلب كل خميس يلهف الزبائن منك.

- صوته حلو..

- يا ابن الأبالسة قلت لك ألف مرة نغم في صوتك.

- أنني أنغم دائماً..

وضع يده اليمنى في جيب جلبابه، أمسك المصحف دون أن يخرجه.. الغلاف السميك متآكل. لعن "الفلكه" في سره..

هتف الشيخ عبد العال، وأشاح المسبحة الخشبية..

- انطلق يا سيدنا.

تنحنح الحاج سيد.. كح.. قال "بسم الله" وأخذ في تلاوة سورة الرحمن محاولا التنغيم، وعندما وصل إلى "كل من عليها فان قال الشيخ وهو يميل برأسه ناحية الولد الحاج القصير:

- اسمعني هذه الآية كثيرا.. أرفع صوتك.. أنها مهمة.

وقف حمار ليبول فتطاير الرذاذ على الحاج، والغبار في هذا الحر يخنق الأنفاس.. بصق.. قال:

"كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان

تأجل غذاء الحاج اليوم وكذا الأب حتى بعد الخميس.. بعد قراءة القرآن على الموتى بصوت حسن ليتسنى للحاج جمع القروش والكعك.. والتمر، وما يجود به المحسنون.

"المشنات" فوق الرؤوس ستفرغ كلها اليوم في أيدي المقرئين.. والشحاذين.. والعيال..و.. ورضوان.

أيام الأسبوع طويلة قاسية.. حصيلة يوم الخميس سريعا ما يأتي يوم الثلاثاء فلا يجد منها شيئا.

ينظر إلى "الفلكه يسبه أبوه.. ويسب أمه تلك التي هجرته من سنين ولا يعرف السبب حتى الآن، ويحفظ الولد كل السور.

ويشير الشيخ عبد العال بأصبعه المبتور العقلة إلى ابنه الحاج قائلا لأهالي الموتى أنه ولد مبارك ولد في أراضي النبي الحجازية، ولدته أمه بجوار الكعبة وكان من الحجاج. وهذا يزيد الأجر قرشا أو تعريفة، ويكون اللقب قد جاء بثمنه.

"فبأي آلاء ربكما تكذبان

قال الشيخ وقد فاض به الكيل:

رضوان هذا ابن كلب.

وعندما يأتي يوم الخميس يسأل الشيخ عبد العال الله كثيرا أن يصيب هذا الغلام "المفعوص" بمرض يرقده الأرض، والله على كل شيء قدير.. ويأسف على أيامه الماضية، أيام كان صوته يجلجل ويأتي من أول المقابر إلى آخرها. ولكن الآن عليه العوض ما عاد يمكنه الكلام بصوت مرتفع وابن الكلب جاء بصوت سيء كالخروف المكتوم.

قال الشيخ:

أعوذ بالله..

كز الحاج على شفته، عندما مسكه الأب من ذراعه الأيسر، وقال هامسا في خبث:

- ألا تعرف ضرب رضوان؟

أردف الشيخ لابنه:

- أن ضربه بحجر يجعل دمه ينزف، وربما هرب إلى أمه العاهرة.

سكت ثم قال:

- بناقص يوم..

شد على كتفه:

- هيه.. ألا تعرف؟

تلعثم الحاج سيد.. قال بعد مجهود..

كيف ؟

هز الشيخ رأسه في أسف..

- أنت ولد عاق..

النسوة متشحات بالسواد.. والرجال قليلو العدد.. والشيخ.. والحاج في قلب "الوسعاية" أمام المقابر.

عربات اليد فوقها التمر والكعك الجاف..

علت الضجة.. وتفرق الجمع. كانت النخلات عاليات.. ولا تهتز.

أنزل الشيخ عبد العال الجبة من فوق رأسه، عدلها بعناية فوق جلبابه الزيتي وأمسك المسبحة في يده اليسرى، وبيده اليمنى أمسك يد الحاج في حنان وأخذ رأسه في خفة، وكان الحاج لا يشعر بسخونة الأرض هذه اللحظة.. كان يفكر كيف يضرب رضوان لأنه لو فعل ربما أخذ قرش صاغ فوقه نسر.

أدخل يده من تحت طاقيته المتسخة ليهرش شعره الأكرت، لمح رضوان بلونه القمحي وعمامته باهتة الاحمرار وجبته السوداء.

بدا الولد رضوان كالشيوخ.

فتمنى الحاج أن لا يسمع صوته اليوم..

تخطى- الأب وابنه- عتبة الباب الكبير للمقابر في بطء.. وأخذ الأب يتلو بصوت منخفض:

"ولمن خاف مقام ربه جنتان.. فبأي آلاء ربكما تكذبان"

كانت رائحة التراب نفاذة.. الوجوه الصفراء تملأ الأمكنة..

مجموعات النسوة تتناثر بجوار المقابر الصغيرة، ولا بد أن تسمع النحيب، وأن ترى الدموع تناسب بغزارة، وقطع الحجارة الرخامية فوقها أسماء باللون الأسود محفورة بعناية، وأروقة المقابر فرشت بالحصر.. والملآت.. والبكاء.. والهمس.. وآيات القرآن..

العيال يرددون:

"رحمة ونور يا خالة"

تمخطت واحدة بيضاء اللون، وكان أنفها شديد الاحمرار..

قالت:

- أهذا هو رضوان؟

انزعجت الأخرى.. قالت:

ليس هو.

قال الأب في أسي:

- أول القصيدة كفر.

هرش خده الأيمن كثير التجاعيد.. فرك عينه بظهر يده.. ثم لكز الحاج سيد وقال هامسا:

- تقدم.

قال الحاج سيد للمرأة التي تسأل وهو يضم حاجبيه الكثيفين في استعطاف:

- سأقرأ لك الرحمن.. والبقرة.. والنمل.

كانت رائحة فمه نتنة من ضرسه الموجوع.

ردت المرأة في قرف:

- نمل في عينك.

قال الأب غاضباً:

استغفر الله العظيم.

كانت امرأة نحيفة.. ناشفة.. سمراء.. تجلس وحدها بجوار مقبرة صغيرة ليس عليها الحجر الرخامي، لكن فوق المقبرة "أصيص" صغير به صبار كثيف.

كانت وحيدة فوق حصيرة متآكلة الأطراف وبجوارها كان كيس تمر وأربع كعكات.

تقدم الشيخ عبد العال بخطى واسعة وجذب الحاج من يده وبجوارها قال:

- أجلس بجوار هذه المرأة الصالحة.

ثم جلس بلا استئذان، وأيضاً الحاج سيد، وكانت المرأة ترتكن برأسها فوق المقبرة.

قال الشيخ:

- الله يتولى عباده برحمته.

تنحنح ثم قال:

اقرأ يا حاج- يا مبارك من الأراضي الحجازية.. اقرأ الرحمن.

كان الصبار أصفر.. طينه ناشف مشقق، لم يكن وجه السمراء العجوز أثر الدموع، والشقوق كثيرة في جير المقبرة. والنمل وحرامي الحلة يجرون فوق الحصيرة. أخرج الحاج المصحف وفتحه.. دون أن يعرف على أي سورة- ووضعه في حجر جلبابه.. سعل.. ثم بدأ في التلاوة.

رأى الشيخ عبد العال الولد رضوان المصحف الكبير تحت ابطه، ورأى في عينيه نظرة استهزاء وبسمة مفتعلة فوق شفيته، وبعينيه الصفراوين راح يحدق ويبحث عمن يقرأ له وسمع الناس ينادونه.

جاء السقا، وبقربته أخذ يرش الماء، ويلم التعريفات.

الشيخ يميل للأمام وللخلف.. وتنتفض العروق في رقبة الولد.

الشيخ يراقب رضوان الذي يسير كأنما في بيت أبيه.. وباقي المقرئين "الغلابة" الذين لا يرتدون الجبة والعمة بل الجلابيب المقززة والذين- حتى- لا يحملون المصاحف.

كان الشيخ عبد العال يحقد عليهم قليلا لكن هذا الولد ابن

العاهرة الذي يمكن أن يأكل من عرق أمه. وفجأة علا صوت رضوان، وكان يرتل سورة الرحمن أيضاً.

"النجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان

- الله الله يا سيدنا.

تطلعت الرؤوس- كما يحدث دائماً- ولف صوته المكان كله.

قال الشيخ عبد العال لابنه ليسمع المرأة الجالسة في سكون.

- أحسنت يا سيدنا.

وكانت العجوز الضئيلة ما تزال راكنة رأسها فوق جدار المقبرة، وكيس التمر كان قديماً ومثقوبا وحذاءها المصنوع من البلاستيك كان متآكلا أيضاً الكعكات الأربع موجودة ما تزال.

السقا يدور بين المقابر محنى الظهر- الشحاذون يمدون أياديهم المعروفة بالحاح- والعيال يرددون: "رحمة ونور يا خالة"

رضوان يقفز بين مجموعات النساء، يقرأ السور المتعددة المختلفة.. ويجمع القروش.. والكعك.. والتمر.. وفي النهاية يبيع التمر والكعك لناس آخرين ويضع النقود فوق النقود ثم يعطيها لأمه.. ويفرح زوج أمه.

قال الشيخ عبد العال في نفسه:

- ألن يكفيك ما جمعت؟

فرصة الشيخ الوحيدة- بعيداً عن رضوان- هي في أيام الأسبوع حيث يقرأ الحاج سيد في البيوت نصيبه القهوة السادة.. والقروش..

والبخور المتصاعد من حوله، وفي المساء يجلس للحاج "بالفلكة" ويجعله يردد وراءه ما يقول، ويحفظ الولد القرآن من أبيه الشيخ.. فالحاج لم يتعلم القراءة ولا الكتابة.. والأب لا يستغنى عنه. كان أمله أن يكون بصوت حسن.

الله يا سيدنا الله.

ما يلبث رضوان أن ينتهي حتى يجد من يجذبه ليقرأ له، وعندما نهض هذه المرة.. نهض أيضاً الشيخ عبد العال.

نظر الحاج في خوف إلى الأب الذي مشى دون سبب، أمسك المصحف المفتوح بيديه وأخذ ينظر إلى المرأة- التي لم تستحسنه مرة واحدة- بغيظ شديد.

"رحمة ونور يا خالة"

الماء  الـ.. ماء" وصوت بكاء هتقطع.

وكان رضوان يظن أن الشيخ عبد العال يترقبه لكي يسرق منه الزبائن، وقف متحديا بين الشواهد الواطئة.. قال:

- انت مالك ومالي؟

كان رضوان القصير النحيف نافخا صدره، ماسكا بالمصحف تحت أبطه، وعيناه الضيقتان تنطقان بالسخرية من الشيخ العجوز عبد العال.

قال الشيخ وهو يشير بإصبعه المبتور العقلة:

رضوان.. كفاك ما جمعت.

رد رضوان بصوت مرتفع:

- رزقي ورزقك على الله.

أحس الشيخ عبد العال بأنه أهين.

قال بدهشة:

- يا بن الكلب.. ترد علي.

قال رضوان وهو يستعد للجري:

- أنت اللي ابن كلب.

وجرى.. وجرى الشيخ وراءه. تناثر من كعبيهما التراب الناعم فوق النسوة الجالسات، لم يوقفهما أحد.

خبط الشيخ في السقا، وتعثر في حذاء بجانب حصيرة، وأحس بدقات قلبه عالية، تمنى لو أنه بعافيته، ومال هذا الولد لا يكف عن مشاغبته كل خميس، أنه بات يحلم بقرفه ويحمل هم لقائه.

وكلما رمى رضوان نظرة سريعة للخلف لمح الشيخ يتعقبه بلا هوادة، لو لم تكن المقابر لجرى به من بلاد الله لخلق الله، لكنها النقود الموجودة ما تزال في الجيوب، وأمه البيضاء لابد أنها ستفرح وتأخذ النقود وتدسها بصدرها.

عبثا حاول رضوان الفرار.

ألا يخرج جنى من تحت الأرض "يلهف" هذا الشيخ المعتوه؟ يتعقبه الشيخ في كعبه.. على متى يسكت عليه. أن الأرزاق لا تقسم بالعدل، كله قرآن الله فلماذا ابن الكلب؟ وقدماه تؤلمانه بشدة.

ما عرف رضوان إلى متى سيظل يجري.. والنسوة ما زلن في المقابر، والموتى ما زالوا في حاجة إلى القرآن.

وقف رضوان وراء جذع نخلة سعفها قليل، أقسم الشيخ عبد العال بأيمانات الله أنه لن يتركه.

الكيس.. الكعكات.. والمصحف مفتوح في حجر الحاج سيد.

لو رجعت إلى هناك أموتك.

رضوان بعيدا عنه وراء النخلة، يلهث.. يلعن هذا اليوم السيئ، عرف أن ذلك يتيح الفرصة لأن يقرأ الحاج سيد وحده.

قال في تحد:

- سأذهب وأقول لعمي يقتلك.

اندفع الشيخ تجاهه، جرى الولد في الخلاء.. سبقه كثيراً.، يثير الغبار.. والحصى في الأرض يؤلم الأقدام الحافية، والشيخ يجري في اتجاهه، ذعر رضوان، تعثر في الجبة ووقع على الأرض.

كانت السماء واسعة.. وبعيدة.. لم يقدر الشيخ على اللحاق به.

التقط حجراً كبيراً.. شهق رضوان.. قذف الشيخ بالحجر بقوة ذراعه.

حاول رضوان الفرار لكن الحجر جاء في جبهته.

ود الشيخ لو يبصق.. كان حلقه جافا.

وقع رضوان متألما.. يصرخ.. نزل الدم ساخناً فارتعب رضوان.

تلفت الشيخ حواليه، خاف فجأة أن يكون الولد-طرد الخاطر- عاد يطلع إلى المقابر.. وكان يرتعش وخطواته متعثرة.

"فبأي آلاء ربكما تكذبان.. تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام"

الحاج سيد يهتز في رتابة، يده على أذنه اليمنى.. المصحف مفتوح، والمرأة في صمت تركن رأسها فوق جدار المقبرة المتهالكة.

# اللعبة والخاتم

في الحجرة المظلمة ترقد الأشياء صامتة معفرة- لا تتحرك إلا يوم الخبيز- والفرن جثة كبيرة راقدة محاطة بالهالات السوداء والرماد بالفتحة السفلية كثير، حفنات منه أمام فوهة الفرن.. رائحة الخبيز ساكنة لا تبرح الحجرة.

في الحجرة المظلمة تتحرك قدمان صغيرتان مطليتان بالمانكير الأحمر الساذج.

القدمان نظيفتان رغم أنهما حافيتان.

خافت سعاد أن يتأخر محمد. راحت تسلى نفسها بأغنية حفظتها من أمها"

"هنا مقص.. وهنا مقص

وعادت تردد المقطع مرات..

محمد في الحجرة الأخرى- على نفس السطح- يقنع أمه بأنها لا يجب أن تترك الحجرة وأن تظل أمام قدرة الفول تراقبها. أمه أخرجت كل الملابس من صندوق كبير- بجوار السرير الحديدي-

وأخذت تعيدها إلى الصندوق قطعة قطعة مرتبة. أسعده ألا تخرج إلى السطح هذه اللحظة.

أمه وأبوه لا يحبان سعاد.

أبو سعاد إسكافي عجوز يجلس أمام صندوقه وأحذيته القديمة على ناصية الشارع.

أبو محمد، لا يلقى على الإسكافي السلام. ويندهش كثيراً لأن سعاد تأتي دائماً لتلعب مع محمد.

ذات مرة ضربها أبوه على وجهها.

هنا مقص.. وهنا مقص

ترك أمه. اتجه إلى باب حجرة الفرن. امتدت يده. اصطدم كفه الصغير بلوح خشبي كبير. اللوح واحد من ألواح عديدة صنع منها باب حجرة الفرن- على الباب رسوم كثيرة لأطفال صغار، وكلمة الله- مكتوبة بالطباشير- كبيرة، كبيرة ومتعرجة، وتحتها مكتوب "محمد يحب سعاد" وكلمة يحب غير واضحة لأن محمد حاول مسحها مرة خوفاً من أبيه. وهو لا يعرف على وجه التحديد لماذا ينهرون سعاد. قالت أمه..

أنت أكبر منها وعيب أن تلعب معها.

"هنا عرايس

سكتت، اتسع فمها عن آخره، ظهرت أسنانها الصغيرة البيضاء كلها، أغلق محمد الباب همس: - هل رأتك أمي؟

قالت:

لا..

الحياة داخل حجرة الفرن المظلمة ممتعة. بعيدا عن عصى المدرسين وأمه عادة لا تدخل هذه الحجرة إلا أيام الخبيز- حين تخبز لصاحبه البيت.

الحجرة معتمة، ساكنة، وبالطابق الرابع، أمامها سطح متسع في أركانه يرقد الحطب وألواح خشب قديمة، وأحذية مأكلة لكنها كثيرة.

تفرح سعاد عندما تفرش الشمس الصفراء الحانية الحارات الضيقة، ذلك لأنه في هذه اللحظة تنتهي فترة الظهيرة بالمدرسة الابتدائية- التي تبعد ثلاثة شوارع عن حارتهم- ويعود محمد بعدما يكون أبوها الإسكافي العجوز قد تناول غداءه من مدة طويلة وشرب كوب شايه وتكون اشترت له ثلاث سجائر، ولذلك فإنها عندما تفر من الدكان- ويعلم هو بذلك- تتجه إلى هذا المنزل ذي الأربعة طوابق حيث على سطحه حجرة فرن.. معتمة، ساكنة وبعيدة.

في الحجرة قالت البنت سعاد:

- معي ثلاث فراولات.

قال الولد محمد:

- نأكلها بعد أن نلعب.

فرحت سعاد، فرح هو أيضاً، دائماً تأتي ليلعبا، في الأيام الأولى كانت تلعب معه فوق السطح، وكان أبوه لما يأتي من عمله بالمصنع يجلس راكنا ظهره إلى الباب ويراها. كان لا يضربها لا تنسى هذه الأيام، كانت الضحكات تجلجل فوق السطح، ويلعبان معا لعبة "نط الحبل

الطفلة الصغيرة سعاد معلقة في الهواء، عندما يتم الحبل لفة كاملة حولها تلمس أطرافها بلاط السطح حتى تضغط عليه وترتفع مرة أخرى. محمد سريع- أيضاً- في نط الحبل، لكن اليوم نط الحبل ممنوع فوق السطح.

قالت سعاد:

- هيا نلعب.

دارا في حجرة الفرن، احتضن يديها، أخذ يحركها يمينا وشمالا.

في أول عهدها بالحجرة كانت تخاف صاحبة البيت، أخبرته بأن صاحبة البيت عجوز لم تلد مرة واحدة، قال لها نعم، لكنها لن تغضب من اللعب بحجرة الفرن..

قالت سعاد وهي تنط الحبل في كلمات متقطعة.

زوجها من أكبر باعة الخواتم- قفزت- والأقراط- قفزت- والأساور.

قال محمد:

- سأشتري لك خاتماً.

وقفت، سقط الحبل من يديها، جرت إليه..

- صحيح يا محمد!

في حجرة الفرن قال لها عن الخاتم.

رأى "الفرولة" في جيب جلبابها المخطط بخطوط كثيرة ومتشابكة.. كانت الفراولات كلها خضراء. سألته:

ماذا نلعب؟

قال الولد محمد:

- العريس والعروسة..

قفزت في أرجاء الحجرة، هتفت وقدماها تلامسان الأرض في رشاقة وخفة.

نعم نعم.

ثم راحت تغني.

"وحصاني في الخزانة"

صرخت، تألمت لما دخلت في قدمها قطعة من الزجاج المكسور فرت من عينيها دمعة، تمتم محمد مشيرا إلى حجرة أمه..

- لا تبكي..

جلست على الأرض، جلس أمامها على الأرض، مدت قدمها إليه صغيرة بيضاء، أظافر القدم مطلية بالمانكير الأحمر، يده ساخنة ترتعش، مد يده، وأخرج قطعة الزجاج اللامعة بسهولة قاما، احتضن وجهها الأبيض النحيف بين يديه، قال..

- سأشتري لك خاتماً.

ثم أردف

- نلعب الآن العريس والعروسة.

أمسكت بفيونكة حمراء في نهاية ضفيرة شعرها، فكرت برهة، قالت:

- نلعب.

تسلق الولد الفرن الطيني الكبير معتمدا على العود الحديدي الرفيع، فوق السطح الفرن بقايا من عيدان الحطب المكسرة وبضعة أقراص من "الجلة" الناشفة. بجوار الجدار عدة أجولة قديمة يفترشونها عند الخبيز، جذب واحداً، رماه، تلقفته سعاد معفرة نفسها بردة الخبيز المتناثرة من الجوال، قفز محمد إلى الأرض واقفا أمام سعاد مباشرة، فرشا الجوال. جلس هنيهة يسترد أنفاسه، بدت الأشياء صامتة، والغروب يواصل زحفه الثقيل فوق البيوت، ألواح العجين الستة مركونة على الجدار، والمطارح في أحد الأركان، وغربال كبير معلق فوق مسمار صغير، الصمت يحتوي الأشياء خافت سعاد قالت:

- نلعب العريس والعروسة...

الطبول والدفوف والمزامير تعلو، تزحم الحارات بموسيقاها، يزاحم الأولاد، تزغرد النسوة، يذوب الرجال، كل الأباء والأبناء ينتظرون هذا اليوم. بعد هذه الليلة ستأكل البنت من عند زوجها

وسيشتري لها الملابس للعيد، يهبط العريس والعروسة من العربة، يصعدان أماكنها المزينة بالأنوار. ينفض المولد، قال الولد محمد:

- نلعب.

قالت البنت سعاد:

- اخلع الحذاء.. هكذا يفعل الكبار..

قال الولد وهو يخلع فردة الحذاء:

- أتعرفين، أنت أحلى من سوسن التي في كتاب القراءة.

رمى فردة الحذاء بعيداً.

على الجوال جلسا متباعدين، قال الولد:

- أنا أحبك، سأتزوجك وأشتري لك خاتما.

قالت البنت في أسف:

- أبوك لن يرضى، كيف ستشتريه؟

ركز على ركبته، تحمس قائلا:

- في كل يوم آخذ تعريفه صفراء، كل يوم سأحتفظ بالتعريفة الصفراء، عند أمي حصالة لا تستعملها.

قالت البنت سعاد:

- أسيكون لنا بيت مثل هذا؟

- نعم.. لكننا لن نبيع الأساور والأقراط.

قالت:

- وهل ستضربني دائماً مثلما يضرب أبوك أمك؟

أبوه ضرب أمه آخر مرة لأنها طالبته كثيراً بإيجار الحجرة رغم أن الشهر كان لم ينته بعد، زعق فيه محمد: أن صاحبة البيت هي التي تستحق الضرب.

نظر إلى عيني سعاد البنيتين كثيرا.. قال:

سأحتفظ كل يوم بالتعريفة ولن أضربك.

قالت له في فرح:

- نلعب.

كانا رأسين صغيرين بينهما فيونكة حمراء، متلاصقي الجبهة. والأعين تبرق. وأربع أقدام فيها عشرة أصابع مطلية بالمانكير الأحمر تمتد على الجوال بجوار الفرن.

تعلقت عيناها بالسقف ذي العروق الخشبية الممتدة من الجدار الشمالي إلى الجدار الجنوبي، وهناك عرق خشبي كبير يتقاطع معها من الجدار الشرقي إلى الجدار الغربي، من بين العروق الخشبية يتدلى الحطب والقش. قال الولد محمد:

- أنا أكره هذا السقف.

ثم قال:

- رأيت مرة بين هذه العروق الخشبية فأرا كبيرا.

خافت، أمسكته سعاد من كتفه بقوة، تلاصق جسداهما، أحس الولد بنشوة، قال:

- نلعب.

الطفلة الأصغر منه بعام فرحت، قالت:

أيوه.

تاهت نظراته، ترددت بين وجه الصغيرة والسقف وفوهة الفرن السوداء، قال:

- لما أنام فوق الكنبة الخشبية وأترك أخوتى الثلاثة نايمين على الأرض أرى أبي يحتضن أمي .. ويهمسان بأشياء لا أفهمها

صمتت الطفلة سعاد كثيراً.. نظرت إليه في خوف شديد، لكنها تذكرت اللعبه، ابتسمت، قالت:

- العروسة لما تنام تخلع كل شئ.

اعتدل محمد جالساً، قال:

- ما عدا الخاتم.

جلست هي الأخرى، فردت له أصابعها العشرة، سألته:

- وأين الخاتم؟

عض أصابعه، قال:

- سأشتري لك خاتما.

قالت البنت:

- متى؟

قال الولد:

- لما أكبر ولا أنتظر جنيهات أبي القليلة آخر الشهر.

قالت البنت:

- ألن تصبح عاملاً مثل أبيك؟

قال دون سبب..

- أبي لن ينام مع أمي اليوم. يعمل من وردية الساعة الحادية عشرة.

تقلب الولد، احتوته البنت بين ذراعيها، أحسا الأنفاس حارة، عصا المدرس تهوى عند تسميع المحفوظات، تقلبت البنت، الأب يزعق دائماً عند تناول العشاء، مر "الشاكوش بجوار أذن سعاد مباشرة ليصطدم بالحائط، قبلته البنت، صرخت أمها قائلة لأبيها، البنت ستموت، احتضن الولد البنت، بفردة حذاء يصلحها ضرب سعاد بشدة انقلب الصندوق الكبير، تناثرت المسامير.. قبل البنت، صرخ الأب هذه البنت لا تأتي هنا، دافعت أم محمد، طفلة يا أبو محمد، زعق لا...

قالت البنت سعاد وهي تتشبث به:

سأعطيك كل الفراولة....

عندما يهدأ الشارع وتنسحب الدفوف، وتطفأ الأنوار، يظن الجميع أن الهدوء لف العالم، غير أن لعبة العريس والعروسة تبدأ.

دهشت الطفلة الصغيرة سعاد عندما رأت فانلة محمد شديدة الاتساخ.

سألته:

- ترى هل سيأتي الفأر الكبير مرة أخرى؟

قالت البنت سعاد:

- قال لي أبوك لا تأتي هنا.

قبلها محمد. ربت على وجهها.

- أنا أحبك، كل يوم سأحتفظ لك بالتعريفة الصفراء وأشتري لك خاتما.

رمى فانلته المتسخة-جدا- بعيدا، رفعت فستانها لأعلى، ناما.

تمددت أرجلهما عن آخرها، قال الولد محمد:

لابد أن تأتي كل يوم.

- ثم ماذا!

تردد الولد، تلعثم، قال:

لا أعرف..

جاء من الخارج صوت الأم مناديا

يا محمد، يا ولد يا محمد..

الظلام يزحف على الأشياء يغطيها، كل شيء مخيف وأسود.

قالت سعاد:

انهض ولنكمل اللعبة غدا..

سمع أمه تناديه للمرة الثانية..

يا محمد، يا محمد..

فرت سعاد من تحته فجأة.

فتحت الأم الباب، نظرت إلى سعاد بعينين واسعتين شرستين، اقتربا

محمد وسعاد- منها- رجعت إلى الخلف قليلا، على عتبة حجرة الفرن وقفا، النسمات الرطبة عانقت الوجه والظلام ليس بالمفزع مثلما هو داخل الحجرة هوت يد الأم على صدغ الصغيرة بصرخة مكتومة جرت البنت متجهة إلى السلم، وقف الولد لحظة مواجها أمه، جرى فجأة، على درجات السلم وجد الثلاث فراولات مبعثرة، جمعها، احتضنها في كفة، أخذ يعدو في الشارع، يعدو، الأضواء الشديدة آلمته، اتجه على دكان صاحبة البيت، بالواجهة الزجاجية أقراط وأساور عديدة، حملق بشدة في خاتم مربع من القطيفة الحمراء، وما يزال محتضنا في كف يده ثلاث فراولات خضراء.

# العنـــب

لن نكف عن مشوارنا اليومي، سرقت المنديل المحلاوي الكبير.. وضعته في سيالة جلبابي وناديت على أختي الشقية دلال.. كانت قد سبقتني إلى السكة البرانية.

سارت جماعتنا الصغيرة على طريق طويل ترابي، وتحت شمس يوليو النارية كنا نجري وراء بعضنا.. وكنا نتنفس صهد النهار.. ونحن نعرف كم باق وكم فات من هذه السكة، فهذا هو الكوبري.. وهذه هي شجرة التوت.. وهذه هي المصلية.. سارت دلال أختي التي تصغرني مع ولد أكبر مني أسمه سعد.. وسرت أنا مع حسن وهو أكبرنا جميعا وعنده صندل بني.

السكة حتى جنينة العنب طويلة، ترابها ناعم، يعفر السيقان ويلبد في الشعر.. سكة تستغرق نصف نهار.. قال حسن وهو حزين:

- ثلاثة أيام ونرجع من غير العنب؟

قلت لأم بديع-أمي- ذات ليلة عن حبي للعنب.. قالت أن كل الفواكه لأهل البندر وأن الفلاح هو صاحب كل الخير.. مسحت

أمي سناج الكانون من وجهها ومددت رجليها. ركنت أنا إلى الجدار ولم أفهم لماذا لا نأكل الفواكه.

قال سعد وهو يفرد حقيبة قماش ممزقة لا لون لها:

- أمي ح تتجنن لو دورت عليها.

سعد له شعر طويل وأكرت ونسميه في الحارة "رأس العبد وله أسنان كبيرة مثل أسنان رجل.

ردت عليه دلال في سخرية: د

يعني أمك ح تجيب الخضار؟

عند السبيل توقف بعض الفلاحين النحاف، الذين لهم رقاب طويلة وعيون واسعة مثل عيون أبي.

كانت الحمير تقف في تراخ وكسل.. وكانت تنفخ في الأرض، الشجرة العالية قائمة على طرف غيط القطن، والمصلى مفروش بقش الأرز، وجزء من حصيرة متآكلة يقف عليها الإمام ساعة الصلاة. والسبيل به الزير الذي يملأه أولاد الحلال من الترعة المجاورة. انتظرت حتى فرغت المرأة النحيفة من شرب الماء، ثم أخذت منها الكوب الصفيح النظيف: أن السبيل هو محطتنا الرئيسية حتى نملأ بطوننا بالماء فالمشوار طويل وحكايات سعد عن الحجاز أصبحت مملة، ما أن وضعت الكوز على فمي حتى أخذ حسن يلح في طلب الماء.

يالله يا بديع.. هات يا بديع.

ثم خطف الكوز من على فمي، وكان الناس يحمدون الله كثيراً، ويلقون بالماء المتبقي في الترعة شربت دلال.. وشرب سعد واحتفظ حسن بالماء في فمه وما أن سرنا قليلا حتى أخذ "يبخ" الماء على وجه دلال التي سبته قائلة:

- يا بن الخبازة.

وقف حسن- أحمرت أذناه الكبيرتان- قال في غيظ:

شايف أختك.

ثلاثة أيام ولابد من حل.. هذا العنب اللذيذ.. الأصفر مثل عقود "الكارم" يفوت على عزبتنا في عربات اللوري، وعلى الحمير، وفوق رؤوس النسوة.. ونحن لا نأكله.. نحن نشتهيه هو حلو سواء له بذر أم عنب بناتي.. وأم بديع لا تشتريه مثل باقي النسوة، وأبي أيضاً لا يهوى العنب.

تحت السقيفة تربي أم بديع أربع بطات وديك شرس.. تحت السقيفة جلسنا ولم تكن معنا دلال.

عارفين لو دخلنا الجنينة نأكل عنب على كيفنا.

الواد فوزي دخل.

الغفير كان حيموته.

للعصافير جلبة فوق قمم النخيل.

مضربوش.

- تمد أيدك تلاقي العنب.

- التجار بيمشوا ورا حمير العنب زي حراس الرمة.

في الجنينة عنب يتدلى في انتظار أن تقطفه أيدينا ونحن لا نملك الفلوس لندخل.. ونشتري.. ونقطف.. نحن نعرف العنب.. ولكن نريد أن يكون لنا جنينة.. نأكل منها كما نشاء.. وعندئذ سيحبه أبي.. وتجمعه أمي.

قال سعد وهو يهرش في شعره الأكرت.

- عارفين قمر الدين. بيعملوه من العنب.

هو ولد فصيح.. وأبوه حاج.. وعندهم جاموسة وجدي بني مسه الجنون.. يقفز كعفريت، ولابد أن سعد أكل قمر الدين أنا ودلال لا نعرف كثيراً عن قمر الدين ولكن ذلك أدهشنا وحمسنا كثيرا.. قال حسن:

- يا سلام لو نسرق غلق عنب.

لم نعد نحب المقابر.. ولا زيارة المقابر.. ولا اللعب فيها.. الناس في المقابر لهم وجوه كئيبة، ومصفرة وجلابيب لها رائحة عطنة.. أننا نريد العنب.

اقتربنا من بعضنا في حذر، أن سرقة العنب ليست سهلة، هناك: الخفير.. والتجار.. الوزان.. والكلاب.

تحت السقفية رائحة الدريس.. ورائحة التراب، والديك ينقر بلا توقف في صحن صاج قديم.

كنا قد فشلنا ثلاث مرات، في كل مرة نقف على باب الجنينة

تسبقنا عيون إلى الداخل، لعاب حسن يسيل لما يقف ويرى كثافة الشجر الأخضر القائم، يقترب الخفير ذو الشارب الأسود والعصفور الأخضر الموشوم على صدغه، يهز عصاه الطويلة في وجوهنا.. يزغر إلينا.

- امشي يا حرامي يا بن الحرامي.

لا أزعل حين يقول عني حرامي فنحن أيام الذرة نسرق "الكيزان" ونعمل راكية نار كبيرة بجوار دارنا، ويأخذ كل عيل نصيبه، أما الولد سعد فهو حريف صيد سمك من قلب الغيطان، يأخذنا إلى غيط عم فرج الأشول أيام الأرز ونغوص في الطين وراء القراميط، وعم فرج.. يجري وراءنا بالفأس.. ولكننا لا نترك السمك أبداً.

النخلة عالية.. عالية.. والسقيفة بجانبها كعقلة أصبع.

قال حسن في حماسة:

- أنا احدف الخفير بالطوب وانتوا تدخلوا.

قال سعد:

- احنا نديله صاغ وهو يدخلنا.

لو ضربنا الخفير لأمسك بنا وذهب بنا إلى الحكومة، ولأخذت الحكومة تؤدبنا في المراكز وتضربنا، وتأخذ الحكومة نقودا من أهالينا حتى تؤدبهم أيضاً، أما إذا أعطيناه "صاغ" يكون علينا – أحسن- أن نضع فوقه "صاغ" آخر ونشتري عنبا فرطا من أي امرأة فلاحة راجعة من الجنينة.

أريد أن أدخل الجنينة.. وأخرج وفي يدي عناقيد العنب بلونها الكهرماني الأصفر. عناقيد كبيرة وحلوة، ثم نوزعها على بعضنا، وآخذ عنقودا كبيراً وأجري بقدمي الحافية وأقفز الترع.. وأنادي على أمي:

خذي يا أم بديع.. أملي بنطك، علشان تخلفي لنا ولد عينه حلوة.

للشمس سخافتها أيضاً حين لا تحبنا نحن الصغار، وتحول التراب إلى نار يلسعنا في أرجلنا الحافية، وحين تضربنا في أدمغتنا ونضطر للنزول إلى الترعة لنرطب أدمغتنا ونغسل شعرنا.

كنت أسير مع سعد وجلبابه الأزرق له طوق واسع.. وصدره نحيف "معضم" وأخذ يحدثني عن كيف أنه تناول إفطاره من اللبن.. وأمس تعشى لبنا- رغم أن أم بديع- أمي- وأعرفها جيداً فهي ليست كاذبة ولا حقودة- كانت تحكي لأبي عن جاموسة أم سعد، وكيف أن أبا سعد كل يوم والثاني عند حكيم الوحدة ليعالج الجاموسة التي لم تعد سوى حماراً.

الترعة أخت الطريق لا تفارقه. هي منخفضة عنه، ومياهها جارية، وتلتمع فيها المياه بألف عين من عيون الشمس. أخذت دلال تتقافز كعنزة وكانت تصرخ بلا غناء.

" أبوح يا أبوح<br>كلب العرب مدبوح<br>وأمه وراه بتنوح"

تحت السقفية أخبرتهم أن العنب يكون لنا لو دخلنا الجنينة وأسقطناها في أيدينا.. ولما نلم ثمارها دون خوف، وتفتر كل الأفواه مبتسمة فرحة.. فتبين الأسنان الصفراء الفقيرة، وحين نلمح في العيون فرحة العنب يكون علينا ألا نزن لأحد، يكون علينا أن نغني بصوت واحد.

تسللت الشمس من بين الغيطان الناشفة، والسقيفة يشع منها صهد "بؤونة" وظلالنا تحتنا منكمشة وحرارة النهار تجعل كل حي يختبئ في جحره.

لازم ندخل الجنينة.

فشلنا في صنع فتحة بالسور. هذا السور اللعين كثيف الأشجار. وهناك سلك به مسامير لا يخطئه عم محمد الكفيف، كما أنهم يقولون أن للخفير عيونا مثل عيون الصقر. وصاحب الجنينة لم يؤجر هذا الخفير. ولكن الذي عين الخفير هو التاجر- وكان واسطة الخفير هو عم راشد البقال. والفرق بين صاحب الجنينة والتاجر كما يقول حسن- أن صاحب الجنينة سمين جداً وأصلع وعنده سيارة- أما التاجر فهو- كما يقول حسن- فلاح جلف ربنا رزقه بمبلغ سرقة أيام القطن من حساب الأنفار وأنه كان ينزل سوق الثلاثاء مرة بالأوز.. ومرة بالماعز. ثم بالغنم.. وأخيراً بالجاموس.

قال سعد وعيناه مندهشتان:

- الحاج إسماعيل راجل ابن كلب، كرشه مليان عنب.

جاءت أمي وفي يدها المقشة البلح، نظرت إلينا متسائلة:

- بتعملوا إيه يا عيال؟

كانت أمي تنظف صدرها من تراب الفرن.. قالت:

فز من جنب البط انت وهو.

قلت لها في ود:

- سعد بيحكي لنا عن الحجاز.

لم ترد أمي.. هي تفرح من سيرة النبي.. وتفرح عندما أذهب وقت الظهيرة وأغوص في الترعة.. ظنا منها أني بالزاوية أصلي، حملت أمي الدلو الصدئ وسارت.

أبو سعد زار الحجاز حتى يقول الناس له يا حج.. ولم يأت لسعد بجلباب من أرض النبي.

اقتربنا من بعضنا.. كنا فرحين.. وجلين، نظر كل منا في عين الآخر يستكشف صدقه.. اتفقنا على موعدنا غدا، وكان أن سرقت المنديل المحلاوي.

على البعد عزبة.. بيوتها واطئة.. ونرى المئذنة البعيدة في كفر الجنينة.. وهناك الجنينة قبل الكفر.

سمعت دلال تقول لحسن:

- أبقى أديني عنب عشان ألعب معاك الاستغماية.

صرخ حسن ضاحكاً:

ها.. خدي من أخوك.

سقطت قطرة عرق في عيني، مسحت وجهي بكم جلبابي، وحسن يلم الطوب المكسر من الطريق ويضعه في جيبه. هو دائماً يجمعه، يقذف به من يعترضه. شيخ الكتاب، أو حتى أبيه الذي لا يعتقه من علقة كل يوم بالخيزرانة الكافرة.

في جيب بيجامته طوب كثير، وصندله البني أصبح في لون قدمه وبيجامته في اتساخ واحد.

رهط من الأغنام يقبل، يثير غبار يعلو حتى الشجر، للغنم رائحة، ولمشيتها طريقة مهرولة.. ولحوافرها نقر لطيف وتمأمئ بين حين وآخر، والراعي وسط القطيع مشغول بغزل طاقية من الصوف رغم أنه حافي القدمين، لم يكن يتألم من النار الطالعة والحمار الأسود له لون أجرب يشد رجله شدا.

دخل سعد بين القطيع وأخذ ينط. زعقت فيه دلال بغيظ وخوف:

- يا رب الكبش ينطحك.

وكانت دلال خائفة.. سمعنا المأمأة ثم "فرقلة" تفرقع على ظهر سعد، وأخذت كلاب ثلاثة في حجم الخراف تنبح وتجري نحو سعد، قفزنا نحن الثلاثة "التركيب" وأصبحنا في قلب الغيط كان سعد يشد جديا من ذيله.. غير أن الراعي اكتفى بضربه بالفرقلة، والكلاب لم تعض سعد.

كانت الأحاديث خافتة ومنهكة بين النسوة التي يحملن أقفاص

العنب، وصدورهن، ترتفع وتنزل بانتظام ولهن صدور كبيرة مثل أم حسن. ولسوف يبعن هذا العنب بقروش زائدة عن ثمنه في الجنينة، ولن يشتري أبي من-شلبية- أبي لا يعرف فوائد العنب، ويقول أن البطيخ يرطب القلب.

وأنا.. وأنا أحب العنب أكثر من حبي لأمي، وأكثر من اللعب عند "المربط" بل حتى أكثر من دلال.

يالله.. دق قلبي بعنف.. واحمرت أذناي.. الخفير على الباب.. والجنينة خلفه، لكنها لا يحجبها.. نحن نرها جيدا، للخفير عيون شرسة.. ويملك عصا طويلة كافرة أيضاً. خافت دلال.. تراجعت للوراء.. الزحام على البوابة، لابد أن نهرب من بين الفلاحين، سعد يشب على أطراف أصابعه. سألنا:

- نجري.

بلع حسن ريقه، لا مفر، نحن الصغار نرتجف، ولكننا نحب العنب.. ونحن الصغار قررنا الدخول.

قال حسن:

أقول واحد.. اثنين.. ثلاثة.. نجري كلنا.

دفعت دلال أمامي حتى لا تخاف ولا تتردد. ضغطت على شفتي، للعنب مذاق حلو، وهو في الفم سكر، وسيكون في حجرنا كنز ثمين.

- واحد.. اثنين.

طرنا من فوق الأرض، تخبطت بالفلاحين، كنت كالممسوس،

خائفا.. فرحا.. الجنينة واسعة سوف نغوص فيها وتبتلعنا ولن يأتي بنا الذباب الأزرق.

حين انفلتنا داخل الجنينة لمعت الشمس كالمرايا، وكان التراب ناعما.. وساخنا.. جريت فرحا.. وتقافزت كصفور صغير يتعلم الطيران. مدقات الجنينة تراب ناعم.. حرير.. اللون الأخضر الزاهي يغمر المكان، وفجأة.. كالمصابيح الدقيقة برق العنب، كالنجوم الخضراء تلألأ.

حين قفزت لأعلى لم تكن السماء زرقاء. كانت صافية متوهجة بضوء الشمس.

الفلاحون بجانب الحمير، المرأة العجوز تأتي بنصيبها.. لم أر العيال، كل اندفع في اتجاه.. هذه الجنينة لنا.. سوف نأكل ما نريد.. وآخذ عنبا لأم بديع.. ستحبني أمي كما تحب الجلوس أمام الفرن. وسيفرح أبي كثيراً لأن ابنه جدع، ولن يسيل لعابي حين تمر أفواج الحمير مخترقة عزبتنا في طريقها للمدينة.

- أمسكوا ولاد الكلب.

فجأة رأيت الدنيا تلتمع في توهج.. ثم.. لم أعد أرى شيئاً. أصاب كل شيء لون باهت وأحسست بقلبي يفر مني.

- أمسك يا شيخ علي.

الشيخ علي: وزان الجنينة.. رأيته مثل الكلب المسعور يجري تجاهي، فمه الواسع مفتوحا.. وعيناه كانتا مسمرتين فوقي. ضاقت الجنينة وهربت روحي.

شهقت. أخذت أطير من فوق الأرض. حتى سقطت بين يدي فلاحين أحدهما عجوز والآخر له وجه صارم وكان بسرواله فقط.

- يا حرامية

كنت مفزوعاً، ورحت أحاول التخلص منهما. غير أنهما حملاني كجرو صغير من طوق جلبابي وسارا بي مشواراً طويلاً ووجدت نفسي أمام الخفير وكانت دلال تبكي مثل طفلة.. وحسن كان يرتعش.

- أختي يا ولاد الكلب.

كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينها، والمخاط ينزلق من أنفها الدقيق.

يا ولاد الكلب.. أختي.

صفعني الخفير على وجهي، وراح بيده الأخرى يضرب أختي فوق مؤخرتها.. قالت واحدة من النساء:

- كفاية.. كفاية يا شيخ علي.

ابتسم الشيخ علي.. تركها من تحت إبطه.. سقطت على الأرض.. زحفت قليلاً على يديها النحيفتين، تمخط الشيخ علي. ثم اختار حسن، حمله الشيخ على بعد جهد، وتطوع فلاح أصلع له أنف كبير وقال وهو يمسك به:

- عشان يتأدبوا وما يطلعوش حرامية.

- لازم يتربوا.

وصرخ حسن، كانت العصا بحق غليظة، صرخ مرة أخرى لوح بقدمه في الهواء فطار صندله البني.

كانت الشمس حامية وقاسية، وكنا في وسعاية بالجنينة لا تظللها أشجار. جرى حسن، والتقط صندله من فوق الأر، وجرى قليلا وانتظر دوري.. ثم حملني الشيخ علي، رائحة عرقه تنفذ من تحت الإبط كريهة وحارة، وكان صدره يعلو ويهبط، وكنت بصدغي أتحسس حافظته تحت الهدوم.

وسعد يصرخ يستغيث بأبيه. تقدم الخفير مني وقال وهو يزغرلي:

مش عايز تحرم؟

لم أرد.. كنت أريد أسبه وأجري.. كنت أريد-أيضاً أن أضربه في صدره بلكمة قوية. كل الفلاحين بأقدام حافية غليظة، والنسوة التففن حولنا وكن يضحكن بصوت عال، وقالت واحدة لا أعرفها:

- مش ده الواد بديع؟

قالت بنت كبيرة وليست جميلة:

- يخيبك روح ساعد أبوك في الغيطان.

رد عليها الخفير:

- أنا ح خليهم يبطلوا اللعبة دي.

كأنما ينتظرنا من زمن بعيد، ويتربص بنا، كان فرحا وكأنما انتهى من أمر يقلقله. نادى بصوت خشن:

- هات العصاية يا حامد.

حامد: الذي يرعى أشجار العنب والذي يسقيها ويسمدها. جاء بالعصا، وكانت فرعا من شجرة ضخمة. انتابني الفزع حين رأيتها. أولاد الخنازير يضربوننا لأننا صغار، حين أكبر سأركله بقدمي، صرخ سعد:

- والنبي آخر مرة.

يا لك من حمار يا سعد.. كيف أنها آخر مرة.. أننا نحب العنب، وسنعود وسنعود مرات عديدة.. قلت في نفسي: يا جبان يا سعد، صرخت أختي دلال كالنساء عند المقابر، وضحكت النساء ورحن يحكين عن أن العنب يموت عند الصراخ والعويل. وفجأة انشقت الأرض عن الشيخ علي ورغم أنه الوزان فله عين فوقها نقطة. تقدم في حذر ثم حمل دلال تحت ذراعه اليمنى، ذراعه طويلة وضخمة وأختي كانت تحت أبطه مثل قطة، ترفس في عصبية وتولول، ولكن نزلت العصا الغليظة لتبكيها حقا.. انزاح جلبابها وانحسر عن نصفها الأسفل، بأن سروالها المتسخ الممزق، وكان بي نارا تأكلني.. أحمر وجهي.. زعقت فيهم.

ضربة مثل كي النار.. لو أخذت عصا ثانية لمت.. ثم: واحدة وثانية..وثالثة على مؤخرتي، وفلاح أمسك برجلي لأني كنت لأني كنت أضرب بها الشيخ علي.. لم يتركني الخفير إلا بعد أن تعب.. سقطت من تحت الإبط مهرولا.. وأنا أسبهم جميعا.. وجريت إلى

دلال.. كانت بالخارج، وحسن يحمل صندله بين يديه، والحصى في جيبه لم يستعمله بعد.

جلست على الأرض، ثم جاء سعد يهرش في شعره الأكرت ويبتسم وهو يمسح دموعه بكمه.. ولم نعد نبكي.

جلسنا تحت تحت شجرة كبيرة- لا أعرف اسمها- وقلنا أنهم أولاد كلب، ويريدون أن يأكلوا الجنينة ويحرموننا من العنب.. ثم سرنا قليلاً، كانت الشمس تميل.. وحرارتها هادئة.. والنسمات كانت لطيفة، وعيوننا لما تزل محمرة من البكاء.

النسوة- يحملن العنب.. والحمير تحمل العنب.. العنب شهي ولذيذ.. له طعم السحر، من يعرفه لابد أن يأخذه، ويحبه أكثر من دلال.. تلفت إلى دلال.. كان شعرها منكوشا.. وعيناها تبرقان.. قلت لها:

- بكرة ندخل الجنينة:

أومأت برأسها: نعم.

قال حسن:

نعمل فتحة بالسور.

أيوه.. لازم نعمل فتحة بالسور.

ضحكت دلال.. ثم أخذت تتقافز مثل عنزة وأخذت تسبقنا على الطريق الترابي.

ونحن نعرف السكة.. ولن نكف عن مشوارنا اليومي.

كان التراب دافئاً.. وحانيا.. والترعة أخت الطريق لا تفارقه.

# المــوت والعصافير

كنت أعيش مع أبي في حجرة فوق السطح، كنا وحيدين أرعاه ويرعاني، نأكل معا وننام معاً، وحين نمدد كنت أقرأ له كتب السيرة وعنترة والأغاني، كان يحب الكتب وكنت أحب الكتابة. في صباح الصيف نخرج على السطح أمام الحجرة بعد الفجر مباشرة نظل نتحدث ونشرب الشاي حتى نستحم بالشمس الهادئة التي كنت أتأملها في فرح وكان أبي الكفيف يحسها بفرح أيضاً.

كان يضع يده على رأسي ويحدثني عن زمن قديم كان الناس يأكلون فيه اللحم والسمن والبيض بلا حساب، وكان يحدثني عن جنيات النهر وأنواع الأشجار ويعلمني القراءة والهجاء، وعندما أنام بجواره كنت أتمنى أن يأخذني في حضنه كطفل، وأدفس رأسي في صدره واستمع لأنفاسه، كان يربت على ظهري لو قلت آه.. وعندما أعود من عملي أجده هو العجوز قد أعد الطعام وفرش المنضدة بورق الجرائد.

كنا نعيش معاً في حجرة واحدة فوق السطح، سقفها بعروق

خشب ضخمة، ما بين هذه العروق حطت العصافير وعششت وباضت وفقست، كلما هممت بطردها يتشاجر معي أبي، وعرفت بعد ذلك أن العصافير تؤنس وحدته، ولما كنت أدخل أحيانا عليه فجأة أراه رافعا رأسه متصنتا لصوت العصافير في سعادة.

ولما مات في مساء يوم كريه قاس وبارد، بكيته بشدة، خبطت الحائط، بكيت عليه وعلى نفسي. لم أر شيئاً سوى وجهه الأسمر وشعره الأبيض، كان نائماً في هدوء واستسلام ويكاد أن يبتسم. أضأت المصباح وسهرت بجواره طول الليل في الحجرة التي فوق السطح.

كنت تأخذني وتسافر بي بعيداً، وتلف بي الدنيا فأرى الإسكندرية، والهند والجان وأشجار الكافور، وكنت تحفظني الشهور القبطية والعربية ومواعيد الزرع والحصد والمواويل القديمة، وكل عيد تشتري لي قميصا وبنطلوناً وحذاء يلمع.

كنت أحدثك عن الشوارع والناس وعن نفسي وكنت لا أحكي لك ما يضايقك، ولم نختلف سوى في حكاية العصافير هذه وحكاية الكلاب فأبي يكره الكلاب ولا يخاف منها وأنا أحب الكلاب وأخافها.

كنت أجلس بجواره هو العجوز فيقول لي وهو يبتسم:

- أحب العصافير والناس.. كن طيبا وحنونا.

فأبكى على صدره.

- وماذا تريد يا أبي؟

لم يطلب مني أنا الموظف الصغير أن أشتري له الجلابيب ولا أكل معين، كان لا يطلب ولا يريد شيئاً.. ويهمس:

- صحتك.

في أيام الشتاء كنا نجلس على السرير ويسألني هو الكفيف:

ما أخبار المطر؟

أقول له:

تمطر الآن بشدة.

ومن خلال الزجاج أحكى له عن الشارع والطين والطيور المبتلة والدواجن التي ترتعش فوق الأسطح، وطلاء الجير الذي يتساقط من على واجهات الدور، وعن الرجال وهم يغوصون في الوحل لنشل الماء، ثم أنهض من جوار النافذة الزجاجية وأعطى لوابور الجاز نفسا لتقوى ناره ونستخلص دفئاً بلا دخان. وكانت حجرتنا الوحيدة فوق السطح تدفأ بسرعة فنجلس وأقرأ له في تذكرة داود وطهارة القلوب والجبرتي، ويظل هو مبتسما، ثم يمدد رجليه عن آخرهما. لم يكن يخلع الجورب أبداً حتى أثناء النوم.

ولما مات في مساء ليل كريه، جلست بجواره، لقد مت معك يا أبي.. وبكيت، ظللت أفكر في الصبح القادم الذي لن نخرج فيه معا للسطح، ماذا سأفعل؟ أأخرج تصريح الدفن أولاً؟ أم أذهب إلى عماتي وأعمامي الذين لا أعرف سوى أسمائهم؟ أم أخرج على السطح وأبكي فيلتف حولي الناس؟؟

وحين بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود نهضت، ففككت اللثام من حول ذقنه ورأسه، فبدا وجهه أكثر نضارة، ولم تكف الدموع، مشت يدي على شعر رأسه الناعم، وبين الحين والآخر أخذت أقبل جبينه البارد. وبدأ النهار يدخل من النافذة الزجاجية، وقفز عصفور في زقزقة وسعادة، فانتبهت للصور الملصقة على حائط الحجرة: حصان بني يطير في الهواء، طفلة سمراء نوبية تبتسم.. منظر لطبيعة صامتة، تأملت وجه أبي، فكرت مرة ثانية ماذا سأفعل؟

الكفن.. قفز إلى ذهني فجأة الكفن، كيف نسيت أهم الأشياء؟ طارت العصافير.. حلقت وزقزقت، فقمت وفتحت لها النافذة، كنت أريد أن أوقظ أبي وأعطيه الشاي الساخن وأشغل له سيجارة، دخل الهواء وطارت العصافير، كان الهواء نقياً وبارداً، فلبست معطفي وشددته إلي، وعدلت نظارتي على عيني، وتمتمت مرة أخرى:

الكفن.

ممدد في هدوء.. هدوء.. تمنت لو نمت في حضنه، ودسست رأسي في صدره ليحكي لي عن جدتي وأمي وأناس لم أعرفهم، ويحكي لي عن فتح مصر وابن طولون، وسكك لم أعرفها.

ذات ليلة صيفية جلست بجواره على السرير.. وقلت فرحا:

أتعرف يا أبي.. سأتزوج بنتا بيضاء نحيفة.. ثم تنجب لي بنتا جميلة سمراء اللون مثلي، وتجئ إليك ابنتي وتقول ازيك يا جدو..

ازيك يا جدو.. وتنط على حجرك وتمسك في رقبتك وتلاعبها.. وتقبلك.. وتخدمك.

فدمعت عيناه التي تحملق في البعيد وقال:

- يا ليت.

وبكى.

ثم قال:

- أريد أن تبكي على ابنتك وتمشي وراء نعشي، وتتذكرني.

ثم قال:

- أتعرف يا ولدي.. اعطف علي بكفن طيب.

الكفن!!

والصبح يقتحمنا، وأبي ممدد في هدوء.

لا أنا ولا أبي نملك شيئاً، ها نحن بلا شيء سوى الحكايات والكتب والعصافير والحجرة التي فوق السطح. لمن سأذهب، ولمن أمدي يدي؟ سآخذ أجازة عارضة اليوم، ثم أذهب لأشتري الكفن، كيف؟؟ تحسست معطفي، فتحت الباب على الفور ونزلت أعدو على درجات السلم.

بعد أن تركت الشارع ترددت هل أغلقت الحجرة ورائي أم لا؟ ولكن لن أرجع الآن، وجريت.. جريت إلى بائع الروبابيكيا.. وقفت ألهث أمامه، دكان صغير به ملابس قديمة وتلفزيونات وفيديو وعطور وأحذية، يبيع القديم والجديد ويشتري ويرهن كنت ألهث، خلعت معطفي وساعتي.. ساومني كثيراً.

وكان يشرب الشيشة ويمضغ اللادن ويستمع لمطرب سوقي في مسجل ضخم بسماعات عديدة، واشترى المعطف والساعة.

وحين دخلت عند تاجر الأقمشة طلبت أحسن قماش كفن، وأخذته وجريت، وقاولني المغسل، وموظف الصحة أخذ منه سيجارة، وكان ثمن المعطف والساعة قد نفذ.

ورجعت جريا مشغولا على أبي، الذي نسيت هل أغلقت عليه الباب أم لا؟ صعدت على درجات السلم في فزع، وفي الدور الثالث كان السطح، ووجدت الباب مفتوحا.. يالله.. ودخلت فإذا أبي ممدد في هدوء، والطيور تملأ الحجرة. دجاج ينقر الأرض ويرف بأجنحته، وديوك حمراء وبيضاء على الكراسي وديك تحت رجل أبي يصيح بصوت عال، وديوك رومي تكركر، والبط نزل تحت السرير يتبعه صغاره، وعصافير لونها أخضر وأصفر تتقافز في الأركان وتزقزق، تحط وترفرف فوق أبي، كل الطيور تتقافز، تضرب أجنحتها الهواء وتغني واحدة وأبي هادئ تماماً يكاد أن يبتسم.

جففت عرقي وأخرجت الطيور، وجلست على الكرسي، مات أبي ليلة أمس، نهضت إليه وخلعت الجورب عن رجليه، ثم بكيت بشدة، ولو كان لي جد أو جدة لوقفا بجواري الآن. ولكنني كنت وحدي في الحجرة التي فوق السطح.

عرف الجيران بموت أبي عندما جاء الرجل المغسل، وعندما وجدوا النعش، وشموا رائحة الشيح، فساعدتني بنت بيضاء اللون

طيبة القلب في إحضار الماء من الدور الأول، وكانت سيدة نحيفة سمراء تبكي بتشنج، والتف الجيران حولي يسألوني إن كنت أحتاج لشيء وعرضوا علي نقودا، لكنني شكرتهم جميعاً وشعرت بأن الجو حار وبأنني سأختنق أو أموت.

وقفت على الغسل ومعي جارنا المدرس نقرأ: "قل هو الله أحد وأخذوا في غسل أبي.. في هدوء ممدد، وجهه أكثر بياضاً عن ما أعرفه، يكاد أن يبتسم، ها أنت ذا خال من الأمراض والوهن.. بيني وبينك المسافات، واللقاء يوم اللقاء.. يقلبونه على جنبه الأيمن ثم الأيسر، يشده الرجل من ذراعه فلا يقاوم.. ها قد استراحت شقاوتك وكف تعبك ووقف نبض قلبك الذي نبض حياة طويلة بالحب لكل الأشياء، وتوقف لسانك عن حكاياتك البديعة.

أحضروا الكفن.. طلبك يا أبي.. لم أمد يدي لأحد.. بعت ما أملك حتى.. غطوا جسده كله.. أيه يا أبي.. ألن أراك بعد الآن.. المسافات بيني وبينك.. والذكريات والطفولة والشباب والشوارع والبحار وأشجار "البنسيانا" ثم على غفلة مني غطوا وجهه.. اختفى وجه أبي.. آه.. وسقطت على الأرض في هذه الحجرة التي فوق السطح.

عندما عدت من المقابر كنت متهالكاً.. لا أصدق أنني تركته وحده ولن أعود إليه أو يعود إلي.. اللقاء يوم اللقاء يا أبي.

الشمس ضايقت نظري، صعدت درجات السلم بإعياء وكنت أسمع من كل الشقق صوت القرآن عالياً.. وكنت متعباً.

ولما فتحت الباب لأدخل الحجرة وجدت البنت البيضاء في انتظاري، وأمامها صينية صفراء كبيرة ومدورة وعليها جبن وزيتون وطماطم وأرغفة، نظرت لوجهها الطيب وجلست، قالت لابد أن تأكل فأكلت واللقيمات تنزلق بصعوبة، صنعت لي شاياً على وابور السبرتو، ثم قمنا أنا وهي لنرتب الحجرة، أخذت هي تتأمل الصور التي على الحائط، ثم وأنا أمد يدي فيما بين الحائط والسرير وجدت صرة صغيرة من القماش، لم أكن قد رأيتها من قبل، جذبتها.. شممتها.. رائحة قديمة مختلطة برائحة أبي، فتحت الصرة الصغيرة أمامي على السرير، فوجدت ختم أبي، وحصان الشطرنج.. وإطار النظارة، وصورة لي مع أبي وكنت صغيراً.

وكانت العصافير تزقزق بشدة في هذه الحجرة التي فوق السطح.

# في الجنيـنة

في وقت الأصيل قامت "أم سيد" من على الحصيرة وقالت لابنتها "ثناء" يا ثناء افتحي الشباك وباب المندرة، ومسحت وجهها العرقان في ملاءة السرير المتسخة وخرجت وجلست على الدرجة الأولى من السلم يخبط فيها الطالع والنازل. دخل الحجرة الضوء ولم يبرحها الحر، وحط الذباب فوق السرير وعلى التلفزيون الذي في الركن فوق كرسي خشب عريض. خرج العيال من المندرة التي على يمين السلم، وخرجت "ثناء" أيضاً وأغلقت باب المندرة فهي تخاف دخول الفئران والحشرات لأن الأكل تحت السرير والهدوم على الكنبة.

"أم سيد" السمراء تتصبب عرقاً وتلعن أيام الصيف مثلما تلعن أيام الشتاء، وتلعن المندرة التي فيها تأكل وتغسل وتنام مع زوجها ومع العيال والتي بها سرير وكنبة وتلفزيون وكتب "سيد" تلعن في سرها وفي العلن وتخبط العيال على ظهورهم وتسأل ربها الصبر.

خرجت المرأة ذات الجلباب المشجر ورشت أمام الدار الماء الوسخ،

وخرجت ذات الجلباب الأسود ورشت الماء النظيف على الأرض وعلى العنزة المربوطة في حديد شباك "أم سيد

"أم سيد جسدها ممتلئ وروحها في أنفها. لا تكف عن السب وتكره الليل الطويل لشدة الحرارة وكثرة النفس. قالت "أم سيد للمرأة ذات الجلباب المشجر: كذا يوم يا امرأة نقول نروح الجنينة ولا نروح؟

فرحت ذات الجلباب المشجر بفكرة الجنينة وقالت أنها لا تمانع ولا شيء سوى أن تضع قدميها في حذائها البلاستيك. قالت أم سيد: يا بنت يا ثناء قومي املئي الزمزمية وهات الحصيرة حتى نروح الجنينة. واستغربت من نفسها، وقالت لماذا لا نروح الجنينة.

قفز العيال فرحا وعملت "ثناء" بهمة وبسرعة.

وحين سارت "أم سيد" تهز في نفسها المرهقة شد العيال ذيلها وتبعتها المرأة ذات الجلباب المشجر وكانت تمضغ اللادن والمرأة ذات الجلباب الأسود وتجر في يديها عيل نحيل وكن جميعاً فرحات بحكاية الجنينة.

في الجنينة قذفن بالحصى بعيداً وفرشن الحصيرة وجلسن بجوار أريكة حجرية تسكن فيها حرارة شمس النهار. خلعن الطرح عن رؤوسهن ومسحن العرق، قالت ذات الجلباب الأسود: ليتني جئت بالعنزة، قالت "أم سيد ربما يعود أبو سيد وأنا بره.

قالت المرأة ذات الجلباب المشجر أن زوجها في الشركة من وردية ثلاثة وكذا المرأة ذات الجلباب الأسود وأحسسن بفرح ما.

الشارع الطويل به ناس من كل شكل ولون، وعربات ودراجات وعيال وفي الجنينة لم تكن نسمة هواء ولكنها أرحم من خنقة البيت.

مددت البنت "ثناء" رجليها وركنت بظهرها على الأريكة زحلقت الإيشارب الخفيف وبان نصف شعرها الناعم. زحف الغروب بلون بنفسجي هادئ فخلعت "أم سيد عصبة رأسها وهرشت قليلاً في شعرها الأشيب ثم شربت من الزمزمية ماء ساخناً وكذا فعلت ذات الجلباب المشجر، وكان العيال يدورون حول حوض ناشف به أوراق قش.

تزحزحت "ثناء" للأمام وخلسة نامت على ظهرها وانحسر الجلباب عن ركبتيها ورأت السماء الواسعة، وتذكرت عبد الحليم حافظ وشادية في فيلم لحن الوفاء وهما يغنيان في جنينة غير هذه الجنينة واندهشت من أين تطلع موسيقى الأغاني، ورأت نفسها "شادية" ورأت نفسها "نورا" وفرحت بالسماء الواسعة التي أخذت تغمق.

كانت "أم سيد قد لمحت "ثناء" وهي تنام على ظهرها، ولكنها لم تبال، والعرق ما زال يتصبب، تحدثن عن الدور الضيقة إذ كل شيء ساخن وحار حتى حنفية المياه والباذنجان وصهد الحيان، وعن الأزواج تحدثن في تبرم وقالت ذات الجلباب الأسود: رحم الله أبي.. تصوري يا أختي زوجي يريد أن أخلع السواد، ثم أخذت ذات الجلباب المشجر تتكلم عن الرجال والأجرة وقرفهم.

ليس في الجنينة زهور ملونة ولا فسقية ماء ولا شجر، ليس غير سور حديد مدبب مكسر في بعض الأجزاء، غير أنهن تمددن على النجيل وأحسسن بطراوة الأرض الطينية. قالت "أم سيد" أن الشقق في تمثيليات التلفزيون يتوه الواحد فيها وكل شيء ملون وبرح.

كانت تقول ولا تنسى أن تتحدث عن العرق الذي يغمر الوسائد في الليل الطويل، ولعنت البق والناموس، وتمنت لو تخلع جلبابها وتجلس عريانة، فضحكن جميعاً، غير أنها بعد قليل استرخت تماماً وتوسدت ذراعها وغفلت.

قالت "ثناء" لنفسها: لقد نجحت في الإعدادية وسأدخل الثانوية ثم الجامعة فأعرف شاباً جميلاً له عربة، ومعه سأعرف البحر والشقق الواسعة، وأحست بنهديها في هذه اللحظة، وتقلبت ببطء نامت على بطنها وضغطت على نهديها في النجيل، وكان للنجيل رائحة. غير أن ضربة من أمها أفزعتها فاعتدلت ونظرت للسواد الليل.

قالت المرأة ذات الجلباب المشجر: أن الأسطى "زين" تقدم لابنتها وهو العائد من السعودية وعنده الملون والفيديو وسيعطيه أبوه مندرتين في دارهم العالية.. وأمه والنبي ست ولا كل الستات.

مرت لحظة هادئة عليهن، تمنت كل واحدة لو أنها نامت حتى الفجر في هذا المكان الواسع، وأخذن يضحكن مرة أخرى ويتحدثن

عن الرجال الغلابة أيضاً. ثم بلا مقدمات بكت ذات الجلباب الأسود وقالت: يا رب ألبس عليك السواد يا عبد الجواد يا زوجي.. الرجل يا أختي يريد أن أخلع السواد.

سرحت "ثناء" طويلاً وركنت رأسها الصغير على الأريكة الحجرية، قالت "أم سيد" في نفسها: البنت تنام على بطنها وصدرها قد كبر ولا تستحم في المندرة إلا وحدها.. من اليوم سأقطع رقبتها وسأجعل من عيني حارساً عليها. ونهرتها وقالت لها اعتدلي. وكان الشبان يروحون ويجيئون وبعض العربات تمرق بسرعة وتخلف التراب والغبار عليهن، وأعمدة الشارع تضيء مصابيحها بلون أصفر فاقع.

قامت "أم سيد" عندما سمعت فلاحة تنادي على التين الشوكي بكيزان العسل، مسحت وجهها بطرف الطرحة نادت على الفلاحة التي جلست وحطت الطشت الصغير، وأخذت في مساومتها حتى اشترت بعشرة قروش ونهضت الفلاحة وهي تدعو لهن بالصحة والعافية، ودست "أم سيد" منديل الفلوس في صدرها، ثم وزعت عليهن ما فيه النصيب، وابتلعن الكيزان، وكن مسرورات.

قالت ذات الجلباب الأسود لابد أن نأتي هنا كل يوم أنه أحسن من سجن البيوت، وقالت "أم سيد" أن هذا الصيف شديد وسيقتل الناس والطيور والحيوانات، وما أن فرغت من كلامها حتى رأت "سيد" قادماً يجري وكان يلبس البيجاما والشبشب، وقال وهو

يلهث أمي.. جاء أبي ومعه ضيوف ويسألك عن مكان الشاي. فامتعضت وقالت له: اجر اسبقني والشاي في خزنة الكنبة جنب علبة السكر.

انتفضت "ثناء" واقفة لأنها تذكرت أن الكنبة ليس فيها شاي، ولما نهضت "أم سيد ولبست الشبشب في قدميها وخطت سور الجنينة.. ابتسمت "ثناء" وجلست على الأريكة الحجرية البيضاء، وتنهدت ومددت رجليها ورجعت بجذعها للخلف ساندة على ذراعيها يواجه السماء، وكانت الأريكة لا تزال ساخنة.

# الحريــق

مرت الليالي طويلة، ومجهدة، السرير لا يتحرك من تحته، ولا هو يبرحه. وما عادت الشمس تقف على الشباك. أين الشمس يا جميلة؟ يسأل.. ما مرت أسراب الحمام ورائحة التمر حنة ودعت المكان.. كان يمد يده- التي لا تصل- للمكتبة ذات الخشب العتيق والكتب العتيقة والنادرة والملونة، يتحسس الأشياء في بعدها.. ويشمها ويضمها بعينين كليلتين، وهي الزوجة تجري وتسأل الأحباب والأصحاب.. تدق الباب.. تقول أغيثوا سيد.. يا جميلة أدخلي الأهلة من شباكي وهاتي السمك حتى أعطيه ألوانه الحمراء والصفراء، وتحت الشجرة يقف المسيرى وحده بعيدا تحت لون البنفسج منتظرا الغروب متكئا على عصاه في حالة انتظار ليحط في عتمة الليل بقلب دار سيد، والزوار يربطون الحمير خارج الدار في أوتادها، ويركنون دراجاتهم، وبعضهم يأتي في "كارتة" هكذا الرجل سيد له من الأصحاب العجائب من ذوى الأشكال الغريبة واللهجات المختلفة، حتى ظنت زوجته الجميلة أنه يستحضرهم من

كتبه، وهو نائم عرقان ومجهد يكز على أسنانه بين الحين والآخر ويقول عيني.. يا زوجي عيني.

ولما يحط الليل بهدوئه وثقله لا ينام.. يلتف في الغطاء ولا يكاد يبين وجهه النحيل في الضوء الكابي. ليال طويلة ومجهدة تحت رأسه الصحاب وفي مقابلة السرير توجد المكتبة العالية العالية، ها هي ذا الكتب تتنفس، ورائحة الورق يعرفها وتعرفه وتذهب إليه، قال لزوجه الفلاحة إنني لن أموت الآن، وزوجه الفلاحة لا تعرف القراءة ولا الكتابة، لكنها تحب كتب زوجها، تنفض عنها التراب وتلمع زجاج المكتبة الذي ترى من خلاله كتباً حمراء وسوداء وبيضاء، لم تتفرج سوى على صور ألف ليلة وليلة ذات ليلة طيبة متفجرة بالحب، وحين يصحو في الليل يطلب منها فنجان القهوة، ويشكو من ألم عينه، فاجأه ذات ليلة لم يعرف سره أحد، ولم تنفع معه القطرة البيضاء ولا الزرقاء، يشرب القهوة وينادي على زوجه جميلة ويهمس في عاطفة أن الكتب قيمة ونافعة. في المقاهي ينتظرونه وفي الأجران، آخر الليل يرجع وأول النهار يخرج، يصرخ المسيري في الحواري والقرى يا بن الشياطين. تربت عليه جميلة بحنان وتقول نعم.. الكتب نافعة وتهز رأسها نعم نعم. وتجري إلى المندرة الثانية لتحلب العنزة البيضاء، وتملأ المسقة للبط، وتذوب يدها في دفء بيض الدجاج وماذا يفيد النقاش والخناق مع الرجال؟ الغربال الكبير فوق المكتبة ولفات لورق قديم لا تعرفها ومفاتيح قديمة.

يئن على سريره فتهلع القلوب، وهو الذي لم يشكو ألما من قبل، همس لصاحبه عيني يا صاحبي. هذا الخريف ثقيل، قال صاحبه وانزوى يدمع والشجرة قائمة.

كانوا جالسين على الكنبة يرتدون الجلابيب والأحذية والبلغ ويحدقون فيه، كانوا جالسين وأجمعوا على أن الشيخ المسيرى سيأتي، وكان الشيخ الميسرى في هذه اللحظة تحت الشجرة متكئا على عصاه لا مفر مني.. أعرف أنني ذاهب إليه والحساب طويل وأنا في انتظارهم.

يعرف أنهم لا يعرفون، عيون متلصصة ويد غشيمة ولا روح، غير أنه لم يرفض، ماذا يستطيعه الميسرى؟ الشباك واسع يواجهه عند الحائط السرير والرجل، أمام الدار مساحة واسعة فيها شجرتي تمر حنة، واحدة تمر حنة كبيرة تظل الشباك، تملأه خضرة ورائحة زكية، كان يركن بظهره للجدار ويظل يحدق في الشفق الأرجواني والصبح الأبيض ثم ينهض على الكنبة الخشب تحت الشباك ويقفز كطفل ويشد زهر التمر حنة ويشمه ويضعه في أذنه وفي القلة، ولما مرض من ليال عديدة طلب عودا من التمر حنة وطلب من زوجه أن تضعه تحت رأسه، وضعته ثم سرقته لأن هذا فال سيء وظلت تبكي بين أبنائها الذين بكوا أيضاً.

كان يرقب الليل والشجرة والنهر. والليل ينسحب الآن، أمسك يد زوجه، يطفو اللون الأزرق ليصبغ كل الأشياء، رأى زهور التمر

حنه بلون قاتم والنهر قطعا من الثلج تدفع بعضها، الشجرة تكبر تكبر وتعلو تعلو، تجردت من كل أوراقها، تعب سيد من الأعداء والصحاب، مسحت زوجه على شعره الخشن بيد طيبة هذا الدماغ الناشف، تمتمت: يا رجلي الطيب، همس سيد: ثلج، ردد: الشباك.. الشباك يا جميلة، ها هي الحرباء بألوانها الزرقاء والخضراء والبيضاء تمشي على الشجرة غارزة أظفارها في قلب الشجرة، وقالت الشجرة آه.. فزع الرجل وانتفض، هم الزوار بالوقوف، الحجرة محبوسة بأنفاس الزوار، تآكلت كل الأوراق.

لم يكن الصبح جميلاً، كان الرجل ساخناً وعرقان ورعشة خفيفة تهز الجسد القوي، كان يقرأ ويزرع الشجر ويزور أصحابه بلهجاتهم الغريبة عن البلد، ويسافر ويعود، يقول لهم: حين تمر الخيول تثير الغبار، لا تقفلوا الشباك واتركوا النهر يدخل. ويروح في النوم.

في ليل لا نسمة هواء فيه دخل الميسرى الحجرة، برجله اليمنى دخل، غرز عصاه في قلب الحجرة الطري ووراءه الزوجة والعيال والأقارب والجيران، والنباح لا ينقطع، متشابك، يرتدي المسيرى جلبابا أزرق اللون وجبة بيضاء اللون، ويغطى رأسه بشال أبيض قال سيد ولم يسمعه أحد- ولا الكلمات خرجت من فمه- تحسسوا "المقروطة" تحت جلبابه. أطلقوا هم البخور، رائحة المسك واللبان الذكر، يا سيد.. قم يا سيد، رتقوا الأحجبة والأدعية في داير السرير.

تقلب سيد على الجنب الآخر ليواجه الحائط. قم يا سيد هذه ليلة الحشرات والهوام وثعابين الجحور. قم يا سيد.. ثم جلس الميسرى على الأرض وقال: هيه كلنا للأرض. من عينين واسعتين كان يتكلم، هات يا جميلة يا زوج سيد رطلا من اللبن أو رطلين شاربه كث وذقنه غزيرة الشعر، حط الذباب على جدار الحجرة ولبد، قال أتركونا.

في هدأة الليل تمدد عن آخره ونام على الأرض، سقف بعروق خشب وسرير حديد بأعمدة رفيعة سواد والرجل فوقه بأنفاس لاهثة. صورة زيتية لأسد وسيف، وتحف صغيرة ونادرة ومكتبة. ها أنت ذا يا سيد في حاجة لي. قارورة زجاجية زرقاء من خلالها كان سيد يشوف قواقع البحر وسحائب السماء والبلاد البعيدة، قارورة زجاجية رفيعة طويلة زرقاء فوق المكتبة. ولسانك الطويل يا سيد.. يا ساتر.. مسكين.. مريض.. مسكين وعليل.. نفخ بطنه وهو نائم لا قام ولا بص عليه لكنه نام وأخذ يخبط دماغه في السرير، حاول سيد النهوض إذ أقلقه شخير مصطنع وأنفاس كريهة.. عليه الآن أن ينهض.. ماذا تفعل يا مسيرى؟ سأشفي لو ركبت قطار الدلتا أو الطائرة وذهبت لجراح أو طبيب حاول هز السرير، والآخر يضرب السرير برأسه، هز السرير خاف الميسرى، هرول للشباك.. الليل شجرة سوداء وعصافير بدون زقزقة، تلفت إليه واقترب منه وضع ظهر يده على أنفه، ما زال النفس ساخنا، لا يقلقني سوى عيني يا

رجل. خير قال ثم أردف خير يا سيد لا تقلق زعق يا جميلة أين اللبن يا جميلة أين اللبن يا جميلة؟ فهرولت إليه السيدة من الخارج، بيدها إناء من الفخار، أخذه بيديه الغليظتين، حدق في صدرها ثم ربت على كتفها بيد خئون، وظل يشرب اللبن ويشرب، وبعض اللبن يسقط من جانبي فمه على جبته، ثم وضع الإناء خال تماما وتجشأ، وقال أن سهران الليلة، في الصبح سيشفي، علا صوت صرصور الليل، علا الصوت حتى كاد أن يخرق الأذن، نهض سيد قال أخرج يا مسيرى.. أعرف علاجي- تقدم المسيرى منه في غيظ، ما زال يتكلم لكنه ليس قويا، أعرف يا سيد لحظتي المناسبة، نحن الآن بعيدا عن الناس والمقاهي ثم قال في فحيح علاجك في يدي أنا، وزفر الليل أسرار الضغينة والخوف ولفح الصهد وجه المسيرى الذي جرى في خطوتين واسعتين للمكتبة، هي الحاجز والحد.. الأسوار واليقين.

خبط رأسه في المكتبة فشجت رأسه، ما كان يقصد غير أن حافة المكتبة كالسكين، وخشبها كالصلب، صرخ يا امرأة، فجاءت الزوجة قال البن.. البن يا امرأة، وضع قليلا منه على جبهته، وجاء الأعمام والأبناء والخالات سألوا ما الخبر؟ فأشار للمكتبة قائلا: هي الكتب، كان يجلس على المقهى ويلجمه لا يأخذ المسيرى حقاً ولا باطلا، يقفل صاحب المقهى المذياع والتلفزيون ويلتفون حول سيد والأدهى يقولون له يا شيخ سيد، فيعض المسيرى يده غيظا

وحنقا، ويلف البلد ليحكي للنساء عن البركات، وتفسير المنام، ويبلغ البيض المسلوق ويقرص النساء في أفخاذهن فيهرعن إليه بأرغفة الخبز وباللبن. هي الكتب.. قال، واتسعت عيناه، الكتب التي ذهبت ببصره وستقتله احرقوا الكتب حتى يشفى سيد، احرقوا هذه اللعينة بأكملها.. أن في الكتب شياطين، لم تصدق زوجه. وأبالسة وأشياء تعمى العيون، وعندما ترددوا زعق حالا.. حالا. تحرق الكتب.. بجانب هذه الشجرة تحرق.

أخذوا يحملون الكتب، أياديهم ثقيلة وخفيفة، يجرون ويهرولون بالكتب داخلين خارجين يتخبطون في بعضهم، كل هذه الكتب يا سيد، بكت زوجه التي اشترى في حياتها كل هذه الكتب كان سيد يفرح بها، ويجلس بجوار التمر حنة ويقرأ الشعر والقصص، تعطيه الشاي فيقول لها أطال الله عمرك يا جميلة، يخبطون في بعضهم يعرقون، وطارت الروايات والكتب سيف بن ذي يزن وعنترة والجبرتي، وفيروز شاه.

غاص به السرير، أحس بالموت يشده لأسفل، تمالك نفسه، أمسك بالوسادة متشبثا، ألف ليلة وليلة.. تاريخ القضاء. كتب ذات صور ملونة تطير في السماء وبواخر كبيرة في البحار، الصناعات الحديثة والهلال وابنة البخيل والأغاني.

رشوا الجاز فوق الكتب بعد أن وضعوها كوما تحت شجرة التمر حنة، غمرها الجاز وسواد الليل. ضحك المسيري وكان يزعق بفرح:

الفرج قادم، ثم أشعلت النار فأضاءت الشجرة واشتعلت الكتب واحترقت، هربت من الكتب الأغاني والسيوف والألوان البديعة، طارت الحروف وتحولت لرماد وحطت فوق الشجرة، الدم الأحمر يقطر على الوجوه ويغمره حتى أحس بالموت، الشجرة والنيران تأخذ بعيونهم تتراقص ظلالهم الهشة على أرض سوداء، يمتد لهب النار يدخل من الشباك. ها هو ذا صهد النار يلفح وجه سيد فيسند بيده ويقوم، يسند بيده، للنار لون يعرفه، ولشجرة التمر حنة مكان أدركه، بيني وبينك حياة يا مسيرى.. بيني وبينك موت. انخلع القلب حين أدرك أنها الكتب حين شم رائحة الكتب، ناهض أنالك، علت النار وأكلت أوراق الشجرة، نزل من على سريره، جرى للمكتبة، في كل الدنيا حروف ومطابع وصور، تحسس ظهر المكتبة، المفاتيح القديمة، زعق بكل ما يستطيع: يا جميلة. وشوشت النار أعالي الشجر فطارت العصافير وليس غير رائحة.

# البئــر

قالت هي النحيلة: أن الليل قادم بعد النهار وعلى أن أستعد له.. حتى لا يقتلني النهار القادم بعد الليل.

وكانت في الحجرة وحيدة. لم تنعكس صورتها على المرآة في الدولاب المقابل. البلاط أبيض وأسود وبارد. دست قدميها في الشبشب، وكانت ساهمة. هي بدون أمها كفرع بلا شجر.

تنظر في البئر وتقول للبئر احك لي عن أيامي القادمة ولا تذكرني بسنواتي الماضية، وتقول لشجرة التمر حنة أنني في شوق للحناء. جلست أمام مرآة الدولاب فرأت نفسها فبكت، لماذا يا رب أليس هناك غلبان يتزوجني أنا الغلبانة التي لا أملك سوى أربعة جلاليب وفستانين لونهما أزرق وشبشب وحذاء جلد وحذاء بلاستيك وفي أذني قرط فالصو. فتحت الشباك فامتلئت الحجرة بالنور وبالدفء، ورتبت السرير، وتمتمت بلا غناء بداية أغنية حزينة وسكتت، وضعت اللحاف على الشباك ليتشمس ونفضت التراب عن المرتبة، ثم أخذت المكنسة بيد حانية. لماذا لا أركب

المكنسة وتطير بي حيث لا أعرف حيث الرجال هناك يعرفونني. وكنست على مهل وبرفق ومن الراديو كانت أغنية تغني، وكانت هي ساهمة.

أمس المرير فتحت بابي فدخلن على وجوه نحيلة صفراء، فاتهن عمرهن وهن يبحثن عن عريس وبكين بكين.. خرج الرجال للأراضي الغريبة ولما رجعوا أغنياء تركننا... تركننا.

في ليلة الأمس ظلت واحدة منهن تنتحب في الحوش بجوار الشجرة وقالت أنه مدفون تحت الشجرة فمتى يطلع؟

كانت أمها العجوز النحيلة تحكي لها عن طاقة القدر حين تفتح، وعن الغيب الذي يحمل مالا نعرفه، وفي كل عيد يخرجن معاً في أول شعاع للشمس ويذهبن للمقابر بالكعك والتمر والقروش ويبكين على الثلاثة الذين خطفهم الموت الأسود ذات ليال سوداء.

وفي كل عام تقول الأم- وهي تمشط للابنة شعرها الخشن بمشط ذي أسنان خشب- يا ابنتي العام القادم سيحمل لنا الخير وابن الحلال الذي يتزوجك وتنجبين منه ولدا واثنين وثلاثة، الأول يحقق لك حج بيت الله، والثاني يطعمك من رزقه، والثالث يأخذك بين جناحيه. وتبكى البنت للحلم الجميل وتقول: أليس لكل فولة كيال؟ وترى أنها شديدة الشبه بأمها السمراء، ولكن أمها تزوجت من رجل فقير حتى مات.

مات أبي ومات أخي وماتت أختي. أغلقت الراديو، وانداحت

الدموع من عينيها. قالت لها جارتها: يا جارتي الغلبانة الرجال عبء ومصيبة.. أنت في خير حال، لا تبكي حتى لا يضيع نور عينيك. فقالت لها: إنني أبرد وأسخن وإنني وحيدة.

وأخذت في البكاء.

جلست على كرسي منجد ومسحت أنفها في كمها وحملقت للصورة المعلقة على الحائط، ألوانها زاهية ولكن ليس في الصورة غير بيت وشجرة، لماذا علقت أمي صورة ليس فيها غير بيت وشجرة.

ركزت على ركبتيها وأطلت على الشارع، رأت الرجال والشبان، واستغربت، وقالت: كلهم أخرجوا جواز السفر ليتركنني يا رب ابعث لي برجل ولن أقول لا حتى لو كان مكوماً في قفه.

هذه الدار الضيقة والحوش الواسع والذي به شجر يزهر ولا يثمر.. وأنا.. في حاجة لك تزعق وتفرح حتى نضحك وننام بين فروع الشجر وفي الظل وتحط علينا اليمامات فتبيض ونسرق بيضها كي يفقس في حجرنا الدافئ. حين يزعق سأسكت وتضحك أمي وتخرج.

تخرج!! خرجت أمي وتأخرت هي التي تشتري لي الطعام والشراب وتخدمني بعينها. طول النهار تضحك وتقول: الشمس جميلة لها ألف عين دافئة وأنت بنت طيبة وأنا أمك التي أحبك وأرعاك وأخاف عليك من الهواء.

وطول الليل تبكي وتدعو ربها أن يرسل لابنتها الرجل، ولماذا يا

ربي وهبتنا الحزن والألم.. آخ لو أفرح بابنتي. هل تبكين يا أمي؟ على ماذا يا ابنتي، ما زال الطير يطير والنهر يجري، وما زلنا نأكل لأننا جائعين.. ربما كنت أحلم.

ويمتد الحلم الباكي طول الليل البارد.

رتبت الحجرة وجلست على السرير. ها هي صورة أبيها، وصورة أختها التي ماتت قبل أن تتزوج وصورة أخيها ببذلته العسكرية في كل أكتوبر يحتفلون بذكراه المرة.

لو كان حياً لأتى بأصحابه ولعل واحدا منهم كان تزوجني. لما كنت أسير معك في شوارعنا الضيقة كنت أشعر بالفرح، وأمام كل دار أقمنا ساتر الطوب ليحمينا من اليهود. كان يرسل لي من الجبهة الخطابات الجميلة، يسلم علي، وكان يهديني سلام زملاء الحرب. ترى هل من كان سيتزوجني قتل وحرق أيضاً؟..

قالت أمها بعد أن مسحت دمعها: انظري.. لن نظل مساكين.. ها هي مكافأة موت أخيك بها سنعيش.

وطارت طيور بيضاء وظلت تحوم حول البيت النهار والليل وكانت تنقر على الزجاج وكنا نخاف أن نفتح لها.

وبالمكافأة اشترينا "التلفزيون" و"البوتجاز"، وضعنا التلفزيون بالحجرة والبوتاجاز في الحوش. بتؤدة قامت لمعت شاشة التلفزيون بقطعة قماش. أنها تفعل الأشياء برتابة، فكل شيء مرتب منذ أمس والشهر الفائت، والأم حين تعود ترتمي على الحصيرة، وتأخذ

الابنة حقيبة الخضار وتخرج للحوش الواسع الذي به بوتاجاز وغسالة وطبلية فتطبخ وتعود بالأكل فيأكلن ويتحدثن قليلا ثم يبكين معا ولا تبوح الأم.

حين تطلع فوق السطح لتنشر الغسيل تكون فرحانة، فرحانة بالشمس والدجاجات وبالديوك، تنشر الغسيل وتجلس فوق القش، وتنام على ظهرها فرحانة وتنام على بطنها فتدفأ، وتغوص برأسها في القش فترى الطيور البيضاء وترى النخيل يساقط منه البلح الأحمر، والماء يفيض. تخبط الرجل على ظهره فيضحك ويجري وراءها بالمشوار، تحلب العنزة وتقول العنزة ماء وتنط. وتكلم الطير ويقول لها الطير أنت أجمل النساء وأطيبهن، وضوء الشمس يبهر العين فتضع ظهر يدها على عينيها.

يا رب السموات والأرض ابعثه لي حتى يخاف علي ويربت على ظهري وأنام في حضنه وتفرح أمي.. يا رب حين ستموت أمي سأموت.

يكون السطح واسعاً، والملابس المغسولة تهتز تهتز تطير، وتطير فساتينها.. من سيقع عليه فستاني ستقع عليه عيني وسيكون زوجي، تبص للفستان الطائر. هو الفستان الأزرق ذو الزرار الأزرق يطير ويطير، خطفته الشمس.. أين فستاني يا فستاني.. آه يا أمي لو فستاني أحمر ربما ما خطفته الشمس.

خبطت على صدرها حين أذن للظهر.. يا خرابي يا أمي.. لماذا تأخرت؟ يا دنيتي السوداء.. سأبيع نفسي إذن للعجوز التي تشتري

الحلى وأقول لها أشتري في وبيعي لقاء قرط أو سلسلة، ضعيني في الجوال واتركيني أمام المقابر حتى أموت في خوفي، ربما يخرج أبي من بين المقابر.. ربما يخرج ويربت على رأسي ويقول لي: لماذا أنت حزينة.. أنا أعرف أنك مسكينة.. أنا الفقير لم ترثي مني سوى فقري، كنت حمالا وأمك كانت تبيع الفول حتى أصبح الفول غالي الثمن ويد أمك أكلها الروماتيزم، يا لك من مسكينة يا ابنتي ويا ابنة أمك.

لكنني يا أبي أريد فقط أن تربت على رأسي وتقول هوووه.. هوووه.. فأنام وأنام.

يا خرابي يا أمي إياك أن تغيبي. أذن للظهر وعاد الرجال لدورهم.. تعالي يا أمي لأحكي لك كيف نظفت الحجرة ولمعت التلفزيون ونشرت الغسيل وملأت القلل، ورميت الزبالة وطردت من الحجرة فأراً وغيرت ملاءة السرير ولمعت زجاج الشباك، وسكبت الفنيك على الماء بدورة المياه، وكيف رميت الذرة للدجاجات ورويت التمر حنة من البئر.

دخلت الأم فشهقت البنت. إذ دخلت أمها جميلة الوجه صبية؟ من أين هذا الجمال يا أمي. هل خرجت حالاً من رمال البحر! أنت صبية..

بل وتضحكين!

قالت لها:

تعالى- يا ابنتي.. انظري ماذا أحضرت لك، فحملقت في حقيبة الخضار فلم تر شيئاً. فقالت أمها: انظري في هذه الصرة فنظرت فرأت ملابساً حريرية وأقرطاً ذهبية.. وخاتمين بفصين أخضرين وكردان بحجم الرقبة ومكحلة. ثم وقع نظر المسكينة على قدمي أمها المعروقتين النحيلتين فجرت فزعة حيث السطح والشمس، ونادت: يا شمسي.. ارمي لي بفستاني الأزرق.. أرمي لي بفستاني الأزرق.

# هذا يـوم طيـب للحيـاة

في عينيك العسليتين كل الفرح بالخلاء. أنت جذلة لأن الشمس تحبك وترقد في عينيك، وفوق أهدابك ذرات التراب خفيفة.. خفيفة..

لم يبق سوى شجرتين نصل بعدهما إلى البئر. وسأملأ لك يا صفية دلواً من الماء، وحين تطلع الضفدعة في الدلو لن نضربها، ولن نقتلها ولن ننزع من جلدها الخشن الأخضر، سنضعها في أكفنا، ونتركها تركض فوق الحصى وستكون سعيدة.

قلت لها:

- أنا أحب الضفادع.

جرت تسبقني إلى البئر. قدماها الحافيتان شقيتان فوق الأرض المتربة والحصى المدبب. ضفيرة شعرها الواحدة جميلة رغم أن شعرها ليس ناعما، ولا أصفر.

الخلاء رمل وزلط صغير، وأشجار تشتاق المياه. نادت علي وكانت خائفة:

جبر.

- صفية.

صفية صوتها ناعم، وحبوب.. هي أخت وأم.. ولم أجد لها صفة أخرى جميلة تليق بها.

لا تخافي من هذه الحدأة في السماء. لأن السماء بعيدة. وهي تبحث عن الكتاكيت لتأكلها.. وتفترسها، ولربما حطت فوق نخلة جدتي.

جدتي تجلس في وسعاية الدار المدهونة بالجير الأبيض، تمسك عصا حطب في يدها.. جدتي الكسيحة تجلس تحت النخلة وتهتف على الحدآت بغيضة اللون: عالي.. عالي.. عالي.

أبو قردان لونه أبيض، تحول هذه اللحظة إلى طائر رقيق. رقيق.. اللون الأبيض في السماء نقطة صغيرة في بحر أزرق.. والغيطان خضراء.. خضراء. وأمي تغوص في جلبابها الأسود، وهي سجينة حجرة أبي.

شجرة البنسيانا الوحيدة أمام دارنا تزهر في الربيع زهورا حمراء، نأكلها حين تتساقط، مذاقها ليس مرا.

آه من تلك الزهور الحمراء التي نعشقها.

أمام الدار شجرة وحيدة، يأتي عندما الصبية يلعبون... ويقذفونها بالطوب حتى تسقط الزهور، لا يزعق أبي فنوافذ دارنا ليست زجاجا وبابنا ليس حديدا.. ولكن جدتي تصرخ لأنها كسيحة ويغني العيال:

"يا طالع الشجرة

هات لي معاك بقرة

تحلب وتسقيني

بالمعلقة الصيني"

ساعة الأصيل، وكانت الدنيا تموت في حر النهار انطلقت كالسهم من باب دارنا، وضعت صفية كفها فوق صدري، وقفت ألهث. في يدها اليمنى قطعة من العسلية.. وفي اليد اليسرى غويشة متآكلة.. صفية يداها نحيفتان. ذلك لأنها أيضاً نحيفة.

من صغري أحب صفية.. تأتي من الجانب الشرقي، تمر من فوق الكوبري الضيق- الذي صنعه الفلاحون بشجرهم- تترك النهر وراء ظهرها وتأتي ماشية المسافات الطويلة، تأتي عرقانة ولكنها تأتي كالجنية تنط وتغني وترقص.

بدر صغير نحيف يأتي من وراء الكوبري. أجري إليها تشير لي في خوف إلى جدتي. جدتي تحرم لعب الصبيان مع البنات، وتحرم لعبي مع صفية، أمي لا تكره صفية. تقول جدتي:

- نجس.

أنتظرها أنا في الوسعاية، وأمي في الحجرة المظلمة الضيقة تقعي تحت رجلي أبي العليل بلا جدوى.

جدتي ضربت صفية ذات مرة- وفجأة- بعصا غليظة، هوت العصا على أذن صفية. واحمرت الأذن في الحال، وتضخمت وخاصمتني صفية يومين بلا ذنب.

أنا أحب أمي. وصفية وأنا نحب الزهور الحمراء التي نلوكها وتملأ بطوننا.

جلس رجل عجوز غلبان فوق الكوبري الصغير وأخذ يغني كأن لا أحد يسمعه ولا حتى السمك في النهر الصغير:

"عطشان يا صبايا

دلوني على السبيل"

ضحكت صفية كثيراً لأن النهر كان يجري فيه الماء.

كان الرجل العجوز شديد السمرة وكان نحيفا.. وكان يشبه أبا صفية. ولأن الخلاء واسع نرسم فوق الأرض حولنا دائرة واسعة.. واسعة.. نشير إليها:

هذه دار.

نجلس فيها، نأتي بأربعة أحجار ونسميها حجرات، وفي الدار كل ما حولنا يصبح لنا.. الغيطان، والنهر، والسماء. ولا يحدث أن أكون عليلاً وتحملني حتى أبول ولا أسبها.. ولا أضربها كالوحوش. هي أيضاً رءوفة معي.. تسمعني وتشتري أكلنا بنقود بسيطة وتأتي بالماء النظيف ونستحم كل يوم. صفية لا تسرق مني النقود. ولا تكذب علي.. ولا تلعب لعبة الدار مع صبي آخر.

نصفق.. يأتي العيال من كل شق: صبية نحاف.. عيونهم متقدة.. أذكياء.. كلهم يهربون من جداتهم.

والشمس حلوة جميلة نتمرغ فيها، وتمرح الكلاب الأليفة ويرفرف أبو قردان ناصع البياض في السماء الصافية شديدة الزرقة.

الزهور الحمراء طعمها في الفم لذيذ.. لذيذ.

"يا طالع الشجرة

هات لي معاك بقرة

تحلب وتسقيني

بالمعلقة الصيني

أيام القطن نقتل الدودة، ونجمع القطن الأبيض. ونحمل الحطب. وأعود مع صفية كل غروب فرحين بالقروش التي هي أجرنا. تضربني جدتي حتى أخرج آخر مليم من القروش القليلة. أمي تبكي بلا صوت ويسكن في رأسها صداع دائم. وأبي القعيد يرفع يده إلى الله طالبا الهداية والرزق الحلال، والحدأة فوق النخلة وجدتي تحت النخلة، والكتاكيت ذات الأرجل الصفراء صغيرة صغيرة.. تحب الشمس ولا تدرك بعد أن الحدأة عدوتها ولا تحتاج إلى جدتي الكسيحة، إنما تحتاج لي أنا الذي بيدي (نبلة) وفي جيبي زلط.

لا تتركيني يا صفية. أنا أحب أباك الذي يحبك ويشتري لك في كل عام جلباب زاهي الألوان به ورود حمراء وزرقاء وخضراء، وخطوط سوداء، ويشتري لك غويشة جديدة.

أريد أن ألعب معك بين البنايات والأزقة، وأترك الخلاء، هل سمعت عن ثعبان يسكن بجوار البئر، قالت نعم، ولكنه يرقد هناك لفأر كبير يريد التهامه، قلت نعم لكنه سيقتلنا لو قربنا منه.

إنها حواديت.

ضمتني أمي إلى حضنها، التصقت بثدييها الطيبين، أنفاسها الدافئة كانت تحميني من مخاوف الليل.

قالت:

- نم واحلم أنك سعيد.

هي تحمل بول أبي، وتكنس تحته. هي مريضة، ولكن لمن ستشكو، وهي التي تلبس الجلباب الأسود.. وأبي هو القعيد.

- يا صفية.

كانت الشمس حامية، وكانت السماء واسعة.. وكنا لا نخاف من الثعابين ولا البئر العميقة.

حدثتني عن قطتها البيضاء، وجدتها- صفية- بجانب كوم الزبالة. كانت القطة آنذاك صغيرة صغيرة. لا تقدر على فتح عينيها. وذيلها كان تحتها منكمشا. ثم أخذت صفية تربى القطة البيضاء.. تربيها تربيها.. حتى كبرت وكبرت. وأصبحت بذيل جميل، وعينين خضراوين جريئتين تقتل كل الفئران المتوحشة. وأصبح للقطة البيضاء عديدا من القطط البيضاء والسوداء.. وذات البقع البيضاء والسوداء.

جلست حزينا فوق التراب.. وكانت رجلي معفرة.

صفية تعرف سر حزني.

أعطتني يوما قطة صغيرة بيضاء- مثل أمها تماماً- كنت

أطعمها خبزاً مبلولا. خنقت جدتي القطة البيضاء، وبعثتني لأرميها فدفنتها بجانب الكوبري وبكيت عليها كثيرا كثيرا.

قال أبي في المساء أن القطط نجاسة.. قال: يا ولدي صل.

قالت صفية:

أبي صياد

له شباك

وله قارب

هي تأكل السمك. وفي أيام الصيف يسيرون بجانب النهر يأكلون كيزان الذرة الساخنة.

صفية.. يا صفية.

الشمس الحمراء تصبغ العالم لونا زاهيا.. وأنت الرقيقة الرقيقة لم تهربي مني.

من النهر يصطاد أبوك السمك. وأنا كان عندي (سنارة) كسرتها جدتي فوقي.. ولا زلت محتفظا بـ (الشص) في صندوق صغير.

أعطتني قطعة صغيرة من العسلية بيدها اللطيفة.

حول البئر حشائش خضراء شيطانية، كان الدلو الصدئ في قلب البئر، جذبناه من الحبل كما نفعل دائما. الشمس تذهب بعيداً، أخرجنا الدلو من الماء.. صرخت صفية فزعة: في الدلو فأر كبير ميت. قتله الثعبان. الثعبان في هذه الحشائش وفي هذا الخلاء. إياك يا صفية والشقوق.. رمينا الدلو جرينا.. جرينا.

الكوبري الصغير كأنما يتأرجح، يحملنا إلى الشط الآخر. هذا الشط المشمس. الشمس تختفي لتخرج مرة أخرى.

هناك شوارع فسيحة ودور يعشقها الضوء.

وهناك ستكون صفية دائماً.. دائماً..

في عيني صفية انسكبت شمس حمراء، وطائر أبيض يرفرف في السماء سعيداً بهذه الرحابة.. ويغني بلا توقف.

# من مجموعة الحدوتة في الشمس1989

# قــرط فضــي صغيــر

كانت الحقول خضراء، والهواء ساخناً.

وضع الولد يده السمراء الصغيرة فوق أذنه اليمنى: قرط وخرم في الأذن. الريح تنقل صوت الأغاني والمواويل والصراخ.

اهتز القرط.

واهتز سعف النخلة. النخلة وحيدة، عالية.. هو تحتها.. وهي تهتز في السماء، وتلتمع في الشمس، وتستحم بماء المطر، والعيال يلعبون، ويضربون الأرض بأقدامهم، يثيرون التراب في العيون، والولد يرتعب من العيال الذين يحبهم، والذين يعاسكونه، ويرمونه بالحجارة. ويرمونه للوحدة والسكون.

في الليل تنام العصافير، في الأعشاش الصمت والدفء..

وتضئ عيون القطط، ويبث صرصور الليل بأذاه في الأذن.

في الضحى يجلس الولد ملاصقا لباب الدار، لا يبرحه، ويتابع الغبار.. الأرجل الحافية.. القطط.. ينظر لعين الشمس المتوهجة، سناها يكاد يذهب بالبصر، تدمع عيناه.. تحمر الدنيا وثمة بريق بالقرط الفضي.

رمت الشجرة بظلها فوق الأرض، فرح العيال بالظل ورموا الطاقيات. وقفز الولد فوق الولد.. والبنت شدت البنت من ضفيرتها.

وقعت فوق رأسه ورقة شجرة خضراء.. أنزل يده من على القرط، التمعت عيناه السوداوان ببريق حلو.. قال:

ألعب معكم؟

ضحك منه العيال.. تناثروا في الساحة الواسعة المشمسة.. تناثروا ألوانا بيضاء.. وزرقاء، وطارت الكرة لأعلى، لم تصل للشمس الكبيرة التي ضايقت الولد الصغير الأسمر. حين يراه الناس في الحارة.. والمتجر.. والغيط.. والملعب يقولون:

ابن أمه.

ويضحكون مشيرين إلى قرطه المتدلى من أذنه.

فيخاف الحارة... والمتجر.. والملعب.

هو المولود ذات شتاء لم يحبه.. ذات برد لم يألفه.. ذات صباح لم يهجره.. هو الذي انتظره أبوه عشر سنوات.. انتظره كل الليالي والأصباح.

جاء.

جاء بعد أن شربت أمه المر.. وشالت في شعرها التميمة.. وكنست الأضرحة. جاء قطعة لحم حية.

- المرأة أنجبت.

انتفض الأب من العشة الواطئة تحت الشجرة.. سابق الريح.. والأرض.. داست قدماه الطين الطري.. فتحت له الزروع صدرها.. وزفرت له الرياحين.. وملأت رائحة النارنج كل الدنيا.. تخبطت قدماه في الشجيرات الصغيرة.. تعثر.. وحين انكفأ على الأرض وقعت عيناه على قرط فضي صغير.. يطل من الأرض في فرح.. وترقص نقوشه في عين الشمس.. وتبرق في عين الأب.. مد الذراع.. وارتعشت الأصابع العجوز.. واحتضنته:

قرط.. فضى.. صغير صغير.

انتهت الشمعات الثلاث.. انتهت قطعا صغيرة في الصينية النحاس الكبيرة، وظل الأبريق الملون مبتلا الماء.. رشوا الملح.. وأطلقوا البخور.. وغنى الأطفال.. والنساء.. وأكلوا التمر.. والفول السوداني.. والحمص.. وتفجر الثدى باللبن.

بعد السبوع خرق الأب أذن الطفل.

- من عين الحاسد.

بكى الطفل وصرخ.. ثم التئم الجرح.. فرح الطفل بالقرط.. وفرحت الأم بالطفل وشرب لبنها.. ولبن الماعز.. والجاموسة.. وأكل الجبن القريش.. وأكل التمر.. وجرى حيث الترعة ليلعب.. يجري وراء الأوز.. ويهتف للحمام:

- يا حمام.

- يفرح بالشمس. يجري في الوسعاية بالفانلة ذات النصف كم..

ينام في الغيط تحت شجرة الجميز.. ويقوم.. وبقدمين حافيتين يتسلق النخلة حتى منتصفها ويفرح، للنخلة بلح وقحف وليف وسعف. للنخلة حب كبير يملأ القلب الصغير.

يحضن النخلة ويحلم أن يصعد للتمر، ثم ينزل.. ويعود ساحبا بيده الصغيرة الثور الكبير، يمشي الثور على مهل، وأحياناً يحك بوزه في رأس الولد.. فيضحك الولد، وتفتح الأم باب الدار وتستقبل الولد في سرور.

ابن امه.. ابن امه.

ها هو البنت.. ها هو البنت.

يلوذ بالدار.

يمسك تمرة النخلة، ولما يرشق أربعة عيدان من الكبريت كالأرجل في بطن البلحة تصير جملا.. جملا أحمر.. يركبه.. يمضي به.. ويجري.. ويجري.. هو الجمل العالي الذي لا يبلغه العيال.

يجري في حرية.. يجلس على العشب.. يمدد رجليه عن آخرهما.. يميل بجذعه للخلف.. ويستند على ذراعيه.

شمس الأصيل بحر من القمح الذهب.. والسماء صافية.. وللدفء أمان، تحط العصافير وتقوم، عيناه الصغيرتان تدوران في السماء الواسعة.. هل من طير جميل في رقبته قرط من فضة.. أو في رجله حبل من نحاس؟

خلع الطاقية الصوف. أذنان جميلتان في أحديهما قرط من فضة.. هو ذو الوجه الأسمر والشعر الأكرت لا يحبه العيال..

ويعاكسونه، ولا يلعبون معه. زحف إلى حافة الترعة.. جلس بين زرع "ذيل القط" والورود الصفراء. نظر إلى ماء الترعة الجاري.. وجه مستدير.. قرط. فم مثل البندقية.

فكر أن يلقى القرط في الماء الجاري.

وجه.

قرط.

سماء.

ويتخلص منه.. ومن شر العيال.

يتخلص من خجله قرطه.

ألحت عليه فكرة إلقاء القرط. ويمضي به الماء إلى حيث لا يعرف هو.. ولا أبوه ولا أمه.

وهم الذين يحبون القرط.

وهو الذي.. الذي..

ذات مساء.. ليلة ثقيل.. خلع القرط من أذنه، وكان القلب يدق باضطراب، واليد ترتعش، والليل يبعث بخيالاته المخيفة وغيلانه وعفاريته، والقمر يخونه.

هذا المساء.. خلعه.. إذ كان صرصور الليل يصرخ في أذنه:

ارم به.. ارم به.. ارم به.

ومن الشباك كان سيرمي به.. إلى التراب من حيث جاء.. من حيث ينبت الزرع.. ويدفن البشر.. وتبنى العمائر، وحين هم بإلقائه لمست أصابعه الرقيقة النقوش الدقيقة.. رجع.. اقترب من مصباح الجاز نمرة عشرة.. القرط.. والضوء.. والعيون تحملق.

- يا الله نقوش جميلة.. رجل.. رجل.

تمر يده بحنان على القرط.. على النقوش.. همس له القرط:

يا صاحبي أني حفظتك فأحبني.. أني أحببتك فأحبني.. يا صاحبي.

وظل يبحلق فيه ليلة طويلة.. ثم نام باسما.

هم الذين يحبون القرط.. وهو الذي أحبه.

وضع يده على قرطه.

ماء.. ووجه.

سقطت دمعة من عينه.. ارتج الماء في الترعة، وصنع دوائر صغيرة.. صغيرة..

في الماء: نخلة.. وسحب.. وقرط.

فرح الولد ورأى السماء مليئة بالطيور الأليفة.. ورأى أباه من بعيد.. ورأى الحمار.. فقام.. فتح ذراعه لأبيه وجرى في عزم.

وكان القرط يهتز بشدة.

أرض واسعة خضراء.. عشب.. وزرع.. سماء ذهبية صافية.. أرجل حافية تنقش أثرا على الطين.. وقرط يمرح في فضته الدافئة.

وبنت تمرح في أنوثتها الصغيرة. ها هي البنت التي كانت تلعب مع الصبيان برجليها الحافيتين، ها هي قد كبرت وفي صدرها نبتت برتقالتان صغيرتان، وشعرها تمشطه وتلمه في جديلتين، وتحنى رجلها.. وتلبس الشبشب، وتضحك للولد.. وتمر كالنسمة من أمام الشباك.

وحط في القلب دفء.. وفي العيون حنان.. وبالجسد الرغبة والارتعاشة.. وكيف تكون صبيا قويا يمشي في القرى والحواري وبإذنك هذا القرط؟

أخفت الصبية وجهها الخمري بالطرحة السوداء، وانهمرت في بكاء طفولي.. فتغير الهواء.. وانتهى جمع البرتقال.. وبكت سارة للخيل.. ووقفت الشمس في مكانها.. وهبت ريح الشمال.. وبات الصبي حزينا.

يا هذه المندرة الطين انهاري فوق رأسي.. ادفنيني تحتك.

ورأى البدر في السماء.. والهدوء في السماء.

تحسس القرط.. هذه النقوش الدقيقة عما تحكي؟ هذه النقوش الرقيقة عما تحكي؟

تحسس القرط.

هذه النقوش الحبيبة بما تهمس للأذن؟

أمسك به.. والحب يمنعه عن الفراق. ولم يوافق أبو البنت الخمرية.. ولا أم البنت الخمرية.. ولا خالها.. ولا عمها.. ولا التجار.. ولا رجال الصاغة.

وحزن صاحب القرط الفضي.

لابد أن لحظة خرم الأذن كانت قاسية، صرخ الطفل، والأب وزع "السوبيا"

لا هو تشبه بالنساء، ولا هو اشتراه، لابد أنه صرخ.. وبكى.. وأخذ الثدي في فمه.. لكنه أحبه.

القرط.. الصراخ.. الحب.. النقوش الدقيقة.. هو في الأذن والقلب.. هو يقترب في طيبة، وهم يهربون ساخرين، تنظر له العيون بشفقة، والشفاه بالمصمصات والبنت الخمرية بالدموع.. وهو الصبي الذي أحب الأرض المعشوشبة.. البحر. الزرع.. الفأس.. رائحة الخبز.. البرتقال. وهم الذين يضحكون في سخرية.

سهر الأب العجوز يفكر.

سهرت الأم العجوز تبكي.

قال الأب العجوز:

- كبرت يا ولدي.. اخلع القرط.

بكت العجوز.

- يا ولدي.

البيوت ناصعة البياض.. والنهر شديد الجريان.

وقف الولد شامخاً.. وراءه البيوت.. والنهر.. والإبل.. والنخيل.. والقباب.. نظر في عين الشمس.. لم يجفل، فقال له سر الحياة: إذا توالدت الأسماك.. وأنجبت هاجر للخليل.. وسقط الندى.. وخرج يونس من بطن الحوت.

هو قسوة الضوء.. وحنان الدفء.

أمسك بالقرط الذي أحبه.. قال في وجد:

- أحب نقوشه.

التمع القرط الفضي.. وبانت نقوشه الدقيقة.

في أذن الولد قرط.. ومنقوش على القرط رجل.. والرجل يمسك رمحاً.

# انتظـــــار

بيتنا طيني صغير، في حارة سد، به مصباح غازي واحد، ومسامير عديدة. على أحد المسامير صورة لأبي الميت واقفاً عاري الرأس وأزرار الصديري ظاهرة من فتحة جلبابه الأبيض البلدي.

منذ أيام مسحت أمي الصورة المغبشة بالتراب، مسحتها بكم جلبابها الممزق، بدت صورة أبي زاهية رغم أنه مات منذ سنوات عديدة.

بيتنا الفقير به حجرتان: واحدة للنوم والأكل والجلوس، وواحدة لأشياء قديمة متراكمة. وبين الأشياء المتراكمة القديمة جلباب لأخي الأكبر المتزوج بالمحلة. آثر البعد عنا لأنه يكره رائحة التراب، والحارات الضيقة، وشغل الغيطان.

وأنا أحب رائحة التراب ورائحة عرق أمي خاصة بعد عودتها من البيوت بأرغفة الخبز الطرية الساخنة وأحبها وهي معفرة بردة الخبيز.

- رغيفك يا حسين أكبر من رغيف سعدية.

أضحك عالياً من أعماقي. كنت طفلاً أجري في أنحاء بيتنا القديم، وأعود أصنع رغيفاً ترميه في أحشاء الفرن، ثم يلفظه الفرن ناضجا، منتفخا. أفرح، وأجري، ألعب في الأجران عسكر وحرامية.

- انت عسكري.

تقول حسنية ذلك.

تختارني دائماً عسكرياً، وهي حرامية، تجري ويجري كل الأصحاب، تتسع خطواتي وراء حسنية تختبئ وراء الكافور، تجري، يعوقني الجلباب أبو سيالة أجري، نقع فوق بعضنا ونحس بفرح حلو.

أرجع للبيت جذلا. تغسل لي أمي قدمي القذرتين، تضمني في صدرها العظمى، تقص لي عن أبي الذي مات ولما تحمر عيني تطفئ المصباح الغازي نمرة عشرة وتغط في سابع نومة، وتفتح فمها قليلا، وأفكر أنا في حسنية الصغيرة.

أبي يبتسم في الصورة، المسامير الصدئة كثيرة على الحائط، على أحد المسامير مفتاح بيتنا الذي لا نستعمله.

وأنا أحدق في صورة أبي المبتسم، قدمت لي أمي: كوب شاي. مددت يدي، أخذت الكوب، جلست بجواري، طلبت مني أن أقرأ لها للمرة العاشرة خطاب أخي الذي أرسله لنا من أسبوعين، ويقول

فيه: مشتاق لكم كما يشتاق الزرع للماء. ثم أخبرنا بأنه سيبعث لنا مع أي قادم مقطعين من القماش، واحد لي وآخر لأمي. قرأته لها، ضغطت على فخذي بيدها الطيبة وقالت: في العيد سترتدي جلباً أبيض جديداً.

تذكرت أنني أصبحت أخجل أن تراني حسنية بهدومي القديمة.

أنزلقت أمي على السرير الجريدي، لم تعد تقص لي عن أبي الذي مات. راحت في سابع نومة. مكن وابور الطحين يتآكل وهي لا تتآكل. سمعت أنفاسها تترد عاليا.

أطفأت المصباح الغازي نمرة عشرة، علا صرصار الليل، والبرد يمرح في البيت الخالي. آه لو تأتي حسنية وتساعد أمي وتجعلها تصنع الشاي سكره كثير. تقول أمي عن ذلك: لأن أباها عنده سكر وفير.

زجاجة المصباح نمرة عشرة يغلقها سناج أسود فاحم مثل ضفائر حسنية.

في فرح حسن أبو سالم كانت أجمل الفتيات بشعرها الناعم المضفور وشفتيها الحمراوتين وسعادتها تلك التي لا تبرحها أبداً. الراقصة تبعد بيتنا، لكن لما التقت أعيننا ابتسمت وشمل وجهها بهجة جديدة. تذكرت لما كنا عيالا ونقع فوق بعضنا وننط في قش الأرز ونختفي فيه. أحمر وجهها وظلت تبص عليّ. عن يمينها وشمالها كان خفيران يقفان تائهين في متابعة الراقصة.

رجعت حزينا لبيتنا الفقير، هي سارت بين الخفراء، لم تصنع

أمي شاياً، أعطتني رغيف ذرة، تكورت في الركن ترقبني بعينين حزينتين. أمي الشاحبة ملتفة بالطرحة السوداء تسألني أن أتكلم:

ألست فرحاً من خطاب أخيك.. سيبعث لنا بمقطعين من القماش.

سكت طويلاً. من زمان لم أر أخي. حزنت أمي. نامت.

المواسم هي التي أشعر فيها بالفرح، اشتغل من غيط لغيط.

المواسم. تذكرت كل ما قالته لي عن الزواج. قالت:

سأزوجك أمينة. ابنة المقرئ الكفيف. الفقير مثلنا. سنجوع معاً.

انسحب كل إحساس بالفرح بمقطع القماش. أخي في المحلة الكبيرة، تزوج محلاوية ابنة "شركاوي" وعنده عيال. قال في خطاب أرسله العام الماضي: مشتاق لكم كما يشتاق العليل إلى الدواء. ثم أخبرنا أن له ولدا بالمدرسة الابتدائية.

صرصار الليل لا يكف عن الصراخ، وعظام أمي البسيطة متكورة على السرير الجريدي، عدا ذلك كل شيء صامت. الفأس تنام برأسها على الجدار الطيني، والغلق مقلوب، وشراعة الباب غلقت بطبقة سميكة من التراب لا تسمح بنفاذ الضوء. أمي بدأت تتقلب، قلقة، مئذنة قريتنا تنادي الصلاة خير من النوم.

سأصلي اليوم حتى يقبل الله دعائي وأتزوج ابنة العمدة. يرفض زواجي بها، ولي يدان أحصد بهما، وذراعان أحمل بهما التراب، وعيناي تريان الدودة وتسحقها.

تعمل أمي بجد هذه الأيام، تحاول جمع أي نقود لتضعها على نقودي القليلة لنشتري جلابيب.

أخي لم يبعث بالمقطعين.

لو بعث لاشترينا الملوخية والعدس، ما أطول شهر رمضان.

تحسست خطاب أخي، تاريخه قديم. لماذا لم يبعث لنا المقطعين القماش، والمسافة من المحلة إلينا قصيرة. ذهبت مرة إلى سوق الثلاثاء بالمحلة سيراً على قدمي، كنا نبيع عنزة سوداء ورأيت القطار والكوبري ومداخن المصانع. اشترت أمي بثمن العنزة ثلاث جلابيب، وزيتا واشترينا علبة "سالمون" المسافة قصيرة ويمكن قطعها في ساعتين.

سحبت أمي نفسها من فوق السرير الجريدي، وهي قادمة نحوي لاحظت قدميها المعروقتين، جلست، قالت: قم اغتسل. قلت لها وأنا أفكر بمهل:

أمي.. المحلة الكبيرة ليست بعيدة سأذهب لأحضر مقطع القماش. فكرت أمي طويلا نفخت، فأطفأت المصباح الغازي، فتحت الشباك. صممت، عدلت الغلق المقلوب، قالت:

لا تغيب.

أومأت برأسي، الهموم ثقيلة، فالطريق صاحب غريب، والقرار ثقيل، ذهبت إلى الزير القابع في الركن المظلم، شربت بالكوب الصفيح، أعطتني أمي فلوسا.

خرجت من الباب، خطوت ببطء في الحارة الضيقة السد، الأشياء رطبة، السعال يأتي من داخل البيوت ضعيفا، خرجت الجواميس بتؤدة. ألقيت نظرة خلفي ورأيت أمي واقفة على عتبة الباب الصغير، ستظل ترقبني حتى أغيب، ثم تدخل تكنس، ترش التراب بالماء، تذهب إلى الدور لتخبز، وربما أعود في المساء، ومعي مقطع القماش.

لم أر أخي من سنوات عديدة.. ترى ما شكله الآن؟ وفي أي مكان يسكن بالمحلة الكبيرة.

# عزيــــزة

منذ قليل أذن الفجر، وسعى قليل من الناس في الطرقات، ورغم الهدوء الذي يحط على الشارع الضيق المرصوف بقطع الحجارة البيضاء- غير المتساوية- كانت تصل إلى الحجرة وشوشات خارجية. سعلت الأم وهي ما تزال نائمة على السرير الصغير الحديدي الصدئ. غمغمت "عزيزة" أحست أن قدميها بارزتان إذ لسعهما برد مفاجئ سحبتهما بسرعة تحت الغطاء الخفيف، لم تشعر بالدفء، نهضت فزعة، تسلل الضوء من تحت النافذة الخشبية التي تبعد ألواحها عن بعضها بفروق بسيطة، وتقول الأم للأولاد مبررة ذلك: لتغيير النفس.

الصباح والبرد ورائحة الأنفاس، والقلق. أدركت "عزيزة" أن ميعاد العمل قد حان، جلست منحنية الظهر، تأوه طفل صغير بجانبها، هرشت شعرها الناعم الأسود الطويل كثيرا، زحفت أصابعها النحيلة تهرش ظهرها، رفسها الطفل الصغير، وقفت وسط الحجرة تماماً. الحجرة ذات سقف منخفض، يتدلى منه

سلك قصير لا لون لأن بقايا الذباب غطته تماما، في نهاية السلك مصباح كهربي صغير، مفتاح المصباح جانب الباب مباشرة ومن حوله جحور الحشرات التي تزعجهم في الأيام الحارة- لكنها الآن مستكينة- و "عزيزة" في راحة من محاولة تنظيفها بالجاز.

تحت النافذة كنبة خشبية ينام عليها أخوها الأصغر منها مباشرة، وهو عامل بأحد المصانع المتناثرة في المحلة الكبرى، عنده قميص أحمر ذو أزرار سوداء مربعة وياقته طويلة مدببة ويرتديه دائماً على البنطلون البني القديم الذي قصر كثيراً، وعلى نفس الكنبة ولكن في الاتجاه الآخر تنام أختها الأصغر من أخيها مباشرة.

قامت الأم من على السرير الصغير- وكان المرحوم قد اشتراه قبل موته بالتقسيط- وشدت جلبابها الأسود فوق فخذها العاري وقالت بحماس:

- بسرعة يا عزيزة

الوقت يمضي مسرعا.. اقتربت الساعة من الخامسة، قامت عزيزة حشرت قدميها في شبشب صغيرة- هذا الشبشب- يستعمله الجميع- فتحت باب الحجرة اصطدمت ببرودة الصباح الثلجية، اتجهت إلى دورة المياه التي تغوص في ظلمة شديدة- يجب أن تصل إلى محلج القطن قبل الخامسة والنصف. ضل صرصار طريقه فسار على قدمها، أزاحت قدمها قليلا.

محلج القطن: نبهت على بقية الزميلات بضرورة الذهاب اليوم

مبكرا إلى المحلج، ستأتي- هذه الواحدة- لتقف بدلا من الواحدة منهن أمام الدولاب. داهمها الخوف، والقلب يضطرب، خرجت من دورة المياه، أغلقت باب الحجرة، وقالت أمها النحيلة:

- بسرعة يا عزيزة أو الريس يرجعك.

قصت على أمها النحيلة ليلة أمس قصة البنت التي ستحضر إلى المحلج لتشتغل معهن، عزيزة لا تملك عشرة قروش حتى تغمز بها الريس ليعطيها الماركة، الماركة صفراء اللون باهتة وباردة أيضاً. لو تملك عشرة قروش لأعطتها له، ولكن من أين؟ مازالت بقية ثلاثة أيام على القبض. خلعت الشبشب من قدميها داست على الحصيرة، أنحنت، مدت يديها تحت السرير جذبت صحنا من النحاس- أمها تعتز به فهو من أيام الزواج الأولى- به قطعة من الجبن أكلت جزءا منه، ارتدت الجلباب الأخضر ذا الزهور الكبيرة الذي تذهب به إلى المحلج كل يوم.

- بسرعة يا عزيزة.

قالتها الأم، وكانت تعلق بعض الملابس القديمة على أحد المسامير الغليظة فوق الحائط الأزرق الباهت ثم أردفت:

ربنا يكون في عونك... هو الأعلم.

الخوف يزحف ثقيلا على نفس "عزيزة" المشوار لا يزال طويلا حتى تصل إلى محلج القطن.

على البوابة ينتظر الريس. واحدة منهن لن تدخل اليوم،

لأن البنت التي ذهبت له أمس أعطته ربع الجنية، سينظر إلى أي واحدة منهن وهي تقدم له سركي، الدخول، تطمئن على وجود السركي. بدونه لا يدخل أحد.. يراه الريس، تمتد اليد النحيلة- غالباً- لتأخذ الماركة الصفراء، عضت عزيزة سبابتها اليمنى، وقالت لنفهسا: لو استطعت الحصول على ماركة.

ربما نظر الريس في قرف إلى واحدة منهن ويقول بكلمات قليلة جداً ولكنها قاضية:

ارجعي النهاردة.

جذبت عزيزة الملاءة السوداء من تحت الابن الأصغر.

التفت الملاءة السوداء. لم تستطيع اليوم تنظيفها من غبار القطن كعادتها كل صباح. تحسست السركي مرة أخرى، اطمأنت، وضعت قدميها في الحذاء البلاستيك الأسود، خرجت مسرعة. اتسعت خطواتها على الطريق المرصوف بقطع الحجارة البيضاء، ستخرج للشارع العمومي، تسير مسافة ربع ساعة، محلج القطن في وسط المدينة، أمامها مباشرة سينما تدخلها زميلاتها بخمسة قروش، ويقصصن عليها أشياء عجيبة. ولقد حفظت اسم سعاد حسني جيداً، المحلج ليس بعيداً. ربع ساعة كل يوم.. تعرف ذلك جيداً، واليوم تخاف هذه السكة.

- خذي بالك يا عزيزة.

كل يوم تسمع هذه الجملة، تقول أم عزيزة ذلك وهي لا تدري

تماماً من أي شيء تأخذ عزيزة حذرها، ويقولون.. وتسمع الأم ذلك: أن ابنتها "عزيزة" تشتغل على آلة يسمونها الدولاب.

- بيقولو فيها سكاكين يا عزيزة.

- أيوه.. علشان تبعد البذرة عن القطن.

خذي بالك يا عزيزة.

تقف في حذر أمام الدولاب، تخاف أن تأكل السكينة ذراعها. سمعت عن حدوث ذلك كثيراً. القطن القذر به كثير من الغبار والأتربة تتصاعد تملأ الأنف. تضيق التنفس. ترجع للوراء قليلا في حذر خوفا من العربات التي تمرق خلف الظهر التي تحمل القطن لتوزيعه داخل العنبر.

تسعل ثم تبصق.

دولاب أو سكينة!!

هزت رأسها. اتسعت خطواتها المتوترة كثيراً. تمنت لو أمسكت اليوم بالماركة الصفراء.

بعد ثلاثة أيام سيعطونها أجرة الأسبوع، والأسبوع سبعة أيام، والأجر يضيع في يوم، والولد الأصغر منها مباشرة والعامل بأحد المصانع لا يأتي بقرش واحد، كله على السينما ذات الخمسة قروش، وأحيانا على السجائر التي ينفثها بين أصحابه بفخر!

خذي حذرك يا عزيزة، الأم لا تدري من أي شيء تأخذ حذرها بالضبط، لكنها تعرف أن الغبار يملأ المكان. يقولون: أنهم يشتغلون ساعتين ويستريحون ساعتين:

- أبداً نشتغل على طول. القطن كتير ومليان بذر.

يقولون أنه يصيب بالسل.

- رجاء بنت أم صابره انصابت بالسل!!

السماء بدات تنكشف عن الضوء، الشوارع يسير فيها الأنفار، والأيدي تلتمس الدفء في الجلابيب والسراويل، الأبخرة تخرج عند اللقاء تحية الصباح، وزفرات الضيق.

راقبت عزيزة الناس في ملل، المسافة طويلة لا تنتهي.

- الحمد لله.. الغبار لسه ما عملش حاجة معايا.

الغبار.. السكنية التي تفصل البذر عن القطن.

تنهدت.. لملمت الملاءة السوداء حول جسمها.

أسرعت.

في الطريق التقت بزميلتها "روحية" سلمت عليها.. وجهها الأبيض النحيف يميل إلى الاصفرار.

الدنيا برد.

الدنيا برد.

الدولاب. السكينة. العنبر الواسع.. البلاط البارد.. البلاط نظيف.. لامع. بارد.. بارد.

- يا ترى مين هيرجع يا أولاد؟

تمتمت عزيزة

الأرزاق على الله.

المحلج. المبنى الكبير الساكن. المحلج الخوف والرهبة.. المبنى الكبير اقتربنا أكثر من باب المحلج.

هبط قلب عزيزة فجأة. أصفر وجه "عزيزة" أكثر عندما رأت كل الزميلات- على غير العادة- وقد قفن أمام البوابة. اقتربت.. تحسست "عزيزة" السركي أخرجته، احتضنه في كفها بقوة، وقفت مع زميلاتها.. ألقت تحية الصباح، خرج البخار من أفواه بعضهن. اصطدمت عيناها فجأة بوجه جديد شاحب.. واحدة لم ترها من قبل، لاحظت طرحتها النظيفة من الغبار. تبادلت مع "روحية" نظرة خوف. أقبل الريس، قسمات وجه شرسة، وعيناه الضيقتان تتفحصهن جيداً.

قالت عزيزة في نفسها.

"عشرة صاغ زيادة يا ولاد"!!

جلس الريس فوق الكرسي الخشبي. أمامه في الصندوق الماركات الصفراء، ارتعشت "عزيزة"، قالت لنفسها:

"ربنا يخليك يا ريس شغلني النهاردة"

وكانت كل وحدة منهن تردد هذا الدعاء بعينه.

# التـــابع والحصـــان

الحصان البني نائم، مربوط في وتد صغير، والحبل قديم. الحصان البني يركن إلى شجرة الخروع، ومشدود إلى الأرض.. والعنزة السوداء تتقافز في فرح ورنين الجرس المعلق في رقبتها صوته ناعم.

وأنا.. في مواجهة أبي، والدار المطلية بالجير الأبيض.

وأبي: قعيد يحدق في السماء الزرقاء الخالية من السحب.

وضعت أمي البرميل المملوء بالماء. أمي ساهمة وشاردة، العرق بلل وجه أمي الشاحب، شعرها مصبوغ بالحناء، ويظهر من تحت عصبتها المتآكلة.

عادت أمي -بحذر- بعد أن وضعت البرميل واختفت داخل الدار الواطئة.

الذباب يتراقص على قدمي أبي.

شجرة الخروع بدأت تتمايل، حط عليها عصفور أخضر، بينما الحصى يطير من على الأرض ويحط في عيوننا، والهواء حار.

نظر لي أبي بعينيه المكدودتين.

قال:

- ما زلت أفهم الدنيا.. ومازلت أنت عيلا

مددت رجلي، هرشت فخذي.. انزاح الجلباب عن ساقي رأيت شعر ساقي متربا وناعما. ولم أرد على أبي الذي لم ينظر لي. شد الحصان نفسه من الأرض.. والذباب حط على عينه.

قال أبي بصوت آمر:

اسق الحصان.

أخذت الماء بالدلو، انحنيت أمام الحصان، نظر لي بعينيه الواسعتين، رمش، وأخذ يشرب في هدوء.

والعنزة السوداء تبل لسانها وتجري وتنط كالشيطان.

أبي يلف سيجارة بأصبعه المرتعشة على مهل.

كنت أحب هذا الحصان كثيراً وأرعاه، غير أنني أكرهه الآن.

سألني أبي:

هل بعت الصوف؟

قلت بصوت خفيض:

- نعم.. بمبلغ قليل.

هو يبدأ بضربة المقص الأولى في صوف الخروف الملبد، وأمي تأخذ المقص وتنهي بقية العمل.

المقص الكبير بجوار أبي لا يفارقه. والوتد الخالي الذي يربط فيه الخراف.

نحن ننتظر القادمين من العزب المجاورة ليجزوا صوف الخراف.

مغزل أبي معلق على الحائط من زمن بعيد.. وأنا لم أتعلم الغزل.

فقط أمسك معه الخراف.. وأناوله المقص وأعرق معه.

دارنا.. مدهونة بالجير الأبيض الناصع.. عليها طبعت كفي:

خمس أصابع باللون الأحمر الزاهي، ومرسوم هلال ومئذنة وجمل جسمه كبير ورأسه صغير. لم يحج أبي، ولكنه أتى بالنقاش ذات يوم ليرسمها.

كنا نستمع للراديو الصغير الترانزستور، نتابع شيخ الأزهر ليقول لنا عن رؤية هلال رمضان. لكن الراديو لم يقل شيئاً. أغلق أبي الراديو قبل أن نعرف هل سنصوم في الغد أم لا؟

أمي ساعدت أبي في دخول "المندرة" ثم ببطء أغلقت الباب، وأظن أنها ابتسمت لي.

تسللت حيث ألقى "هدية" في قلب الليل كانت بين يدي شيئاً دافئاً.

دافئاً قوياً.. ومحرما عليّ. في ظلمة الليل تلهث الكلمات.. والأنفاس، وتتشنج أربع أيادي مجنونة.. وأرتعش.. أرتعش. والليل يشي بأسراره.

- ألن نتزوج؟

تهمس لي، تسألني، وأحبها في هذه اللحظة وأكره نفسي كثيراً.

التبن يلمع، ملمس ناعم، العنزة تقفز فيرن الجرس في عذوبة. قدمت التبن للحصان بين كفي، لحس الحصان يدي. على الحائط غربال. وعلى الجدار مدراة. وعلى الأرض فأس.

خبأ الضوء.. صهل الحصان، ركضت الخيول البيضاء..

الخيول البيضاء تركض بفرح نحو الأفق البنفسجي.

قال أبي:

- لم يقصم ظهري غير الزواج.

أخذت أمر بالفرشاة الخشنة على ظهر الحصان وكفله.

قال أبي:

لا تتزوج يا ولدي.

أبي الآمر الناهي.. اتبعه حيث يشاء، أسحب له الخراف، أنزل معه النهر، أسهر معه في الموالد يحدثني وهو يدخن المعسل.

ولكن.. لكن الخيول البيضاء.

لم أقص لأحد عن الخيول البيضاء.

وها أنذا أرقب حصانه البني.. أعتني به.. أرقبه بلا توقف وممنوع أن أركبه.

أذهب بالحصان للترعة وأحميه. ينزل في كسل، يقف وسط الترعة كأنه خجول.

لم يعد أحد ينظر إليه. الحصان الذي كان يشد العيون.. وعلى

رأسه كف من قماش، خمس أصابع كاملة وفي وسط الكف يلمع "الترتر" الأبيض ها هي الكف القماش باهتة، والترتر صدئ، تبرق الترعة بعيون الشمس، ويلتمع جسد الحصان لفحة ساخنة، الأدخنة تتصاعد في أفق القرية، ورائحة الدخان تحمل رائحة العيش المخبوز. كل شيء كسول: الفلاحون.. البائهم.. الحمير.. حتى العنزة استراحت إلى الأرض.

"وهدية" تقبل وتختفي..

والخيول.. الخيول تصهل..

تركض.. تصهل..

"وهدية" تقبل وتختفي.

"هدية" لم تعد تحبني شدت يدها بعنف من يدي، حين هممت بتقبيلها جرت، نفرت عروقي، وجرى الدم الساخن فيها، أحك لي.. لا تشيحي بوجهك، للقمر عيون واسعة تشهد على الظلم في دارنا.. أمسك أبي بالكوز النحاسي، وبصعوبة أطاح به، ونزف الدم من رأس أمي، سدت الجرح بالبن.. قال أبي:

- اجر عند الحصان.

الشمس الرمانية اللون حطت بهدوء على القرية، صهل الحصان في توجع، وأنا لم أشأ أن أبكي، غير أن دمعة ساخنة انسابت فغبشت الشمس.. الحصان.. القرية. حين تمكنت يدي المرتعشة من الإمساك بخصر "هدية" وحين حاولت أن أضمها قالت:

- أنا أكبر منك سناً.

كنت أعرف هذا من أمي.. ومن نهدي "هدية" أحب هدية، وهي كانت تحبني، وتأتي للحصان "بالدراوية" كي تجلس معي، وفي الليل تناديني وتسألني أن اقترب منها، وأسمع النبض قويا، والسخونة تلسعني، تسألني عن العرس والحناء، وتشد يدي، فيسرى الدم والسخونة.

لم تعد تحبني.. لعلها جذبها الرجال الأقوياء.

ليس لك رأي.

قالت "هدية" ذات ليل ثقيل.

ارتعش فتيل المصباح.. فارتعشت صورنا على الحائط استلقيت على ظهري.. خيول.. خيول جامحة.. كثيرة العدد.. تركض تهز الدنيا.. من بعيد أسمع الصهيل.. وهسمات "هدية" وود الليالي الأولى، ومن بعيد تتصاعد رائحة الحقول تملأ أنفي ودماغي وروحي.. لأيام القمح وليالي الحصاد ذكريات تغوص في النفس لا تبرحها.

ومرت كل الأماسي ثقيلة.

وها أنت أيها الحصان أصبحت قعيداً، على عينيك حط الذباب، وحوافرك قد تآكلت، وحدواتك الحديدية لم تعد لامعة، تآكلت هي الأخرى، ولعل واحدة منها ستعلق فوق باب لتمنع الحسد.

أبي في الخلاء الواسع.. كان..

يمسك بالحبل.. يد قوية تقبض على الحبل، الحصان في الطرف الآخر من الحبل مشدودا لأبي، أبي يلف على مهل. الحصان يبتعد ويلف على مهل. الحصان يبتعد ويلف على مهل، أبي يقفف، الحصان يلف.. يفرد أبي الحبل، الحصان يسرع، يصنع دائرة من الجري، وأبي هو المركز.

وأنا بعيد أقف على الكوم أراقب أبي، الذي لم أر ابتسامته الواسعة، والترتر يلمع، يلمع بشدة على الكف فوق جبين الحصان.

كان..

وها أنت أيها الحصان قد أصبحت قعيداً، ولعلك يا هدية تتحدثين عن الحناء.. والعرس، ولعل حضن الآخرين أنساك شوقي وحزني.

أنزلت أمي براد الشاي، صبت لأبي كوبا.. والسكر الزيادة.. وأعطتني كوبا، أخذ أبي يحكي لنا عن أيامه الأولى وكيف كان.. وأقسم أن هذا الزمن لن يعود، من كان يظن أنه القوي سيصبح كسيحا، يعتمد على يديه.. وحصانه، حتى حصانه البني كرهه.. ويرفض بيعه. ويظل مربوطاً للوتد الصغير حتى يموت.. حتى يموت.

قال أبي: إن هذا زمن أسود، سوف يأكل الناس بعضهم بعضا، لم يعد هناك دين في القلوب. ظل يحكي حتى غلبه النوم.

الجميل المرسوم على الحائط جسمه كبير، ورأسه صغير،

وقد لونه النقاش بلون أزرق غامق.. لماذا لم يرسم النقاش خيولا بيضاء.. بيضاء ناصعة، مثل التي تمر في خيالاتي، تصهل عاليا.. تعدو.. وتركض في فرح؟؟

الخيول البيضاء تجري.. تجري.. تدخل في قلب الشمس تصهل في فرح، في فرح مثل أمي حين كانت تلاعبني وأنا صغير وابتسم لها.. ومثل "هدية" حين كنت أقترب منها.. أقترب.. ألف ذراعي حولها، في رهبة وخوف، وتكون الظلمة الحبيبة هي المأمن والصيف الدافئ هو الذي نتمدد فيه.

حين تفرح الخيول أفرح أنا..

وهدية.. وأمي

لكن الليالي مريرة مثل طعامنا.

- ولد..

زعق أبي في وجهي فجأة.. عيناه شرستان.

لا تجلس معي.. قم راقب أمك.

لم أفهم ما يريد، كان يكز على نواجذه.. والحر خانق.

قم راقبها.. تتركني أنا العليل وتبحث عن رجل.

أكمل أبي هامساً:

- راقبها لعلها تستحم في النهر عارية.

رائحة عرقي تضايقني كثيراً.. أحس أنني في حالة نتنة.. وأمي.. أمي التي أحبها، والتي أرضعتني من ثديها، والتي تعيش من أجلي. أمي تخون!!

وما بال "هدية" تغيب في الأرض سواحة!

نظرت لي العنزة بعينين سوداوين مضيئين، ومأمأت، زعق أبي:

- أسرع

خرجت مذعوراً.. جريت، الدور منكفئة على الأرض، والحواري ضيقة، والكلاب تزفني بنباح عال.

آه يا أمي.. ها أنا.. وها أنت، والشمس شاهدة على وجودك محنية في الغيطان، تجمعين الحشائش.. وتقطفين عيدان الملوخية.. والشمس شاهدة.

أبي يركن إلى الجدار وأنا في مواجهته.

وعلى الحائط تركض الخيول.

وتبسم هدية، وتركض الخيول.

تصهل، تمرق في الأفق، تركض..

ارتطم الجسم الكبير بالباب الخشبي، صهل، انتفضت.. اهتزت الدار.. فزع أبي.. كانت الليلة صيفية، والقمر يضحك في السماء، والحواري مفتوحة أمام الحصان.

صرخ أبي:

- الحصان

قمت متندفعاً جاريا.. الباب مكسور.

- يا عم أمسك الحصان يا عم.

خرجت أمي بدون طرحتها السوداء.

الفزع اجتاح القرية.. والحصان يشق طريقه عدوا، والصراخ ينبثق خارقاً الصمت.

الحصان يدوس على كل شيء يجري، يبحث عن مخرج من حارة إلى حارة، من خلاء لخلاء.

وأمي تصرخ.. وأنا أجري.. ولا أصرخ.. تائها كنت. شجرة التوت قائمة، وأنا تحت ظلمتها واقف، يغلبني البكاء.. والتعب. وعلى التل كانت هدية ترقبنا أنا والحصان. والحصان أصبح بين أيدي الفلاحين أمسكوا به في فرح، وأمي تدعو لهم بزيارة الحجاز.

أصر أبي أن يواجه الحصان، حملنا أبي من تحت أبطيه، وقف أمام الحصان.. ظل يسبه وينهره ويصرخ، ثم أخرج مطواه من الصديري، صرخت أمي.. وما كان له بهذا السلاح الواهن أن يقتل الحصان.

أخذ الحصان في الصهيل.. وفي هز ذيله.. رفع رأسه عاليا، والتمعت عيناه بكهرباء من فرح.

تمددت على الحصيرة، ما بال الحصان في حالة من السعادة!! لعله الخلاء الواسع.. ولعل رؤيته للقمر أيقظت فيه حرية الأيام.

تمدد الليل في استرخاء.. ولم يأتني النوم. أبي يتصبب عرقا، وأمي وحدها تنام، أخي مات من سنوات عديدة في النهر، يقال أن أبي فرح لأنه- كان- ولدا عنيدا ولسانه أطول منه.

صهلت.. الخيول البيضاء تقطع المساحات.. تركض حتى دارنا، تأخذ الحصان البني، وتعود للمساحات الواسعة والمراعي الخضراء.

يركض الحصان البني جذلا.. تجري نحو الأفق المخضر.

الخيول تركض تركض، ركضا يهزني.. ويقلقني.

صهيل حصاننا البني.

اندفعت أنا خارج الحجرة، تألقت النجمات. نزعت الحبل من الوتد، فرح الحصان.. وفرحت أنا.

ها نحن.. والخلاء.. والدور التي تموت في السكون، ها نحن يا حصاني العزيز، كل شيء تراجع.. وأنا على ظهر الحصان أشق طريقي، حيث يصعد هو بي صعودا دائماً سريعا نحو الأفق.

أطلقت العنان لحصاني، وأرخت يدي له اللجام، فراح يشق طريقه لندخل الأفق، وكنت أسمع رنينا صافياً لصوت جرس صغير يغني ورائي.

# الشـــونة

حطت العصافير فوق أشولة الأرز المتراصة في الشونة، أنزعجت البنت رزقة، ورأى جبريل بعينيه الكليلتين أن السماء لا تبين، وأن العصافير تعاند رزقة وتعاند الرياح، فانكمش تحت الشوال الفارغ، المتآكل.

عادت رزقة تضرب لوح الصفيح دقات متتابعة بعصاها الحديدية. الشمس غائبة وراء السحب. ولكن رزقة تضيق حدقتي عينيها لتراقب أسراب العصافير، شدت طرحتها السوداء كالحة اللون وجرت إلى رصة الشوالات الأخرى، رأت جبريل الأسمر النحيف متكورا بجوار صف الشوالات الأخرى، رأت جبريل الأسمر النحيف متكورا بجوار صف عال من الأشولة، ظنت أنه نائم، تلفت حواليها، لم تجد أحدا، عادت بيدها اليمنى ترتفع لتهبط –بقوة- فوق لوح الصفيح، عملت العصافير ضجة شديدة.

صدى الضربات يلف الشونة الواسعة، وتنهض الكلاب فزعة وتنبح في الهواء، ويطل عامل البوابة من الكشك الصغير ولا يلبث أن يعود لدفتره.

اعتدل جبريل، وكان الكلب- البلدي- الأسود على بعد قليل منه. هرش جبريل رأسه وخلع طاقيته القطنية، سعل، أحس بصدره المشروخ يؤلمه، بصق. لابد أن امرأته الآن استرخت، وأن الولد يبكي من أثر الضربة فوق ظهره.

مص شفته الجافة، تمنى لو رجع إلى الحجرة، هم بالوقوف لكنه لم يستطع.

في الصباح كاد ظهره أن يقصم.

وقع.

القلم "الكوبية" يخصم نصف يوم.

اعتدل جبريل، وأخرج علبته الصفح لف سيجارة رديئة التبغ، وأخرج علبة كبريت "مشط" وأشعل الثقاب. لو رآه الريس لقطع رقبته ورماها في أقرب ترعة بجانب المضرب، ممنوع التدخين، ممنوع إشعال الثقاب، لكنه لم يأبه، منذ الصباح لم يشرب كوب الشاي.

امرأته تصرخ في ألم: العرق يغمر الجسد الهزيل تعض الوسادة المتهرئة المتسخة، وأمه الكسيحة في وسط الدار تبكي، وكانت القابلة لا يفتر فمها الواسع عن بسمة مطمئنة. كانت جامدة وكلما سألها جبريل قالت:

- ربنا يستر..

قال عامل البوابة:

- امضي يا فالح..

كان عامل البوابة سخيفا كعادته: وجبريل في تمام الثامنة يوقع أمام اسمه- هو لا يعرف الكتابة ولكنه يحفظ شكل اسمه- في الثامنة وخمس دقائق يكون في قلب الشونة، المكدسة بالأشولة.. والأخشاب..والبنات.. والكلاب.

قالت رزقة بطفولة:

- لا صباح ولا مسا؟

لم يرد- اندهشت البنت النحيلة.

رمى الشوال الفارغ من فوق ظهره، شد الجاكتة الكاكي حول جسمه الضئيل، ووضع علبة الكبريت في جيب صديريه الداخلي الممزق، العصافير تنقض على الأشولة ويجن رجال المضارب وأصحاب الأرز.

العصافير تسبب خسارة كبيرة.

الريح تجعل الشونة لا تطاق.

هب الهواء قويا، وثار التراب شديد النعومة من فوق الأرض وراح يعمل موجات ترابية.

جرت البنت رزقة تدق دقات متوالية سريعة.. واختبأت بين رصتين عاليتين من أشولة الأرز. في الجانب الآخر كان جبريل يبحث بعينيه عن رزقة يريد أن يشرب ماء ليبل ريقه، تمنى لو ينام، طوال الليل والألم في الدار سهران، طوال الليل: الخوف والانتظار، سيكون له بعد ذلك ولد يحمل اسمه ويدافع عن أبيه..

- أمه.. ادعى لي يامه.

ينتفض جسد الكسيحة.. ترفع يدها الناشفة إلى أعلى.. ويرتعش فكها السفلي. الأم الكسيحة في انتظار أن تكون جدة.

الولد الأول سوف يأتي. سيحتاج في البداية إلى الحلبة.. والسبوع. في السبوع سيحضر له إبريقاً أحمر جميلاً، يضع فيه شمعة بيضاء طويلة... تسهر معه طوال الليل.

كان أمام المندرة يقرأ سور القرآن القليلة التي حفظها.

ما خاف على بدرية مثل الليلة، وما أحبها مثل الليلة.

- والله عال يا سي جبريل حيبقى عندك ولد ينام في حضنك في المستشفى العام.

قالت الممرضة السمينة المتأنقة:

لازم التغذية والفيتامينات يا ست أنت.

وكانت بدرية- في الليل- داخل المندرة وتموت.

وكانت شمس الصباح صفراء.. واهنة تخرج في ملل من بين السحب. فرك يديه ببعضهما يستولد الدفء، وطلب من الله ألا تأتي حمولة الآن. ولكن كالعفريت الذي يخافه، أزعجه صوت النفير.. نبح كلب يتشنج، هدأت عربة النقل من سرعتها فوق الطريق الترابي الضيق، رفع الريس عوض يده للبوابة- الذي هرول مع الآخرين لفتح البوابة الخشبية والتي تكاد أن تقع — وانفتح الباب. وقف المقاول.. وعامل البوابة.. وعوض.. والكلاب لعن جبريل عربة الصباح، اصطدم بعيني عوض الذي نهره.

نادى الأنفار.

هرع جبريل إلى المضرب. ونادى الأنفار الجالسين في دفء مخزن الشعير.

الشونة ممرات طويلة، ودروب تصنعها حاجة العمل. اقتحمت العربة المكان. تراجع "الشيالون" أمامها.. ألقى السائق تحية الصباح.

كان جبريل لا يزال يلهث من مشوار المضرب.. كاد أن يقع من التعب، العربة محملة بمائتي جوال أرز. التف العمال الستة حول العربة، في يد كل وحد منهم "خطاف" وبدأوا العلم في إنزال الأشولة وكان المقاول يناقش في حدة موظف المضرب والسائق يشرب شايا ساخنا على حساب عامل البوابة.

تحسس جبريل علبة الكبريت، ليس معه تبغ. يريد أن يشرب ماء. وضع يده اليمنى أمام وجهه لتحميه من الأتربة.. قال بصوت عال:

- يا رزقة.

جرت إليه رزقة، غمرها شعور بالفرح لأن جبريل بدأ يتلكم.

كل يوم كان يحكي لها عن امرأته، هذا الصباح رأت وجهه أصفر، أحست الخوف والوهم يمنعانها من سؤاله.

من أول النهار لم يكلم أحدا. حمل الأشولة على ظهره، تعثر، زعق فيه الريس، انكفأ.. قام، التف العمال حوله.. انقلب شوال الأرز، نظر في عيونهم.. كانت مجهدة. وحزينة.

- هات القلة يا رزقة.

جلست القرفصاء. ابتسمت في مرارة.

- ايه يعني لما تقع؟

قال لها وهو يضغط بأصبعيه بثرة في وجهه العظمي:

- هات القلة.

أهدابها متربة، عصبة الرأس بها "ترتر" يضوى والعصبة لا لون لها. رغم نحافة رزقة غير أنها أكثر نضرة من زوجته بدرية، لكن بدرية كانت أحلى منها عندما تزوجها.. بيضاء.. حلوة.. في وجهها نمش جميل.. وتحفظ أغاني نجاة.

- مالك يا خويا.. شايل الدنيا على دماغك.

تمخط بجوار شوال الأرز. قال وهو يمسح أنفه بكمه.

- مراتي بتولد.

لابد من الآن دافئ. ولحمه الطري له شكل الطفل.. وأنه يبكي.

ولد.. والنبي ولد.. بيرفس برجليه في بطني..

آه. عصرها في حضنه.

يا لفرحة الأم الكسيحة.

وبدرية ستلقمه ثديها فلا يتوقف عن الحياة.

- يا دي النور يا ولاد.. يا فرحتك يا جبريل.

قالت الممرضة وهي تقرأ كلام طبيب الامتياز بالمستشفى:

الغذاء الكامل.. الفيتامينات.. التردد على الطبيب. اللبن المدرار لن يتوقف من صدرك يا بدرية وسيقول:

- أبا.. أما..

وتغني الجدة له:

"سوسو.. سوسو.. سوسو"

مرقت طائرة من فوق الشونة، هزت الأرض.. رفع جبريل وجهه تجاه السماء. وجد السماء ثقيلة وواطئة.. وخاف لأول مرة من الطائرة.

قالت الأم الكسيحة أنها تتمنى أن ترى خلف ابنها.. تمناه ولدا، تجلس معه تحت الشمس ويضرب هو القطط ليبعدها عن جدته، وتحكي له عن ست الحسن والجمال.

رأسه ذو الشعر الخشن بين يديه المعروقتين.

الأرض تلف، أمسك بالشوال بكلتا يديه.

قال لها:

- اسقيني

قامت مسرعة، وراحت إلى البوابة حيث الكشك الخشبي الموجود به مكتب، وكرسي الريس حنفي..و.. القلة.

في الصباح البارد.. كانت عربة النقل كابوساً. بهتت أمامه أشولة الأرز. والعربة. والأنفار. الصداع لا يفارق الرأس والألم في الظهر المقوس لا يبرحه. كانت تلد في الفجر المظلم، وتصرخ، والنقود القليلة جعلت القابلة تنتظر الفرج من عند الله.

- نفسي أحضنه.. وأبوسه.

شهر نوفمبر سحبه ثقيلة وتجلب وراءها كل أمطار السنة. زعق المقاول.. ارتعد الأنفار، وكانت العربة باردة وعجلاتها السوداء شديدة الاتساخ. فوق باب العربة الأحمر كتابة باللون الأبيض منمقة. على الباب الأيمن مكتوب "يا نور النبي وعلى الباب الأيسر مكتوب "عاشقة وغلبانة والنبي

كان حذاء السائق متآكلاً، وبنطلون السائق واسعا، ولونه غامقاً. نزل أمام جبريل. كان السائق فرحا بسلامة الوصول.

سلم الأوراق لعامل البوابة "مائتا شوال أرز أبيض فقط لا غير

دار رأس جبريل عندما أذن لصلاة الفجر: كان الضوء شحيحاً وكانت الحواري مخيفة، والقابلة لا تنظر لأحد انطفأ المصباح نمرة عشرة.. تسلل الضوء الشحيح من شراعة الباب الواطئ..

- شيل يا جدع.

صعد على السقالة الرفيعة- التي تمتد بين الأرض والعربة. ضرب خطافه في قلب الشوال.. والشوال ثقيل.. ثقيل.. انحنى والشوال فوق ظهره، رجلاه مشدودتان، ضغط على نواجذه، تبللت يده الممسكة بالشوال، رأى الأرض بعيدة.. والسقالة رفيعة.. والأنفار في انتظاره تنقلت رجله من مكان لآخر.

ماتموتيش يا بدرية، لما حيعيط.. الدار تتملي فرح.. وأمي تضحك.. تضحك لغاية ما تعيط.

صرخ العامل:

- حاسب.

حين وصل إلى الأرض أحس بالدوار.. هتف الريس عوض:

- هم شوية.

خطوة وأخرى ثم تعثر. وقع الأقدام الحافية تلتف حوله.. السيقان رفيعة وعريانة ومشدودة.. انحنى العمال.. مدوا أياديهم الناشفة. العيون في محاجرها متجمدة.. تتحرك في ذعر.. وجهه في التراب الناعم.. والخطاف لم يقع من يده.

- مافيش حد بيموت من الجوع.

خصم الريس عوض نصف يوم. هز الكلب الأسود ذيله فرحاً وراح يعدو وراء كلبة بنية اللون.

ونسميه إيه يا جبريل؟؟

حاسب.. حاسب.

مرت طائرة ثانية، غاص قلبه.. خاف الموت.. جرى.. جرى.. ارتمى فوق أشولة الأرز.. للبرد حراب تمزق العظم.

لا تموتي وحدك يا بدرية.

انتفض جبريل، بصق:

- نص يوم.. نص يوم.

وقف متسانداً على أشولة الأرز

جرت إليه رزقة مفزوعة. قالت أن هذا اليوم أسود، ربتت على كتفه الأيسر.

- على فين؟

هل يبكي مثل النساء. كان الليل طويلاً وبارداً مخيفاً، وابور الجاز لم يكف لحظة واحدة.

- خليك لغاية ما ترتاح.

قال بصوت خفيض:

أنا ماشي.

عبثت يدها في جيب جلبابها الزهري الباهت.

- جبريل..

تقدمت منه خطوات خائفة، طول عمر جبريل رأسه في السماء، وربما كشفها.. أو حتى ضربها.. قالت وهي تدس يدها في الجيب أبو سيالة:

- تأخذ جنية.

نظر إليها طويلا.. التمعت حبتا عينيه:

انت اغلب مني.

دست الجنية في يده مبتسمة.

رأى الغويشة الحمراء في يدها واسعة ولامعة، أحس بأن الشونة هادئة، وأحس بالصراخ يأتيه من آخر البلد. اعتدل جبريل في وقفته. حين يغمر الدفء كل شيء تتحرك الحياة.. وتتحرك قطعة اللحم الصغيرة.. أخذ الجنية.. وضعه في جيب الجاكت الكاكي، وخرج في هدوء وبطء. والعصافير تحط فوق الأشولة.

# الحدوتـــة في الشمـــس

من هنا تبدأ السكة، من البيوت والدور والحوانيت الصغيرة حتى الخلاء. في الخلاء لا شيء سوى العفاريت هناك العفاريت على شكل الأرانب.. ذات الشكل واللون وذات العيون.

وهنا داخل الدور وفي الأسرة الخشبية تختبئ الحواديت المخيفة عن الأرانب الغريبة تحت الأغطية والوسائد، وحين أنام على ظهري أبحث عن العفريت في قشور الجير وفي السقف بين العروق الخشبية ويتملكني الرعب، أكتم النفس، هنا تكمن الحواديت وهناك عند وابور الطحين المهجور تسكن العفاريت.

- إياك أن تذهب هناك.

إياك.. أول كلمة سمعتها وعرفتها وحفظتها.

نتحدث عنهم في الظهيرة بلا خوف، ونسابق بعضنا في السكة في اتجاه الوابور. اضغط على شفتي السفلى، أفتح حدقتي عيني عن آخرهما.. ضوء ساطع، ومساحة واسعة من الخلاء وشريط طويل يجري عليه القطار. ولكن ما نلبث أن نقف حين

نحس بالاقتراب. هذا الخوف لا يبرح صدورنا ويجثم فوق أنفاسنا، وأظل أردد آيات القرآن، وأختبئ في صدر أختي التي تكبرني حتى أنام، وأذني تتصنت على كل أصوات الليل.. هذا نقيق الضفدع.. وهذا صوت صرصار الليل.. هذا نباح الكلب.. وهذا مواء القط.. وهذا شخير أبي.. وهذا هسيس الشجرة، وهذه سعلة أمي، أصيخ السمع، لا أسمع صوت العفاريت وأنام مرعوباً، ربما ستفاجئني هي الماكرة في لحظة من الليل الثقيل.

الشمس حلوة، طيبة ودودة. تحكي لنا عن الزرع والماء والزهور والدفء والسكك المهدة للجري. ونجري لكننا حين نحس بالاقتراب نقف.

كلهم يخافون وابور الطحين المهجور، من يستطيع أن يسير مع شريط السكة الحديد حتى الوابور؟ ترتعب الأمهات، يحتضن أطفالهن مرعوبات، والرجال لا يظهرون خوفهم.

- أبعد عن الشر.

لا يهتمون. لكنهم يخافون. لا يبالون أيضاً. لكنهم لا يجرءون. ها هم في المقهى يلعبون "الدمينو والكوتشينة" وينفثون الدخان، ويتحدون بعضهم من أجل النقود القليلة، والزيجات الفقيرة، وماء الأرض.

يقول أبي:

لهم مكانهم ولنا مكاننا.

أهم ينعمون أيضاً بأرض؟ اندهشت أنا الصغير، إذا كانوا يستطيعون حرقنا لماذا لا يجيئون؟

أقسم "عزيز" الذي كان يعمل على "القادوس" في الوابور أنه رآهم وأنهم متوحشون، وعيونهم الحمراء تبخ نارا. أمي لا تكذب عزيز.. ولا أبي.. ولا أحد ولا نحن طبعا. أقف أمام عم "عزيز"، له عمر طويل، ولحية خشنة دوماً وعينان ضيقتان.. نحيف وطويل، أحملق فيه هو الذي يحملق في العفاريت.

- أنه يخاويهم.

هو الذي يمضي إليهم، يسير حتى الوابور يظلع في مشيته، ويعرف، يختفي هناك أياماً بطولها، نراه حين يمشي على شريط السكة الحديد شيئاً صغيراً أسمر.. ثم يختفي في السماء.

في الغرزة يشرب السبرتو ويحكي عن وابور الخواجة "يني والناس تقول عن الوابور الذي تركه الخواجة من زمن بعيد.

بعد أن أفلس.

بعد أن قتل في الوابور أول عفريت.

تركه يني بعد ظهور أول عفريت.

بعد أن كثرت الأرانب.

وأصبح الوابور مهجورا مخيفا، لا يذهب إليه سوى عزيز.

ولماذا تذهب يا عم "عزيز"؟

يزر عينيه، يقول وتحت ضرسه قطعة حشيش:

لأرى الأيام القديمة.

- لأرى الأيام الجميلة.

- لأرى الخواجة تحت شجرة النبق.

حين يقول شجرة النبق، تتسع عيناه رعبا، ويلقى بالكلمة- الرصاصة- في قلوبنا ويمضي في الغرزة يشرب السبرتو، ويظل يحكي عن العفاريت الشرسة الضخمة القاسية.

ولكن ما من أحد سافر إلى المديرية إلا ورأى من نافذة القطار- المكسورة- العدد الهائل من الأرانب.

- يسد عين الشمس.

- يأكل الأخضر واليابس.

- يختفي عند سماع صفارة القطار.

قليل هم الذين ينظرون من النافذة ليروها.

- الباب الذي يأتي منه الريح.. سده...

من هنا تبدأ السكة

قلب لصاحبتي هدى

نظرت هدى إلى قضبان السكة الحديد.

هيا نسافر.

لن نسافر.. سنذهب لنرى.

ثم همست:

لنرى العفاريت.

خافت وجرت. صرخت وفزعت. خاصمتني وصالحتني ثم جاءت.. وسألتني:

- ألن يأكلونا؟

قلت

- كلا.. فقط سنراهم من بعيد.

همست لها وأنا ضاغط على يديها الصغيرتين بيدي الباردتين

- سر لا يعرفه أحد.. لا يعلمه أحد.

مشينا بين "الفلنكات"

قلت لها:

- أراهم في المنام والصحو.. فوق الجدار وفي السقف والترعة، تحت شجرة "الزنزلخت" جلسنا، أفهمتها إما نراهم أو لا نراهم.

ها هي السكة. تفتح لنا أذرعها، وقضبان السكة الحديد سهم المسافات البعيدة، والشمس معنا رقيقة وطيبة. أدفأتنا الشمس فجرينا.. وقفزنا، وجمعنا حبات الزنزلخت.. والحبات الناعمة الصغيرة الخضراء لعبنا بها كالبلي.. رمينا بها كالمطر.. نثرناها كالنجوم.. نعدها كالنقود.

- هيه

رمينا به الشمس. ثم لم أر غير عيني هدي، حبتان صغيرتان عسليتان لامعتان ضاحكتان. هدى التي تصغرني وتحبني وأنا أحبها كأختي وأخاف عليها وأريد أن أتزوجها لما تكبر.

السماء صافية، والهواء حار، وقطعنا المسافات، خلفنا البلد.

دور ونخل ومآذن ومقابر.. ولا نرى الناس. خلفنا الصمت والهواء حار، وجف قلبي ودق بعنف، شعرت بالخوف.. كلما اقتربنا شعرت أنا بالخوف.

قلت لها:

- هل تعرفين حكاية الشاطر حسن؟

- أحب ست الحسن والجمال وأخذها على حصانه الأبيض.

الشاطر حسن لا يركب الحصان.. الشاطر حسن يركب البحار.

أهو الذي قتل الغولة؟

- الغولة لها عيون واسعة تخرج منها النار.

والشاطر حسن حارب الغولة، ذهب للغابة وأكل الموز والتفاح وشرب لبن العصفور.

العصافير تبيض.

للعصافير أعشاش جميلة. انظري عش العصفور فوق الشجرة.

وقفنا تحت الشجرة. والشجرة فوقنا، والشمس والسماء وأمامنا على البعد وابور الطحين، ومن على البعد رأينا شجرة النبق، فارتعدت:

- تحتها دفنوا الخواجة المقتول.

- تحتها تسكن العفاريت.

يا شجرة النبق

- لا أسمع عنها وآكل النبق وأحبه.. هل ستصعد إلى النبقة؟

- أنا أصعد على شجرة الجميز وشجرة التوت ونخلة البلح..

ولكنني لا أحب النبق.

عرفت كذبي فسكتت. ثم قالت خائفة:

نعود إلى دارنا.

لا تخافي.. الشمس جميلة.. والسكة واسعة.. والنهار طالع.

شجرة النبق تكبر تكبر.

أمسكت يدها بقوة، قلت وصوتي يرتعش:

لا تخافي.

قالت بهدوء:

- أنا لا أخاف.

- آه يا هدى لو تعرفين الحقيقة.. أنني إذ أخاف.

أريد أن أعرف وأنني مرعوب. أستولد الجرأة.

أريد أن أموت وأنام هادئاً.. وأكبر وأتزوجك وأحضر لك سريراً من الخشب وصندوقاً كبيراً وحنفية نحاس كبيرة لها صنبور صغير.. وابريق..

- الوابور

وابور الطحين مهدم.. طوب كثير.. جدران عالية، كتلة أسمنتية

ضخمة تطل منها عيدان الحديد الصدئة، حجر كبير وسيور جلدية.. و..

صرخت هدى. وقف قلبي.. نمنا على الأرض.

- الأرانب

ها هي الأرانب.. وها هي هدى.. وها أنا يا الله.

أنفنا في التراب لا محالة.. سوف نسخط الآن. أو سنحرق في لمح البصر.. أو.. هززت رأسي فخبطت في رأس هدى الصغير ذي الفيونكات الحمراء. أحسست بأنفاسها بجانبي، ثم رويداً رفعت رأسي.. الأرانب.. فعلاً الأرانب. أعداد هائلة، لها أحجام كبيرة وعيون حمراء ولون أبيض كالقطن الناصع، نظيفة كأنها استحمت تواً.

أرانب كثيرة كثيرة. رأت هدى الأرانب وقالت في سرور:

- جميلة جداً الأرانب.

بلعت ريقي.. أنها تتجاهلنا.. تأكل في فرح وتنط. أعشاب خضراء، وما يتسرب من الوابور، ولمساحة واسعة أمامه تكسرت فيه الشمس والتمعت شجرة النبق عالية شديدة الخضرة. انتصبنا على ركبتنا.. زحفنا إليها.. جروا.. جروا.. ثم عادوا.. عادوا في حذر.. ثم تجاهلونا مرة أخرى، بينهم أصبحنا.

ضحكت هدى بصوت عال.. فرحت أنا.. أرنب صغير صغير.. على غفلة انقضضتُ عليه، وأمسكته.. من أذنيه أمسكته.. صرخ

في يدي، صرخ بصوت رفيع حاد جميل، لم يستطع أن يفلت مني.. أخذته في حضني.. ضممته.. هدأ كالطفل. أخذته هدى في حضنها، وقبلته من رأسه، ومسحت على ظهره الناعم بيدها الصغيرة الرقيقة.. وضحكنا عالياً.

فجأة رأينا أمامنا- عم عزيز- وحين هممت أن أحدثه بفرح جرى وراءنا بعصا غليظة وأخذ يسبنا ويلعننا. وكلما بلغنا هوى بعصاه لنفلت منها وتقع على الأرض.. أخذ يصرخ كالمجنون. هو الأعرج ذو الوجه الخشن يرعبنا ويفزعنا، وما تزال السكة نورا.. والشمس طيبة، وكان القطار قادما بصفر، ونحن نرى أمامنا شجرة "الزنزلخت" وفي حضن هدى أرنب صغير له لون أبيض رائع الجمال.

# الديـــك الأحمـــر

منذ الصباح وهي تنادي، وتعبر من حارة لأخرى، غير أن صوتها قوى ما يزال، وقدميها الحافتين المعروقتين تعانقان قطع المربعات الأسفلتية الساخنة في ألم- وأن لم تحس ذلك بشدة- إلا أن الطفل الصغير ممصوص الوجه وراءها ضاق تماماً من سخونة الأسفلت.

شدت فتحية الطرحة السوداء مسحت وجهها القمحي النحيف، بلعت ريقها بصعوبة.. فتحت فمها الأصفر الأسنان ونادت مرة أخرى.

- ديك أحمر يا ولاد الحلال.

تجمع صبية الحي القديم ببطونهم المنتفخة وسيقانهم الرفيعة المتقوسة. التفوا بفضول طفولي وكل منهم يمسك عصا وعجلة من إطار حديدي سألوها في أصوات متداخلة.

- ديك أحمر يا خالة؟

أجابت بشغف.

- حد منكم شافه؟

ضحك الصبية تناثروا ارتطمت عجلاتهم بالمربعات الأسفلتية

وقف صبي جرى الأخرون، انتهوا إلى مكان آخر واسع في الخلاء المجاور للحي القديم.

فتحية لم تنته بعد من السؤال في كل الحي القديم بحثا عن الديك، لكنها انتهت تماماً من السؤال في حارات ثلاث ضيقة ومتربة وآهلة بالسكان "تمنت أن تجده بين أحضان عششهم) وخرجت إلى هذا الشارع الطويل يملؤها أمل في أن تجده وتراه بعرفه وريشه الأحمر زاهي اللون، مرت على كل الحوانيت الواطئة ذات الأبواب البنية الباهتة وسألت الباعة في الأزقة.. اقتربت من بائعة الحبوب.

- خالة جميلة.. ما شفتيش الديك الأحمر بتاعي؟

- أبدا يا فتحية.. ربنا يدلك عليه.

ديك أحمر يا ولاد الحلال.

عادت للنداء.

والطفل اقترب منها، أمسكت يده الصغيرة بطرف جلباب أمه وصوتها يجلجل في أرجاء الحي يسأل عن ديك أحمر.

عندما قامت في الصبح لتصنع الشاي لزوجها عبد الله، راودها الشك في أنها لم تسمع صوت الديك، ثم أرجعت ذلك إلى ليلة الجمعة المرهقة والتي لم تنم فيها إلا متأخرة..

زحف الصغير على أربع، امتدت يده البيضاء ترتطم بالفراغ، انقلب كوب الشاي، أحست اليد الصغيرة بسخونة شديدة، اغتاظ

عبد الله. ضربه بكف يده وسار. لم يكمل شرب الشاي. قالت فتحية وهي تمسح الحصيرة بخرقة بالية:

- يوم الجمعة فيه ساعة نحس

لم تعرف فتحية بالضبط الساعة النحس في هذا اليوم لكنها أحست بفال سيء، عضت شفتيها غيظاً.

ديك أحمر يا ولاد الحلال.

في الصباح كانت الكلمة على طرف لسانها كادت تقول للولد سعيد قوم شوف الديك.

مع الديك دجاجتان وبطة سوداء كسيحة على سطح صاحب الدار المتهالكة، اقتربت بنت سمراء ذات ضفائر خشنة قالت:

- اسألي عديلة بتاعة الفجل.

تمتمت فتحية

عديلة

لو أن الدنيا تبتسم هذه الساعة.. لو أنها تذهب إلى عديلة الجالسة أمام كوم الفجل الأخضر.. تلقي عليها التحية.. تسألها وكأنها لا تعرف بالتحديد أنه عندها (ماشفتيش الديك الأحمر بتاعي) فتنهض عديلة مبتسمة وتقول.

.. أهه يا فتحية.. خذي الديك.

هرش الطفل رأسه الحليق وقال لأمه السارحة في عديلة

- أمه..

- نعم.

- عايز عسلية.

لم ترد.

الرائحة العطنة المنبعثة من جوف البيوت قوية وحرارة الشمس أكثر شدة، الناس لا يبالون هذه الساعة فهم يشترون الخضروات- الرخيصة- للغداء ومنهم المتجه إلى المسجد من الآن.. ما زال أهل الحي يتحركون في تلك الخطوط القصيرة.. من الميضة.. إلى المسجد.. إلى السوق إلى النوم.

ذلك في أيام الجمعة.

وفي بقية الأيام العمل الشاق ثم النوم في جوف البيوت وصهد الأسرة الخانق. وأمس.. تأخرت فتحية مع زوجها حتى ناما، ولم تسمع صياح الديك.

- ديك أحمر يا ولاد الحلال.

صرخت تنادي على الديك مرة أخرى سمعت صوتاً لا تعرفه يقول متعاطفاً:

- دوري عليه.. حتلاقيه يا خاله.

قالت:

يا رب.. بحق صلاة الجمعة.. عشان حبيبك النبي تدلني عليه.

أسرعت الخطا. بجوار عمود خشبي كهربائي تجلس عديلة بائعة الفجل. ابتسمت عديلة قالت:

- ابدأ والنبي .. دي كانت فرخة بتاع..

لم تسمع فتحية باقية الحكاية. ضاع الديك. لا مفر. الديك أحمر وكبير، يغري بالسرقة (ألف من يتمناه) حتى إن طار وحط على أحد البيوت ربما لن يتركوه، الديك أحمر وكبير، لا يرقد فوق دجاجة إلا وبعدها تجري الكتاكيت على الأرض.

من الدجاجتين الموجودتين عند فتحية كانت تبيع البيض وعبد الله يحب أكله كثيراً. وذات مرة كبرت دجاجة وذبحوها، أكلوها، لكنهم اكتشفوا فيما بعد أن بيع البيض أكثر فائدة من أكل اللحم.

ديك أحمر يا ولاد الحلال

العثور على ديك هذه الأيام شيء صعب

لو أن الله يرجع لها الديك قبل صلاة الجمعة.

قال عابر في الطريق كأنما يتمتم لنفسه.

(عليه العوض)

قالت فتحية وهي تمسح بكف يدها الخشنة جبهتها العريضة:

- فال الله ولا فالك... حرام عليك.

وكان الصبي الذي يجري مع بقية أصحابه لا يزال سائرا وراء فتحية اقترب منها، قال:

- أنادي معاكي يا خالة؟

- ربنا يحميك لشبابك ويخليك.

صرخ الولد في حماسه

- ديك أحمر يا ولاد الحلال

منذ الصباح وهي تنادي، ولا أحد يجيب، ولا أحد حتى يخمن أين يمكن أن يكون، هل تراه الآن فوق سطح أحد البيوت يصيح بعرفه الأحمر في السماء ورأسه نحو الشرق أو تراه في الخلاء ينقب عن الدود ليأكل.. آه لو تجده.. وإن لم تجده ماذا سيقول عبد الله.. هل يخمن أن فتحية باعته.. لا لن يفكر في ذلك كل صباح كان الديك يقف مواجها الشرق ويصيح معلنا قدوم الشمس.

يضرب بجناحيه عدة مرات ثم يصيح، ترد عليه الديكة من كل الدنيا، ويأتي نور الشمس يفرش كل الأسطح والحارات فتنتعش الحياة.

خالة جميلة تبيع الحبوب.. عديلة تجلس أمام كوم الفجل، وعبد الله يغتسل يشرب كوب الشاي على غير ريق. دائماً تحس قدوم النهار بعد صياح الديك. اليوم لم تسمعه. لكنها ظنت أن إرهاق ليلة الجمعة هو السبب، وبعد أن نهض عبد الله انقلب كوب الشاي، سال على الحصيرة المتآكلة. قالت:

- ساعة نحس

قامت لترش ماء الاغتسال أمام الدار، ثم قبل أن تحمل الحصيرة المبلولة بالشاي تذكرت الديك الأحمر صعدت مسرعة على درجات السلم الخشبي.

على السطح.. أول ما رأت البطة الكسيحة- والتي اقترح

بعضهن أن تشرط ما بين أصابعها بالسكين، ثم الدجاجة الرزي، وقفزت الدجاجة البيضاء من داخل العشة الصغيرة الواطئة، أحست بالذعر، ركزت فتحية على ركبتيها. أدخلت رأسها داخل العشة الطينية الواطئة، الظلام يرقد داخل العشة.

عبثت يدها في الفراغ. لم تسمع صوتاً قالت:

- هش..

لم يجب الديك برفرفة من جناحيه أو بصوته المعروف، ضربت صدرها، أصفر الوجه القمحي تماماً، نزلت من على السلم الخشبي، وقابلت صاحبة الدار.

- خالة سكينة ما شفتيش الديك الأحمر!

لفت العجوز ببطء ولم تلق بالا لها، كادت أن تغلق باب مندرتها غير أن فتحية استوقفتها مسرعة.

- خالة سكينة.. الديك الأحمر فين.

أجابت العجوز في كلمات مكسرة الحروف

- نادي عليه،

جلست البنت الكبيرة مع أخيها الطفل، جرى الولد سعيد وراء أمه.

انطلقت فتحية تنادي بصوت عال مستغيث راجيا الناس أن تجيب:

(ديك أحمر يا ولاد الحلال)

زعق الصبي ويده متكورة:

ديك أحمر يا ولاد الحلال

لو تأتي واحدة تناديها

- فتحية الديك أهه

وتعود إلى الدار، تأتي بالباذنجان وتحضر الغذاء ويعود الديك يصيح ويجري وراء الدجاج سعيداً.

عبد الله لن يزعل لما يعرف أنها وجدته، تمنت ذلك، مسحت وجهها مرة أخرى بكم جلبابها الباهت والولد سعيد يمسح بظهر يده عينيه في ألم. قالت:

- نادى يا خويا.

قال الصبي قبل أن ينادي:

- أنت معندكيش غيره يا خالة

قالت في أسى:

- هو بس يا خويا.. ربيته وهو كتكوت.. راح فين بس.. وعندي فرختين وبطة عيانة.

انحنى الصبي ربط حذاءه الكوتش جيداً، قال:

- لو دورنا عليه كويس لازم نلاقيه

- يا ريت يا خويا. كنت أديك الحاجة الحلوة.

ماذا سيقول عبد الله بعد عودة من صلاة الفجر ويعرف الخبر؟ سيضربها.

نعم.

وهو معذور. تقول فتحية دائماً.

- حيعمل ايه بس.. كتر خيره.

قال الصبي

- هو جوزك بيشتغل ايه يا خالة؟

- جوزي.. كناس.

لم يرد. لمح صديقا له فناداه

- حمد.. نادى معانا على الديك

- ديك ايه

- ديك أحمر بتاع.. اسمك ايه يا خالة

- فتحية

- الديك الأحمر بتاع خالتك فتحية

قال الولد حمد وعيناه تلمعان ببريق ذكي.

- اسبق قدام ونادي الأولاد وكل واحد يروح شارع وينادي عليه

فجأة.. انتشرت في الحي القديم النداءات العالية

ديك أحمر

الحناجر الصغيرة تنتشر بين الحارات، تدخل جوف البيوت، الأقدام الصغيرة تجري على المربعات الأسفلتية، تتسابق، تنادي ديك أحمر يا ولاد الحلال.

اتسعت خطوات فتحية والولد سعيد يجري، نادت بكل ما تستطيع من قوة: ديك أحمر.. ما حدش شاف ديك أحمر.. ديك أحمر يا ولاد الحلال.

# الشتـــــاء

- لا تمت يا خال

الأرض الطينية مبتلة، والآهات الضعيفة لا تعبر مكانها.

لا تمت

الكلمات مكسرة الحروف مرتعشة، الموت أصفر في العيون، وفي العروق الزرقاء ثقيل وبطئ.

تمتم عبد الله ولم يسمعه أحد:

- والكفن.. لازم الكفن يا خال.

السماء غريبة، وواطئة والهواء البارد ينقل حفيف الأشجار القائمة كالأشباح على طول الطريق. وشريط مصباح الجاز يهتز وتبدو الوجوه كئيبة. خلع عمر طاقيته الخشنة عن رأسه، وضعها في حجر جلبابه المقلم وأعطى ظهره للخيمة. الليل موحش. ما أصعب الالتفاف حول الموت، الضوء كاب، ووجه متولي تفارقه الحياة على مهل. شيء ما يثقل صدره وما عاد قادرا على الكلام، ليس غير عينين ضيقتين خبا الضوء فيهما.

البرد ينفذ من ثقوب الخيمة ومن بين الأوتاد الخشبية.

يا لشهر (طوبة) اللعين. عمر يقلب في راكية النار لا يدعها تخدم ويغني لها في همس.. ويترفق بها.

أعمدة التلغراف لا يراها من خلال الظلمة، لكنه يرى ضوءاً بعيداً.. بعيداً.. قادماً من المدينة. ثم لا يلبث أن يختفي.

عبد الله يمد يده المعروقة الطويلة، يتلمس جبهة المتولي الممد بلا حراك. الخيمة قائمة وسط الفضاء، الغيطان الفقيرة تمتد من كل جانب، النباتات الشيطانية الصفراء على شطوط الترع، وشجرة الجميز على الجانب الآخر لم تثمر بعد، وشجرة التوت قال عنها الخال المتولي أنها ذكر.

السكة الأسفلت- بين الغيطان وشريط السكة الحديد- ضيقة وملتوية لا تمر منها السيارات الآن. هي سكة غير مأمونة، الكلاب انكمشت بعيداً ولا يسمع نباحها.

لهب النار الأحمر والشرارات الصغيرة الزرقاء تنعكس على وجه عمر. الشاب أكثر نحولا، وذقنه التي يفكر في حلقها منذ ثلاثة أيام شديدة الاتساخ. وضع الطاقية الخشنة بجانبه فوق قليل من أوراق الجافة. زحف عبد الله في حذر وسحب غطاء عمر ووضعه فوق المتولي. وضع ظهر يده على أنف الخال، أحس بحرارة النفس ودبيب الحياة. برز نتوء وجه المتولي تحت شاربه الأبيض الكث، وضع عبد الله "الحمل" فغطى الجلباب الأبيض المتسخ. المتولي في

ثبات تام، ليس غير أصابعه المفلطحة التي تتحرك أحياناً والدموع الدافئة تبلل وجه عبد الله.

- لا تمت يا خال.

الأجر نهاية الأسبوع.. والمدة لم تنته بعد. لا تمت يا خال.. لا تمت. باقي ثلاث ليال حتى يمكننا أن نحضر الكفن، والصابون.

الجبن القديم والسريس الأخضر وخبز الفلاحين يحتاج كل النقود القليلة. كان المتولي يجلس في الشمس يلمهم حوله ويكسر "فحل البصل وعدد فوائده، ويعد الشاي والسجائر اللف يقوم النقر منهم كالحصان.

تقلب الخال في ألم، تأوه بصوت خفيض.. قال كأنهما يحلم:

- ربيع

كان يقص عن شقاوة ربيع.. وعن وجه ربيع.. ويحكي لهم عن "الوحمة" البني في صدغه الأيسر ويقول أنها بسبب اشتياق أمه لأكل الكبدة، ويضحك المتولي فتظهر أسنانه الصغيرة الصفراء. المتباعدة عن بعضها.

ما الذي عرفها بالكبدة بنت الكلب؟

لم ير "ربيع" منذ ترك "فيشا سليم نواحي طنطا. تركه مع أمه ما يزال صغيرا ومع أحد المقاولين ذهب إلى السد العالي بالصعيد.. ثم ذهب إلى معبد أبي سمبل.

- احك لي عن السد يا خال.

فكر طويلاً ثم قال في تلعثم.

- السد.. كبير كبير.. كان هناك خواجات روس بوجوه حمراء.. وأفندية عرب.. و.. عمال .. وكنا نشتغل جميعا طوال الليل والنهار.

وكل ما يتذكره عن أبي سمبل هو البعوض في حجم ذباب القبور.

تحملني بلد.. وتحطني بلد.. ولما رجعت لم أجد "ربيع" ولا أمه. انشقت الأرض وابتلعتهما.

وبعدين يا خال.

وهبت نذرا لسيدي أحمد العارف بالله شيخ العرب أحمد البدوي، ولكن شيخ العرب لم يقبل النذر.

سكت طويلاً.. كان ينبش التراب بعود حطب قصير.

قال:

نفسي أشوف "ربيع"

وبكى الخال. بللت الدموع وجهه العجوز وسقطت على جانبي فمه.

نحن أولادك يا عم المتولي.

كم ثمن متر الدمور؟ وكم من الرجال سيبكونه ويحملون نعشه؟

وقراءة القرآن أيضاً في حاجة إلى نقود. مرة آخرة سب عمر في سرة الريس اللعين.

الليل يكبس بوحشته، شتاء هذا العام طويل، يلفهم ببرودته، كل

الملابس فوق الأجساد النحيلة بلا جدوى، لو أمطرت الليلة لمات الجميع ودفن الخال المتولي بلا كفن.

يسمع عمر الحركة داخل الخيمة.. الموت ممدد. لا فرار في يوم قادم من ميتة كهذه. استغفر الله العظيم، وعبد الله يترقب طلوع الروح. كل ما يمتلكه الأرز وثلاثون قرشا والدعاء والصلاة من أجله.

- يا رب يا غفور ارحم عبادك.

ولا يكف عبد الرحمن عن ترديد القرآن في همس.

تحت السحب لابد أن هناك نجمة تلمع.

عاد ينظر إلى الضوء الذي يختفي في قلب الظلمة.

مر خاطر في ذهن عمر: حين يموت الخال سيحس الدفء في قلب التراب.

اجتاحته رغبة في النهوض والذهاب إلى شريط السكة الحديد.

بعد ثلاثة كيلو مترات محطة صغيرة، ربما وجد عشرة قروش فضية. يبحث بين القضبان والفلنكات والزلط الصغير.. والرصيف.. والتراب.

- الكفن غال.. وسعر المتر من الدمور غال.

عض شفته السفلى، ولعن الريس.

بحث بعينيه المكدودتين عن ضفدع صغير يمسكه في راحته على شاطئ الترع كان الضفدع بين يديه الصغيرتين ينتفض.. ينتفض.. تمنى لو يسمع نباح كلب. ما أحوجه لأن يسمع صوتا..

أن يغني أحد.. الكلاب الآن بعد السكة الحديد حيث العمال وبقايا الطعام ولعلها نائمة لا تفكر في كفن أو أغطية.

- يا ريس غرباوي كلنا أولادك.

- يا ريس غرباوي.. الفلوس.

- الكفن يا ريس.. الكفن.

صمت الريس في غيظ، عدل ياقة جلبابه الصوف.

قال:

كلمهم يا برعي.

نهض البرعي من مكانه مثل فحل الجاموس، وضع يده في جيب البالطو الكاكي.

قال في خشونة:

- الأجر في آخر الأسبوع.. يوم الجمعة بعد صلاة المغرب.

أشاح الريس بعصاه ومشى مسرعاً.

رائحة العرق القديم ما تزال بجلباب المتولي.

أحمل.. أحمل.. أهدم.. الفأس.. الكوريك.. الغلق.. التراب والآجر. يبتسم الخال، يخرج علبته الصفيح ويلف سيجارة، ويركن إلى شجرة التوت الذكر. مسح عبد الله دموعه المالحة بكم جلبابه المعفر- لو يخرج إلى القرى يلفها بيتا بيتا. ويسأل أن يحميهم الله من شر السؤال، ويتبرع كل واحد منهم بقرش تعريفة.

أنا غريب.. هيلا هيلا

في الضوء الشحيح رمش بعينه، وفكه الأسفل يرتعش في عصبية.

الليلة ستكون ليلته. عزرائيل الموت قابع في الخيمة لن يخرج إلا معه روحه. يا رب رحمتك. ارتفعت اليد اليمنى للمتولي، بالكاد ارتفعت من تحت الحمل.. صرخ عبد الله:

- عمر

ارتعب عمر. قال في نفسه "الخال نطق بالشهادة" قفز إلى داخل الخيمة. أشار الخال المتولي إلى فمه الجاف. قال عمر:

- هات الماء

صفيحة الماء الصغيرة في الركن، مد عبد الله يده ومال بجذعه، وأحضرها. الصفيحة زرقاء عليها أسد أصفر اللون، مكتوب على الصفيحة "دسم السبع" عمر كان يقلد رسم السبع على الأرض. حاول المتولي القيام فسقط جسده الضئيل الواهن لم يستطيع حمله، ساعده عبد الله، ركز على ركبتيه، وأخذ الخال على صدره.

ربيع

- لا تخف يا خال

المياه الباردة تسقط من الفم الجاف، يشرب المتولي، لا يغمره الإحساس القديم بالماء فقد طعم الأشياء حتى شرب المعسل والشاي الثقيل. نام برأسه على الغلق الجلدي الملفوف بملابس عمر وعبد الله، غطياه بالحمل، وفي جيب صديرية المتولي بطاقته الشخصية

البالية، وأوراق باهتة متآكلة. مال إليه عمر وأخذ يقرأ في أذنه سورة من القرآن- لم تكن غير الصمدية- وحين انتهى منها انسحب إلى الخارج. في الظلمة يكون البرد لكن راكية النار تشع الضوء والدفء، والأجساد النحيلة المتعبة في انتظار لحظة الموت. وعبد الله يخاف أن يموت الرجل في المساء. طول حياته يكره الليل. في الليل يبيت الناس ويصبح الرزق مخنوقاً داخل البيوت، وفي الجيوب. لو مات الخال الآن سيظل يبكيه حتى الصباح. قالت أمه النحيفة- مثل عود الدرة- أنه بات بجوار أبيه الميت ليلتين. الليل كان زمان في الحواري الضيقة.. وكانت أحب أيامه هي الثلاثاء والجمعة في سوق البهائم والفلاحين وزحمة السوق.

يجر الفلاح بهيمته حتى خارج السوق ويعطيه الفلاح الغني قرش صاغ.

مدد عبد الله رجليه وأزاح بلغته البنية القديمة. مد يده.. وضعها على جبة المتولي.

الرجل ساخن وفي عز "طوبة" يغسله العرق.

- العشرة لا تهون إلا على أولاد الحرام.

من سنوات فقر بعيدة وهو يعرف الخال المتولي.

يأخذه الخال من يده يلف به من مقاول لآخر. من رصف الطريق إلى حفر المجاري إلى تنظيف وتوسيع الترع. نفس النقود الشحيحة، ومن شتاء طويل إلى صيف جاف نفس الشتاء.. والريس.. والمقاول.. والأنفار.

- خلقنا يا عبد الله للتعب.. والغلب.

- أيوه يا خال.

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين

- أيوه يا خال.

فوق الصدغ الأيمن للمتولي وشم أخضر لعصفورة صغيرة لها رأس طاووس.

يقول أن أباه أخذ يوماً لواحدة من الغجر ودقت له الوشم.

يجلس الخال متولي تحت شجرة التوت الذكر ويحكي لهم قصصا عن العفاريت والقتل والسحر والنساء.

- ربيع.. نفسي أشوفه.

كانت أم عمر تقول للصغار وهي تلمهم في أحضانها:

- يا أولادي.. الدفا.. عفا.

في الصبح سيلتفون حوله.

- يا ريس غرباوي الله لا يرميك في ضيق.

بالداخل تفح رائحة الموت، والأجفان ثقيلة. حين يموت الخال سيقفون أمام المقاول في رجاء ليقرضهم مبلغا ليأتوا للخال بالكفن. لعن عمر المقاول وقصر اليد معا والشتاء الأسود، شد جاكتته الصفراء-سترة جندى اشتراها قديمة- وضع الزر الوحيد في العروة الواسعة. النار تبعث الدفء تتألق عيناه البنيتان في الضوء. يفرك يديه. يحلم بالأيام الفائتة.. عندما يجلس الأهل

فوق المصاطب وتلف أكواب الشاي والجوزة والحواديت المسلية التي لا تنتهي كان الأب يأخذه في صدره حتى يغفو.

أخذ عمر يترنم بأغنية قديمة، وكان صوته الحلو حزيناً خافتاً.

"يا صدر أبويا الطيب

نفسي أضمك قريب"

شعر عمر بالبرد. لبس طاقيته. حرك في النار أكثر، وفجأة سمع صوت حركة قادماً من بعيد.

أطرق برأسه يتصنت.. مزق السكون صفارة قطار.. صفارة طويلة.. حادة تشق قلب الليل، وكانت هناك جلبة انتعش لها عمر، الصفارة شريط طويل واعتلت وجه عمر ابتسامة مكسورة. أقبل قطار الليل الضخم يهز الأرض. الصفارة تغمر المكان كله برعشة جديدة. في قطار الصعيد كان يذهب مع الخال المتولي. زحمة كأنه يوم الحشر. في داخل القطار أناس مسافرون.. يحملون أمتعتهم. لابد أنهم ينعمون بالدفء. والنوم.. لكنهم غلابة لأنهم يسافرون في هذه الساعة البعيدة. لو يرحلون معهم في هذه الساعة، ويتركون الريس لتأكله الكلاب وتنهشه الحدآت، لو يجلسون في طرقات القطار، يضحكون، ويحدثهم الخال عن السد العالي، وهو صغير كان يسافر إلى مولد إبراهيم الدسوقي. يتذكر.. السردين.. النهر الواسع.. الكوبري الحديد، اللبن الرائب.

يلف القطار الدنيا كلها، يمر على النجوع.

القرى.. المدن، ويرمي لكل مكان أهله وأصحابه.

هبت ريح باردة.. السحب ثقيلة.. ثقلية. انتفض الجسد الواهن في الخيمة، الأنفاس خافتة وتموت. الخال في رقدته ممده في سكون، أحس البول الدافئ يغمر نصفه الأسفل، ونزلت دمعة الموت الكبيرة بيضاء. وعبد الله يتطوح يميناً وشمالاً من سنة النوم. ضجة القطار تخفت ولم يعد يسمع لها صوت. راح القطار بعيدا ربما إلى الصعيد كانت وجهته. وقال الخال ذات يوم:

- أنا من الصعيد

الموت في الغربة حرام.. حرام يا خال. لماذا يتذكر الصعيد ولا يعرف منه إلا الوجوه السمراء النحيفة وعيش الشمس. لن تبكي امرأة. ولن تلطخ وجهها بالطين.

- حرام الموت يا خال في الأرض الغريبة.

لابد من الكفن.. والصابونة. والشيح. فرغت عيدان الشجرة الجافة.. ستخبو النار قبل تنفس الصبح.

في المحطات الصغيرة سيقف القطار، وتعلو ضجة الفرح بالوصول. ويكتم الناس أحزانهم في قلوبهم المتبعة.

تتشح أمه بالسواد دائماً.

- الفراق يا ولدي صعب.

لطمت وأجهشت بالبكاء. ثم لم ير أمه من يومها.

يا وابور الساعة اتناشر.. يا مجبل على الصعيد

- يا وابور.. يا.. وا...بور

صر "عبد الله على أسنانه وأخذ يقلب راكية النار الخابية.

لابد من السهر أمام الخيمة خوفاً من ذئاب الحقول.

حط الصمت على الأشياء، وما عادت الأصابع تتحرك، والقطار راح إلى البعيد.. راح بكل المسافرين.

# الجريـــــدة

ها هو يضع الكرسي الخشبي أمام الدار ويجلس كي يقرأ الجريدة.

في أيام الصيف يجلس مرتديا الجلباب الأبيض. وفي أيام الشتاء يرتدى البيجاما وفوقها الجاكت القديم. وفي كل الأحوال لا يبدو سعيدا.

أمام الدار مساحة ضيقة من التراب الناعم. وجذع شجرة قصير.. جاف، من الدار تنبعث رائحة الرطوبة، السكون، الوحدة، ورائحة كريهة.

يعدل نظارته البيضاء سميكة الزجاج، تبدو غير مستوية على وجهه، مائلة من ناحية حاجبه الأيمن قليلا. يشد جلبابه ليغطي الحذاء، حتى يشعر هو ابن الخامسة والأربعين بالدفء، ويضع كوب الشاي بجانبه- على الأرض- فهو حين يستيقظ من النوم يشعل وابور السبرتو، يضع فوقه الكنكة ذات اليد الخشب المتآكلة، يصنع الشاي، يغسل وجهه من الصنبور الوحيد بجوار دورة المياه. ويمشط بقايا شعره على جانبي رأسه بمشط أسود في مرآة صغيرة

معلقة فوق الصنبور، ثم يصب الشاي في الكوب الزجاجي النظيف، ويشد الكرسي الخشبي ويخرج أمام الدار حيث يجلس. يشعل سيجارته الأولى، ويفتح الجريدة.

الشمس تطلع في زهو، وتصبغ العالم بالنور، وثمة فرحة دافئة تغمر المساكن الشعبية- رغم المجاري الطافحة والعفونة والطين- الشمس تدخل من النوافذ الزجاج، ترتمي على الأسرة الحديدية، والخشبية، والمناضد، والحلل الألومنيوم، ولا تقرب التلفزيونات ولا الصور الزيتية الردئية.

من أي نافذة بالمساكن الشعبية يرونه في الجهة الأخرى أمام داره الصغيرة وهو يقرأ الجريدة.

داره بباب واحد.. حجرة واحدة. استأجرها زمان بعد موت أمه وأبيه، وزواج أخته الوحيدة من تاجر ماني فاتورة، استأجرها زمان بمبلغ تافه. الرطوبة تنشع في الجدران، تصل حتى حافة النافذة، تساقط طلاء الجير وبدت الدار كالحة.. قديمة.

حين يدق بائع الجرائد ثلاث دقات فوق الباب الخشبي، يفتح الرجل، وأحياناً يمد يده لو كان خارجا من الاستحمام.

بائع الجرائد: صبي يركب دراجة ليست لها أجراس..أو بوق.. هي دراجة قديمة كان أبوه يركبها قبل أن يموت. كان أبوه محبوبا يوزع الجرائد على الناس في شيئ من الفرح، كان الناس يجالسونه، يشترون المجلات والجرائد. لكن الصبي وراث بيع الجرائد

متجهم... عصبي، لا يعامل الناس بالحسنى، يقذف الجرائد من البلكونات أو من تحت عقب الباب، أو يدق بعنف على الباب أو يرن الجرس. ولا يقول صباح الخير.

الرجل ذو النظارة لا يحبه، ولا يضحك معه، ولا يشتري منه جريدة واحدة.

زمان كان الرجل يشتري الجرائد الثلاث، والمجلات الأسبوعية والشهرية، ذلك قبل أن ينفذ الميراث الضئيل، وكان يشرب شاي الحمامتين وخان الخليلي. واليوم لا طعم للشاي، ولا... لشيء نفخ الرجل: أف.. أعوذ بالله.

إذ شم الرائحة العطنة مع نسمة هواء قادمة من ناحية المساكن الشعبية. نفخ في زهق، نظر للسماء الواسعة وبصق.

وكان أن انتهى من الصفحة الأولى. وفرك بحذائه عقب السيجارة.

اقترب الكلب الأسود الذي يأتي كل يوم، يقترب من الرجل في حذر، فينهض الرجل في فزع ويضع الجريدة تحت أبطه، ويمسك بالكرسي الخشبي.

- يا ستار.

تتسع عيناه فزعا. إنه يكره الكلاب، يخافها، يسبها في سره، يلعن إشاعة الوفاء عندها، يرى أنياب الكلاب وعيونها.

يقفز من فوق سريره الخشبي كلما سمع النباح. أحيانا يتابع

الكلاب بانتباه شديد من وراء زجاج النافذة وهو جالس القرفصاء على السرير.

وقف مستعداً. الجريدة تحت أبطه والكرسي في يده. هز الكلب الأسود ذيله، اقترب من جذع الشجرة الجافة، رفع رجله.. وبال.

بصق الرجل، عدل نظارته على حاجبه الأيمن، جرى الكلب ناحية المساكن.

جلس الرجل فوق الكرسي الخشبي، أخذ يقرأ صفحة الحوادث ليرى السارق الكبير، والأم التي قتلت طفليها، والسيدة الراقية التي قتلت خادمتها بالكي بالنار، والرجل الذي ضاجع ابنته.

رجع للوراء.

يا سلام على هذه الدنيا الواسعة.

وهز الجريدة بفرح.

ولما عاد الموظفون من أعمالهم، وحين ازدحمت الأتوبيسات التي تدخل المساكن أدرك أن الساعة تخطت الثانية ظهراً فقام، طوى جريدته برفق، ومسح المكان بعينيه.. ثم حمل الكرسي الخشبي بيده اليمنى، ودخل داره.

الظلمة في الداخل. الصالة ضيقة خالية.. بلاطها مكسر، دخل حجرته الوحيدة، وضع الجريدة فوق الوسادة وتحت النافذة تماماً. خرج. أعد الغداء إذ فتح علبة "السالمون وعصر عليها نصف ليمونة، وأعد الشاي، وأخذ يطالع الإعلانات وهو يأكل. يطالعها

باهتمام شديد: الشامبو بالنخاع، الشامبو بالتفاح.. السيجارة الطويلة.. والسيجارة ذات النكهة.. والبنت ذات الشفاه الجذابة.

غسل يده من الحنفية، تمدد على السرير، وأخذ يرشف بلذة. فتح الجريدة على صفحة المرأة. امرأة شبه عارية.. القوام سليم.

ترك كوب الشاي الذي لم يفرغ بعد. أشعل سيجارة على مهل، تمدد باسترخاء. المرأة..، بختك اليوم، صدق أو لا تصدق.

الجرائد بالحجرة تملأ الأركان.

- الثقافة بحر واسع.

هو الذي يعرف أخبار العالم، والحروب، وسعر الذهب. هو الذي ينام والعالم كله في مخه وبين يديه.

عمر طويل انتهى بالجلوس أمام الدار، وبهذه الحجرة الضيقة، وبين هذه الجدران.

البرد يلفني.

شد الغطاء حتى كتفيه، جالت عيناه بالجدران. رأى شراسة الوجه والصورة المزوقة.

- ها أنت وأنا خاسران.

صورة رجل مزهو بنفسه وبالكاب.. تحيطه النجوم واللآلئ.. والسيدات.. وعدسات التلفزيون.

الحائط باهت اللون، والجدران تنشع فيها المياه.

- انتظرتك.. وعدتني ولم تف. ولم أرك.. وماذا نفعل بدونك؟ ما نعرفه خير مما نجهله.

انكمش.

- ها صورتك عن يميني.. وعن شمالي..

أنا في أمانك إذن.

هو في انتظار شيء خانق.. ثقيل.. سيحط على صدره ثم يزهق روحه. المذابح.. الاغتيالات.. الخيانة.

- وأنت..

الممثلة الجميلة بالألوان. مايوه.. صدر عار، وسلسلة ذهبية بين النهدين.

ينزل عليك النجم العالمي، ينام بين الدفء والويسكي.

تقلب في عصبية.

أشكرك يا أبي الذي في المقبرة، يا من وهبتني قراريطك، وجعلتني بعيداً عن الوظيفة حتى أقرأ... وأقرأ.. وأقرأ.

نبح كلب. اعتدل الرجل مذعورا.

- كل هذا العالم ملكي أنا.. لقد انقطعت عن الناس الشر المقيت، لشراهتي في متابعة الدنيا، عرفت الحلال من الحرام، الأبيض من الأسود، الزوجة الخادعة، والابن غير الوفي.

ثم.. نام.

كهف تخرج منه الأبخرة والأدخنة، والأنفاس حارة، وهو يزعق ويهتف، وشرح بحرارة وانفعال، بيده اليمنى جريدة، وبيده اليسرى جريدة، الحرارة تحرق البدن، وتمشي الحشرات على جدار الكهف،

وعلى الوجوه الصفراء الحزينة، ويصفقون، عيونهم جاحظة.. مرعوبة.. قلقة. هو يلهث ويفتح الجرائد صفوف. أهرامات.. أهرامات من الجرائد. تغوص الناس في حشرجة أليمة. بختنق.. لم يعد أحد يصفق. يزعق فيهم، يرى الأب تحت العيون الجاحظة مدهوشا ممزق الأشلاء، يهرع الناس من الكهف في شلال هادر من العرق المالح.

نبح الكلب.

فزع الرجل من نومه، عرق غزير على جبهته وفي قفاه، كان يلهث:

- ذات الحلم.

الحلم الذي رواه لزميله موظف الأوقاف، ولعدد من الناس القليلين الذين عرفهم في حياته. أطل من النافذة، كانت شمس الأصيل تلون الدنيا بلون هادئ وطيب.

- كاذب.

شد الكرسي بيده اليمنى. خرج من باب الدار. جلس. ركن برجله اليمنى على جذع الشجرة الجافة، فتح جريدته، ودهش إذ خسر بطل الدوري أول مباراة في الكأس.

انعكست الشمس على نوافذ المساكن، وراح يتابعها. شمس هادئة. ها هم يذهبون على المدينة بالأتوبيس، ويعودون.

أولاد.. بنات.. صبية.. آباء.

يحلمون الحقائب.. البرتقال.. بالحدائق الكبيرة برتقال.. يأكلون ويلعبون.

الأب مع الابن.. الولد مع البنت.. البنت مع الولد..

حدائق واسعة.. خضراء.

شمس في لون البرتقال. كبيرة كبيرة.. برتقال.. حدائق.

فر إلى داخل الدار محتضنا جريدته. ما تزال الدار باردة.. وحنفية الماء تنقط بلا توقف.

طق

طق

طق

أين تسهر هذا المساء؟

أفلام أمريكية. مسارح خاصة. نوادي ليلية.. كباريهات.. بيوت سرية.. زوارق نيلية.

السوفيت.. الأمريكان، الصراع، الشرق الأوسط.

أشعل وابور السبرتو. أخرج علبة السجائر. قلم رصاص.. استيكه.

الكلمات المتقاطعة.

لقب زعيم نازي.

لم يفكر طويلا.

في الليل يقفل الباب بالمفتاح، ويقفل باب دورة المياه، يلبس

البيجاما القديمة، وهو الوحيد بلا زوجة أو أم، يتناول العشاء من الفول أو الجبن، يتمدد على السرير، مكانه الوحيد حيث يطل من وراء زجاج النافذة عندما يمرض أو عندما يهطل المطر.

تحسس بعينيه كل الجرائد والصور. خلع نظارته، عيناه تؤلمانه، أدمعت، مسحها بيده الباردة.

رشفت بقايا الشاي. في الليالي التي يأتيه فيها صديقه موظف الأوقاف يكون سعيداً، تطول الأحاديث والمناقشة، يشعر بقيمة الجريدة حين يجادل، ويحن يذكر مئات الأسماء السياسية والأدبية والرياضية الشهيرة، وعادة ما يخرج موظف الأوقاف سعيدا أيضاً بعد أن يشرب كوب الشاي. هو لم يأت من فترة طويلة.

صمت ثقيل يحط على الأمكنة الوحيدة. وبرودة تعانق الأجساد الهزيلة. تابع الصور التي على الحائط، تابعها في اندهاش.. كم من العمر مضى ليجمعها، شد الغطاء حتى رأسه، لم يشعر بالدفء لم يحس سوى بقلبه الوحيد الذي تسرع دقاته بلا معنى.

نظر للسقف الواطئ، وللمصباح المغبش، بالسقف شقوق سوف تتسع وتتسع حتى يرى السماء وتطل النجوم، ويمسك القمر. أم ترى القمر سيفر منه كالأيام التي انفرطت ودخلت الشقوق. الجرائد.. الجرائد.. فيها تعرف سر العالم ومقصده.. المخلوع عن الكرسي والقادم إليه، أخبار الموضة، والفنانات، والاغتصاب والإرهاب.. و.. وعلت الجرائد أكواماً فوق أكوام. الجرائد تكدس

الحجرة الضيقة في كل الأركان، تمتص الأكسجين وتخرج حبر المطابع، تتقافز الصور والحروف فوقك، تحاصرك، تحط على دماغك وأنفاسك.

نبح الكلب نباحا عالياً.

في صباح اليوم الثالث: فتح أهل المساكن باب الدار، فوجدوا حنفية الماء تنقط، ووابور السبرتو بارداً، والرجل ممدداً على السرير ميتاً. وهالهم منظر الجرائد العديدة: الوقائع، المقطم، الأهرام، الأخبار، والصور التي على الحائط.. صورة القادة.. ولاعبي الكرة، والممثلات الشهيرات. وعلى الحائط شرائط طويلة من نعي صفحات الوفيات.. شرائط طويلة، وصور كئيبة. وصرخ الناس رعبا حين رأوا الفئران تمرق من بين أرجلهم في فزع.

# قصص لم تنشر في مجموعات

# فتاة وقبعة من قش

حين توقف القطار قليلاً بمحطة ليس لها رصيف وقفزت أغترز حذائي في زلط ينحدر حتى الغيطان، غمرني فرح، ومسحت بعينيي خضرة المكان كله، وحطت في صدري كل الروائح المعطرة التي حلمت بها، وأخذني طريق ترابي بين حقول، ورحت أتأمل بالكاد بعض الطيور، كنت أريد طيوراً من كل شكل ولون ترفرف وتغني، لكنه الصباح الخريفي ربما حجبها شممت راحئة الخبيز فمررت بين بيوت صغيرة من طوب أحمر ولاحظت بسهولة أجهزة التليفزيون في صدرت البيوت بجوار الزير أو قاعدة نورج قديم. تمتمت لنفسي كم أنا محظوظ، أنا موظف التربية والتعليم لأنني جئت هذا المكان البعيد، وسأعمل في مدرسة الشهيد عبدالرحيم الإبتدائية.

ما إن رأيت الكلاب وبعض الأوز وبعض الأطفال حتى أدركت أن البناء القادم سيكون هو المدرسة، ولا أعرف كيف طلعت علي ووقفت فوق كوم القش فتاة سمراء بعينين واسعتين وعلى رأسها قبعة من القماش. هزت قلبي من طولها الفارع وابتسامتها الموحية في صباح باكر، ابتسمت فابتسمت ومدت يدها لأسفل لتلوح لى

بخجل وارتباك وفرح. ساخت روحي وأومأت لها برأسي، وكان عليّ أن أمضي رغم تعثر خطواتي. إلى ان وجدتهم في طابور الصباح.

انتبهت إلى أنني في موعدي، وأنني حين استقيظت فجر اليوم كان الجميع نائميمن ما عدا أمي التي جهزت لي كوب شاي باللبن وقطعة الجبن والمربى، وأن شارع المدينة كان في لحظة صفاء نادرة.

مد يدين غليظتين في وجهي مرحباً وشدني حضرة الناظر لأقف بجواره لأشاهد اللحظة التاريخية لطابور الصباح. شممت رائحة البصل تفوح من فمه. كان سميناً ويقف بجدية، ووشم أخضر باهت على صدغه الأيمن. تشاغلت برؤية التلاميذ فأصابني هلع إذ أنهم لا يرتدون الزي الموحد، يختلطون في الجلاليب والقمصان. تلفت حضرة الناظر فوجدته يرتدي البدلة بنية اللون وفي قدميه حذاء بني لامع ومن جيب الجاكت يطل منديل أبيض بقوة في حين ..

تحيا جمهورية مصر العربية.

هكذا انطلق التلاميذ بقوة. ابتسم الناظر وكان في غاية الرضا والتلاميذ في غاية الشحوب، حاولت عبثاً تأمل الوجوه، فكلها وجه واحد يردد في عصبية. تحسست خطاب انتدابي لمدرسة الشهيد.

غير صف الفصول توجد حجرة وحيدة؛ حجرة الناظر والمدرسين والموظفين والعامل، حجرة صغيرة بها ثلاثة مكاتب كالحة اللون، وبعض الملفات المتهرئة. رحب بي الناظر وهو يمسح بمنديله قطعة الزجاج المربعة فوق مكتبه، ولما سألته عن الشهيد

عبدالرحيم .. ابن عمك خليل الفقي .. كان عسكري مطافئ

واستشهد وهو يساهم في إطفاء حريق في البلد.

ثم اندفع يحدثني بفرح واستغراب وإعجاب عن قريب له رجع من القاهرة أم الدنيا ومعه خدية لابنه عبارة عن سيارة تسير وحدها تنحرف وتسير سكة أخرى.

تخيل يا أستاذ!

قدمت له اسمي، وادعى أنه أحبني من اول نظرة وطلب شاياً. أخذتني الحجرة الضيقة قليلاً. نافذة صغيرة ودولاب خشبي .. ياه إنه تحفة فنية قديمة. ضحك الناظر كثيراً وقال بالفعل إنه دولاب جدته وقد احضره ليساهم في أثاث المدرسة، تلك المدرسة المتنائية في قلب الغيطان، لا يأتيها ضيوف أو موجهون أو حتى درج جديد.

ولكن ماذا نفعها يا أستاذ والناس تريد التعليم؟ ثم عاودته الدهشة وسأني كيف تصحح سايرة بدون سائق مسارها وتتحاشى الإصطدام بباب الحجرة!!!

اتسعت ابتسامتي لرؤية مروحة هواء كهربائية من طراز قديم قديم جداً موضوعة فوق الدولاب، لم أكتشف لونها الحقيقي من كمية التراب الهائلة التي حطت عليها و ماهذا؟ فتحت فمي دهشة فقد كان الإطار غريباً، إطارة صورة عتيق معلق على الحائط وكانت بداخلة صورة البكباشي جمال عبدالناصر بزيه العسكري في بداية الثورة.. بكباشي أركان حرب. والصورة تؤطرها من الداخل تيجان الملك فاروق! هنا ضحك الناظر موضحاً:

كان لابد من وضع صورة للرئيس، ولأن الإطار عهدة وضعنا الرئيس فوق الملك.

وكأنه سمعني بجدية:

- نعم

قلت بجدية أيضاً:

- ولكن أين صورة السادات؟

ضحك طويلاً وضرب يداً بيد، وقال:

- ياه .. هذا موضوع كبير، لابد أن ترسل المديرية صورة للإدارة، ثم ترسل الإدارة صورة للمدرسة، والمدرسة في قلب الغيطان.. كيف تصل الصورة يا سيدي؟ مشوار. لكنها ستأتي. ثم غمز وقال:

بيني وبينك أفكر في شراء صورة على نفقتي الخاصة

ثم نهض فجأة وهو يقول:

كله الآن عال العال

ومضى يهز في يديه وكرشه السمين.

خرجت بوهن من الحجرة الوحيدة الضيقة. فاجأتني شمس قوية، وكلب يجري بسرعة تجاه بوابة المدرسة المفتوحة، فيما نهض بكسل شديد عامل البوابة ومسح جلبابه بيديه وحبك طاقيته فوق رأسه. وعندما جلسنا معاً بجوار الجرس وفي ظل الجدار سأل عن سبب ضيقي ولم يفهمني، تنهدت، فقال كمن وضع يده على السر:

- آه .. الغربة .. أنت ابن المدينة .. ونحن في البراري..

- والمواصلات ..

خلع طاقيته وابتسم، وقال وهو يتفحص نسيجها:

لا تحمل هماً    عندي لك حجرة فخمة، لأرضها بلاط ولسقفها عروق خشب، ولبابها مفتاح.

ثم مال علي وهمس:

- أنا بقار حضرة الناظر    أرعي بقرة    و    و    عندي لك عروسة.

تأملت عينيه الجادتين. أردف:

- تخدمك بعينيها، ولا سفر ولا غربة ولا

نهضت ومشيت حتى شجيرة جافة يرعي النمل عليها. لحق بي الرجل، وهمس:

- سرير ودولاب    قمر.

وعندما انطلق التلاميذ في الفناء الضيق شعرت بضيق كل الأشياء    المدرسة والحجرة والفناء. أعطيتهم ظهري ومضيت في الطريق الزراعي باتجاه محطة القطار التي تخلو من رصيف وساعة وبشر. ضايقتني الشمس، جف حلقي وسمعت النباح يصدر من بطن الأرض. كورت خطاب الانتداب في يدى، لم يهتم الناظر باستلامه، فرميت به إلى ترعة ضحلة. من البعيد رأيت قطاراً يمرق، ولكنها طلعت علىّ بعينيها الواسعتين وقبعتها القماش، لوحت لى بيدها، وبيدها الأخرى قلة ماء رفعتها لأعلى وابتسمت، كنت عطشاناً ولكن خفت من هذه الطالعة كالزهرة من كوم قش.

# صـــورة وحيـــدة

كنا حولها متشحين بالأسى، مفزوعين بالذى قد يأتى حالاً، كنا بالنسبة لعينيها الذاهبتين مجرد صور مغبشة. تترقرق العين بالدموع، وتتهدج الحروف فى الحنجرة، وتنكسر الابتسامات أمام البدن الضئيل عند حافة الموت.

النافذة المفتوحة تسكب الضوء على وجه العجوز فلا تبين سوى ملامح قديمة استسلمت، وارتعاشة بالذقن الصغير، وقلة الماء على الإفريز يطل منها عود نعناع أخضر. رفعت أمى العجوز وجهها بوهن، وقد حاولت رفعه بكل قوة كى ترانى، وأنا لم أعد فى حجرها الآن، وأنا حتى لا أستطيع التحدث إليها.

حاولت فتح عينيها كى ترانى. أعرف، حبست دموعى فاختنقت. هزت يدها هزة خفيفة، فارتجف قلبى. كم أود أن أرمى تحت قدميك عشرات الحكايا التى لم أحكها لأحد وتؤرقنى.لو يرجع الزمن لحظة كنا نجلس معا ترنو إلى ونهمس لبعضنا كعشاق ثم تربت على: يخليك. هكذا قولها، فيما كانت تتألم بصوت كتوم، سألتها أن أحضر لها ما تشاء، تمتمت:

"أعوزك طيب"

طلبوا منى أن أكلمها، حاولت، الصوت حشرجة. لماذا لاتنهضين وتنقذينني وتضعين الريحان فى جيب قميصى وتبتسمين ثم تخبئين صورتى فى صدرك؟

بجبهتى سندت على جبهتها، وجهها غاية فى النحافة، حقن "اللاسكس" امتصته. قبلت الجبهة الباردة. رأتنى للمرة الأخيرة، همست: "ودينى

سألتها: للطبيب؟

هزت رأسها بعنف ليس فيها، وبزهق لم يبدر منها حين كنا نمشى المسافات الطويلة حاملة فوق رأسها الخبز والفاكهة والذرة المشوية حتى تأكل ابنتى. هزت رأسها نفياً. قالت تحدثنى حديثها الأخير، قالت فى آخر حكاية تحكيها لى، قالت وباختصار: "ودينى عرفت إلى أين تودين الوصول. ترددت للحظة، بينما ضربت أختى على صدرها وشهقت "أمّا"

رددت عليها بصدق ووعد: حاضر يا أمى.

نزلت برأسها كأنها استودعتنى سرها، تنهدت كأنما ارتاحت من كل سنوات عمرها المثقلة بالحزن والحب والحنو والمرض، ثم خرجت آهة طويلة، تبدأ من لحظة قطع الحبل السرى حتى عم "على" الذى يحفر بكل همة الآن مستقرها الأخير

رجعت للخلف،التصقت بالدولاب الذى تحفظ فيه ملابس

أبى وملابس أختى وتذكارات قديمة، والمناديل الجميلة التى كانت تهوى اقتناءها وفى كل مرة ترانى تشدنى برفق، وكحبيبة تقول: "خد المنديل ده.. خده  تحسست بيدى ضلفة الدولاب ن لم تستعمل المفاتيح أبداً، هربت عيناى إلى صورتها المعلقة على الحائط.. جميلة ..كاسمها  جميلة" وشها مدور، عيناها واسعتان وابتسامتها حنون.

قالت أختى أن أمى ابتسمت فى ذلك اليوم البعيد بعد أن أصر المصور أن تبتسم. لم تكن خجلى، بل حاولت البحث عن ابتسامة عريضة فرحة بشبع فلم تجد، وأخذت تشكو لأن الجميع يضغط عليها فى كل شئ حتى من أجل صورة. استسلمت ليد المصور وهو يعدل طرحتها وكتفها ويرفع ذقنها . المرتعشة الآن . لأعلى، وكيف تبحلق فى كشافات الضوء؟ وقلب أختى يدق من أجل الصورة، وخجلت أمى كثيرا وهى تتأمل صورتها بين يديها.

بعد سنوات تمكنا من تكبير الصورة ووضعها فى إطار مناسب غير مزخرف، وقور مثلها، وعلقتها هى فوق سريرها.

فى البداية كانت صورتها فى الإطار وحدها مضيئة وحلوة ورائقة، وذات مرة وكنا نشرب الشاى معاً، وكانت تسر لى بأحداث البيت الذى تركته منذ زمن طويل، إذ بى ألمح صورة أبى الصغيرة وقد حطتها فى الإطار، كان على رأسه "الطربوش  وابتسامته الدافئة تطل علينا، وخيل لى أن أبى فى نظرته لليسار كان يرنو إليها. ابتسمت، ربت على كتفها: "تعيشى وتفتكرى

ظلت تهتم بتنظيف وتلميع الإطار وفجأة سألتني عن صورة لجدتي الحاجة التي ماتت منذ زمن لا أعرفه، وضحكتُ كثيراً.

مرت سنوات وصورة أبى وحيدة بجوار صورتها الوحيدة، وفى عامها الأخير هذا رصعت الإطار بالصور. بجانب صورة أبى مباشرة صورة أختى التى ماتت بذات مرض أمى، وأمى تقول أن أختى لا تنظر سوى لها، ولا أحد يراها كما تراها، ثم صورة خالى وعلى رأسه طاقية هو الذى مات وحيدا بالمستشفى العام بعد أن تركته أمى ليلة واحدة لترتاح فى البيت من تعبها الذى يبدو قد طال قلبها . كما أخبرنى الطبيب فى المرة الأخيرة وفوق صورة أبى حشرت صورة خالى الثانى الذى أقعده المرض سنوات كنت خلالها أزوره مع أمى ويحكى لى عن علاقته بجنية البحر وبأنه محرم عليه دخول المقابر، أضاحكه، ولماذا لم أستطع أن أضاحكك يا أمى اليوم.

أحسست بازدحام المكان، ثم بدأوا فى تهيئة البيت من كنس وتنظيف وترتيب للكراسى، وأخطروا العمة والخالة والبنات والأولاد. لمحتهم يعدون لشئ قبل حدوثه، تسللت لأنفى رائحة الشيح، وأخذت ابنة أخى تتلو القرآن. تعثرت قدماى. تقدمت إلى حلمى الكبير العجوز الذى ستقتله اليقظة بعد قليل. أمسكت يدها، يا لله، بيدها الأخرى تربت على يدى خلسة من وراء العالم أجمع،انحنيت وقبلت الكف وشممت فيه رائحة الطبيخ والشاى وكعك العيد والسندوتشات، ورأيت بعضاً من دموعى التى كثيراً ما

مسحتها برفق، وأقول فى نفسى لا تموتى، ولكن هيهات إنه سيقبل رغم ازدحام الحجرة ورغم رغبة الحياة. طالعتنى صورة ابنتى الضاحكة وقد وضعتها أمى بين صورة أبى وصورة خالى، إذ أنها فى الشهور الأخيرة لم تكتف بصور الأموات بل وضعت صورة أخى الكبير وصورة أختى الأصغر عندما كانت صغيرة وصورة ابنة اختى قبل أن تتزوج وتتحجب.

سمعت الهمهمات فتأملت الصور باستغراق، حشد من الصور الغريبة، صور ملونة وصور أبيض وأسود وشيوخ وأطفال، كل الصور صغيرة بعضها مهترئ، والآخر قويا لايزال.

حين انفجر النحيب والصراخ والبكاء ابتسمت أمى فى الصورة، ابتسامة ليست عريضة كما أراد المصور، ولكن فى الابتسامة كل حكاياتها الطويلة المريرة.

أخذتنى عيناها الجميلتان الواسعتان فى الصورة، ولم أر بقية الصور التى بدت بجوارها شاحبة، فيما انزلق عود النعناع الأخضر فى حلق القلة المبتل.

# هواجس رجل عجوز

## صورة

يجلس العجوز كل ليلة وأمنية واحدة لا تفارقه: أن يجلس علي الأرض ويشد ضلفة المكتبة التحتانية ويخرج العلب الكرتون التي يحفظ فيها صور ستين عاماً مضت من حياته.

كل ليلة، وهاجس يخيفه: قد تكون النظرة الأخيرة علي صوره ويموت.

يجلس العجوز، لاشئ غير صوت الثلاجة، يمد يده، يشد الضلفة، يخرج الصور، يظل يتفرج، يبتسم، يزعل ويفرح.

استمتع بستين عاماً مضت، وأصبحت هوايته كل ليلة.

## السيدة

قالت السيدة أنها في حاجة لشراء عباءة جديدة.

ثار الزوج، دهس عقب سيجارته في لمعة السيراميك.

رمى ما معه من فلوس للزوجة، ونزل الدرجات ممسكاً بالدرابزين الخشبي، يخشى أن يقع أو يغمى عليه فجأة.

في الشارع التجاري تتفرج علي أشكال وألوان وأنواع العباءات. تلف وتدور حتى تعبت.

رمت علي تربيزة السفرة ما اشترته: حمالة صدر وقميص للزوج.

## رجل دقيق للغاية

يراجع غلق الحنفيات، وأنبوبة البوتاجاز، وكالون باب الشقة، يتمدد علي السرير، تشد زوجته الغطاء، يركبه القلق، ينهض يفتح أدراجه، يراجع شهادة تأدية الخدمة العسكرية، يستف أوراق شهادة الميلاد والتخرج من المدارس وفواتير الكهرباء والمياه وإيصالات إيجار الشقة.

في الصبح يتأكد أن بجيبه البطاقة العائلية، في الشغل يراجع مكاتبات الأمس، وتوقيع المدير، وختم النسر، ويشتغل بدقة في مكاتبات اليوم، في البيت يتحسس البطاقة ويضع المفاتيح بعناية علي التربيزة، ويعد علي أصابعه المكاتبات التي أرسلها اليوم، يعض أصبعه لأنه لم يرم السلام علي جاره، ولأنه لم يضع شهادة أداء الخدمة العسكرية بعناية في مكانها و..

- بابا .. أنت لابس الشراب بالمقلوب

تقول ابنته.

## موبايل العجوز

تجاوز الستين من عمره، اشترى موبايل وتعلم تشغيله بصعوبة،

وبصعوبة تمكن من تسجيل أرقام هواتف أصدقائه، يرد أو يتصل فقط، لم يبعث برسالة لأحد.

يحلو له مراجعة أسماء أصدقائه، أو الاتصال، أو يداعبهم ببعض الرنات.

لما مات أول صديق وفقد الرقم الأول لم يشأ أن يلغي اسمه ورقمه.

بعد سنوات لم يتبق علي الموبايل سوى عدة أسماء مازالت حية، لكن لم يفته أبداً أن يطالع كل يوم الأرقام الراحلة.

## أبو فروة

ما أن يجلس بين أبنائه، في وقت يخطفهم من الكمبيوتر وأصحابهم ومذاكرتهم، حتى يحكي عن دار أبيه الجميلة، والنهر الكبير الذي كان يشق المدينة نصفين، وعن دور السينما التي اختفت الآن، وعن طيور بديعة كانت تحط في حجرته، وذكرى أيام بعيدة كان يلتف مع أخوته وأبيه وأمه حول "المنقد" الفخار يتابعون شواء "أبو فروة" ويزقزق كطفل لما يحكي عن طقطقة ثمرة "أبو فروة" حلوة المذاق.

يمصمص الأبناء شفاهم بإعجاب.

الصدفة جعلته يقابل رجلاً يبيع "أبو فروة" فاشتراه وهرول راجعاً فرحاً تحلقوا حوله. شواه بفرح علي البوتاجاز تراقص وهو يقدمه للأبناء، مدوا أياديهم بلهفة، بعد مضغة تفله الولد من فمه، وجرت البنت إلي حوض الوش بينما الصغيرة تقول بامتعاض

طعمه سخيف جداً

ولاحظ في عيونهم نظرة ريبة.

## ليلة العيد

الأضواء الشديدة المبتذلة ضايقته، كان يعدل نظارته بين حين وآخر، قاوم فظاظة الباعة، اشترى لابنتيه حقيبتين، ولابنه نظارة شمسية، واشترى لزوجته الترمس والبليلة وثلاثة كيلو موز وكيلو سوداني، وله كيس بن.

عند مدخل البيت المظلم تعثر وانكفأ، انكسرت نظارته وراح يبحث عن كيس البن.

## رمل البحر

يحضر مبكراً، يرمق البحر الهائج، يغرز عصا الشمسية في الرمل، ويجلس علي الكرسي البلاستيك، يتابع مركبة بعيدة، يلف الكوفية جيداً حول رقبته، وبحكم الجاكيت الثقيل حول جسده النحيل، والناس تحت المطر يتفرجون عليه من بعيد.

# عفاريـــت

## الطويلة النحيلة

أخيرا تركوها في أمان بالمستشفي العام، العملية نجحت، وتستطيع وحدها أن تأكل وتشرب وتذهب لدورة المياه. فرحت. وفي كل صباح سترى ولديها الصغيرين والأب في الزيارات.

في ليلتها الأولى نهضت بحذر، وأمسكت بطنها ووضعت رجليها في الشبشب، وابتسمت لجارتها العجوز النائمة علي سريرها، الليل بعد منتصفه وكفت الزقزقات التي تحبها، حفيف الشبشب في الأرض له صوت، دورة المياه آخر الطرقة، لاتبعد كثيراً عن حجرتها، واصلت فرحها بالمشي وحيدة، دخلت الدورة الخالية غير لمبة نيون وحيدة في منتصف السقف تضيء كل الحمامات، سندت علي حافة حوض المياه، فتحت الحنفية وبدأت في غسل يديها، وجدتها واقفة صامتة بجوار الحوض المجاور، نحيلة جداً وطويلة أيضا ووجها النحيل يتميز بعينين واسعتين مدورتين، اندهشت السيدة لرؤية النحيلة فجأة وكانت الدورة خالية تماماً عند دخولها، قالت

السيدة: مسا الخير. النحيلة لم ترد، وبعينيها الواسعتين المدورتين أخذت تتفحص السيدة بوجه بارد وصموت. واختفت، فجأة أيضاً، لعله الدوار هاجم السيدة، خافت من السقوط علي الأرض فهرولت ممسكة ببطنها ورجعت حجرتها وارتمت علي السرير.

في الصباح طبطب عليها الزوج ، قال الطبيب إن ضغط دمها مضبوط ودرجة حرارتها عادية وستصبح أفضل في الليالي التالية.

في الليل نام الجميع، وهي رأت أنها بحالة صحية طيبة ولا تشعر بدوار ونهضت ودخلت دورة المياه، وقبل أن تمد يدها لتفتح باب الحمام إذ بها ترى ذات النحيلة، وكانت عينيها الواسعتين أكثر احمرارا، تلعثمت السيدة وقالت: مسا الخير. النحيلة تبص في صمت وجمود، لا ترد السلام، لا تتكلم. أدارت السيدة رأسها وخط لها أن تسألها لماذا لا ترد أو ... أدارت السيدة رأسها باتجاه النحيلة فلم تجدها، حالا اختفت، جرت السيدة، في الطرقة الطويلة لم تجد أي أحد ولا النحيلة الطويلة فيما الصمت يسود.

في الليلة الثالثة حين وجدت النحيلة الطويلة في انتظارها علي باب دورة المياه بذات العينين الواسعتين، وبصمتها، جرت السيدة مرعوبة، ووقعت علي الأرض، رفعت رأسها فلم تجد النحيلة، ولما سقطت علي السرير كانت العجوز بجوارها يعلو شفتيها ابتسامة غامضة، لفت السيدة نفسها بالغطاء واستيقظت علي ابتسامة المرضة تهمس لها: عال عال .. الصحة طيبة .

سبع ليال وهي تلتقي بالنحيلة الطويلة في أركان مختلفة في دورة المياه. يصيبها الفزع وتختفي.

كتب لها الطبيب: خروج اليوم. لمت أشياءها في كيس كبير: الحلة الصغيرة، والكنكة، والدورق والكوب وملعقة وجلبابين. ضحك زوجها عندما وجدها في انتظاره جالسة علي حافة السرير.

علي باب المستشفي رفع الزوج يده ليوقف تاكسي. السيدة استندت بوهن إلي البوابة باغتتها النحيلة الطويلة بعينها الواسعتين وقالت للسيدة: صباح الخير أين شباك التذاكر يا أختي؟ ارتعشت السيدة وسألتها: ألم تدخلي المستشفي من قبل. ابتسمت النحيلة وهزت رأسها نفياً، أضافت هي المرة الأولي .. ولست من المحلة.

## العائلة

انتبه جيداً لحكاية جد جدي

هكذا يقول الأب لابنه الكبير قبل أن يطفىء النور، ويتمدد على الكنبة مبحلقا بعينين لامعتين في ظلمة السقف، يعقد ذراعيه فوق صدره، فيما الابن الكبير يجلس على الكرسي الخشبي وقد ضم كعبيه لبعضهما، والجلباب الأبيض الناصع لا يغطى ساقيه، تتدلى يداه على جانبيه ، ولمسة برد تلسعه. يستمع لأبيه ..

انتبه جيداً لحكاية جد جدي التي بدأت بأن أولاده الثمانية والمتدرجين في العمر إلى ثمانية عشر سنة منهم خمسة صبيان

وثلاث بنات، كلهم، كما تبدأ الحكاية، يخافون القطط، وبشكل لافت، وصاروا أضحوكة في الحي، لو صادف أحدهم قطا وهو يمشى في الحارة يصرخ ويفزع ويجرى يحتمي بأبيه وأمه، وربما اختفى في الدار لا يخرج منها أياما.

في المقهى حاصر الشيوخ والرجال جد الجد وسألوه حلاً، فقد حاولوا منع القطط من دخول الحي بلا جدوى، القطط تقفز من أعلى البيوت، وهو العارف بأن للقطط سبع أرواح لكن الرعب الذي يقتل أولاده جعله يفكر في الرحيل عن الحي، وما كل أحياء المدينة إلا دور ودكاكين وقطط لا يمكن محاربتها، حتى همس له الشيخ بالحل الأمثل.

في صباح العيد الصغير دخل جد جدنا على أولاده حاملاً بين يديه قطة صغيرة جداً، لونها أسود وفى غرة رأسها شعيرات بيضاء، تماسك الأولاد في البداية، التصقوا بالجدار خوفاً، ثم تشجع واحد وراء الآخر واقتربوا من الكائن المرعب المدفوس في حضن جد جدنا، تأملوه بدهشة، قطة صغيرة تموء بضعف ، أخذ جد جدنا يلاعبها، يرميها لأعلى ويلتقطها، يربت عليها، يمسح شعرها، يجلس علي الكليم ويضعها في حجره فتروح في سابع نومه كطفل رضيع، يبحلقون مبهورين وفي لحظة تاريخية تقدم ابنه الكبير بحذر، و مد يده المرتعشة ولمس شعر القطة التي لم تتحرك، مسد شعرها. ثم في جرأة طبطب على رأسها، فتطلعت إليه بعينيها وماءت بنعومة ورجاء فانفجر الجميع بضحك هستيري.

تعودوا عليها ابن وراء ابن، والجدة الكبيرة كانت تجهز لها رضعة اللبن، وتطمئن عليها في الليل عندما تنام وسط الأولاد، حتى كبرت القطة وخاف جد جدنا أن تهرب بعد أن حطت السكينة في صدورهم، وبعد أن أشاد الجميع بأولاده الذين أصبحوا يمشون في الحارة بلا خوف من القطط، صار يراجع قفل الأبواب و إحكام الشبابيك كل ليلة خوفاً من وقوع المحظور وهروب القطة، ثم توصل لفكرة عبقرية: أن يأتي بقط ويزوجه لقطته، وافق الجميع على الفكرة وتزوج القط من القطة، وأنجبا العديد من القطط ملأت البيت بهجة ومواء، واحتلت تحت السرير وفوق الدولاب، والطرقات، والبلكونة، والسندرة.

انسحب خوفهم من القطط، وصار لكل منهم عدداً من القطط تنام في حضنه، وتنتظره وتأكل معه، الأم لا تبدأ نهارها الإ بعد أن تلمع الصورة الكبيرة المتصدرة الصالة وفيها جد جدنا والجدة الكبيرة وأربع قطط تلتمع عيونها، وتلمع صورة الابن الكبير صاحب الجرأة التاريخية، صورته وهو يحمل بين ذراعيه القط الأكبر الذي يبص في ثقة للكاميرا.

هذه هي حكاية جد جدنا مع القطط . هل يمكن أن تنام الآن ؟

ينهض الابن من كرسيه الخشبي، ينحني، يقبل رأس أبيه ذي الشعر الأسود الذي زحفت على سوالفه شعيرات بيضاء، ويهمس: تصبح على خير يا أبي. ويمشي بحذر في الصالة خوفا من أن يدوس

أي قط من القطط التي تملأ البيت وهي من سلالة قطة جد الجد، يدخل حجرة نومه مع أخويه وأخته، ينامون في الظلمة، من أزة الباب ينهض أخواه وأخته يزومون وينظرون له بغيظ ودهشة، وهو يرتجف من اتساع حدقاتهم والتماعها في الليل.

## أتمنى لو أنساك

البيت ذو الطوابق الثلاثة يسكنه الهدوء، وبعض الأغنيات الخفيفة عن الحب تنطلق من حجرة سهير، التي تتقلب علي جنبيها وهي تفكر بالذي وعدها بالزواج وانه آت مع الأب والأم ليطلب يدها.

رفضت الأم أن تزوج ابنتها آخر العنقود لولد معه ليسانس آداب ويشتغل على توك توك عبثاً حاولت سهير، لكن الأم وابنها الكبير المتزوج ويعيش في القاهرة وابنتها المتزوجة والتي تعيش في الإسكندرية، الجميع رفضوا بشكل قاطع أن تتزوج سهير الحاصلة علي ليسانس آداب ولا تعمل رفضوا أن تتزوج من سائق التوك توك مع شهادته العليا.

انقطعت الأغاني من حجرة سهير وجسلت الأم وحيدة في بلكونة الطابق الثاني وتحول الهدوء إلي صمت، إلي أن تحول الصمت إلي صراخ وضجيج ونار والعة في البنت سهير التي أشعلت النار في نفسها لتحترق لأنها لم تف بوعدها لحبيبها.

هرع الجميع لشقة أم سهير لكن بعد أن ماتت سهير محترقة،

والحاجة أم حسن منعت الأم من إلقاء نفسها من بلكونة الطابق الثاني.

شعر السكان أن البيت تحول لمقبرة وتشمم آخرون رائحة جسد المسكينة سهير التي كان لها شعر أسود ناعم، وابتسامتها كانت للجميع أثناء صعودهم درجات السلالم أو النزول، شاركت أهل البيت بطوابقه الثلاثة في أعياد الميلاد والأفراح بالغناء والرقص وأغنيتها المفضلة في كل حال "أهواك" لحليم، حتى أن صغار البيت عندما يسمعون "أهواك" يصيحون أغنية سهير.

وبدأت المشكلة مع هؤلاء الصغار الذين يصعدون السلم وعند شقة سهير يجرون في رعب وخوف وأحياناً يصرخون. لكن السكان أكدوا مخاوف الأطفال، إن من يحرق نفسه ويموت فعفريته لا يبرح المكان.

ازدادت المخاوف والتوهمات يحكون ويطورون الحكايات: شفت بعيني سهير علي درجة السلم الوسطانية تلبس فستان الفرح، مرت سهير بجواري وأنا راجع من المقهى أمس أحسست كأن النار تلسعني.

لم أعيد أطيق الشقة في الليل لا تنام صوت سهير يغني بلا توقف أهواك أهواك وأتمنى لو أنساك.

عفريت سهير .. هكذا أصبح اسمه، هو الذي يخيف وهو الذي ينقل الأشياء في الليل، وهو الذي يبث أغنية أهواك في أي وقت، وهو الذي يتقافز علي السلم ليل نهار، هو الذي يجري خلف العيال.

في ظهيرة يوم قائظ، عزلت أم حسن وزوجها وأولادها الصغار، وقالوا أنهم ينجو بأنفسهم من عفريت سهير.

بعدها بأسبوع واحد سحب الحاج أولاده وزوجته من الطابق الأول وأخذوا يصرخون أنقذونا من العفريت الذي لا يكف عن الدق والغناء طول الليل. ومضوا.

لم يبق سوى أم سهير التي اقترح عليها أولادها أن يأخذونها معهم، لكنها رفضت، وظلت وحدها في البيت تحلم بأن ترى سهير حتى لو عفريت، أين عفريتها ولماذا لايظهر لها. ربما في السواد والحلكة، تطفأ كهرباء البيت في منتصف الليالي، تنزل الدرجات بحذر وفرح أن تلتقي بابنتها أو عفريتها، تجلس علي درجة السلم تبكي ها أنا يا سهير اطلعي لي يا سهير شدي طرحتي أو خلي نارك تلمسني أو جرجريني علي السلالم يا سهير.

سنوات طوال، مات فيها الابن الكبير، وتزوجت ابنة الابنة، وأم سهير وحيدة في بيت بلا سكان تعض علي شفتها السفلى وتبكي وتنتظر العفريت عبثاً.

## ألعاب الأرانب

قالت الأم لابنتها "محاسن إذا تأخرت عند خالك نامي في حضن زوجة خالك ولا ترجعي وحدك في الليل. ذلك لأن محاسن بيضاء وشعرها أصفر وجميلة وصغيرة، وحول رقبتها سلسلة بها خرزة زرقاء، ورغم سنوات عمرها الأثنى عشر فهي تحفظ أغنيات

شادية، وترقص مثل سامية جمال، وتدفس رأسها بين النسوان، وتعرف حكايات الرجال مع زوجاتهم، وكثيراً ما تتأمل جسدها أمام المرآة وكثيراً ما تراها الأم وتطلب الستر من الستار، لذلك شددت عليها إذا تأخرت أن تنام في حضن زوجة خالها.

محاسن جلست عند خالها وتغدت وعاكست العيال وشاهدت مسلسل الثامنة مساءً وانكمشت من البرد في حجرة خالها تسمع له وهو يحكي عن العفاريت، لكنها حين دقت الساعة الحادية عشرة نهضت وقررت العودة لدارها، ولأن دماغها ناشفة لم تسمع لخالها ، فأرسل معها "خالد" ليوصلها للدار. خالد أشعل سيجارة، وسحبها تحت إبطه، وبرطم بكلمات غاضبة، يضغط على كتفها بيده اليسرى لتهمد، تنفلت، تقفز مثل عنزة، شارعها يبدأ من أول جسر قطار الدلتا ممتدا بين سكون البيوت الواطئة على الشمال ، وعلى اليمين أرض فضاء تمرح فيها الحشرات والضفادع في مياه راكدة عفنة ، والمصباح الوحيد معلق على باب دار الشيخ "عتمان وينتهي الشارع بالمقابر المظلمة القابعة على اليمين، ودار محاسن في الحارة السد على الشمال. تركها خالد بالضبط أمام عتبة باب دارهم في الحارة ورجع.

محاسن وجدت الباب الخشبي كالح اللون مغلقاً ، فأمسكت بال سقاطة " ودقت دقة ودقة و .. انتفضت إذ قفز بين رجليها شئ أبيض صغير، ودهشت لأنه أرنب، تراجعت للخلف، احترزت منه ،

وقف الأرنب في سكون ذليل، شجعها لتنقض عليه وتمسكه، لكنه في لحظة خاطفة فر، جرى قليلاً، ثم توقف، تقدمت باتجاهه واتسعت دهشتها حين ظهر فجأة أرنبان خلفه، كانا أكبر حجماً، لهما نفس اللون الأبيض الشاهق، التمعت عيون الأرانب، العيون حمراء مضيئة، تلعب الأرانب بآذانها في مسكنة، محاسن جرت باتجاه أجمل الأرانب وأكبرها حجماً، راوغها محافظاً على مسافة صغيرة بينه وبينها، ركعت على ركبتيها تناديه بأصابعها الدقيقة، يستجيب لحظات ويتقدم، تشعر بأنفاسه دفئاً في أصابعها، انقضت بيديها لتمسكه، فر، ضربت الأرض بيديها حسرة، ووقعت، فيما الأرنب يخايلها، تتقدم ويتراجع، سيدنو منها وتمسكه، و جرى بسرعة وقفز إلى العربة الكارو المركونة بجوار دار الحاج "صالح"، والعربة لعبتها كل يوم، يفك الحاج صالح الحصان ويجره إلى داخل الدار، بينما تنط هي على العربة مع البنات، يغنين ويرقصن ويقصصن حكايات العفاريت اللابدة في المقابر، نطت على العربة، لا تعرف كيف أصبح الأرنب في حضنها؟ ضمته وهي تصرخ بفرح، للأرنب رائحة المسك ودفء ينبعث من فروه الأبيض الناعم الحرير، ركن الأرنب رأسه في صدرها لحظات ثم قفز إلى الأرض كالملسوع، وقفت تصفق، ثم هالها أن الأرانب ملأت الحارة السد، صارت الحارة مؤرنبة! نزلت إليها لتمسك بأرنب من أذنيه، وجرت بينها، الصهد يطلع من قلب الأرض، تدور، تفتح ذراعيها وهي تدور، تدور الأرانب حولها،

تكاد الأرانب تقف على أطراف إظفارها، تخدعها الأرانب وتجري ناحية المقابر، محاسن تجري خلفها بخفة وسرعة، الأرانب تباغتها وتقف فجأة ، تقع محاسن، تجتمع الأرانب حولها وعلى بطنها، تدغدغها، تضحك محاسن بلا توقف، تتمرغ على الأرض والأرانب تتمرغ معها، سمعت ضحكات رقيقة خافتة وهمساً، لفحتها حرارة، سكنت الأرانب لحظة ثم انطلقت ناحية الحارة، جرت محاسن خلفها، رأت الأرانب تقفز إلى أعلى وتظل في الهواء كأنها تطير، الأرانب معلقة فوق رأسها، تحاول محاسن عبثاً أن تمسك بها، جيش من الأرانب يجري ويطير، محاسن لم تكف عن المحاولة، جاء أجمل أرنب يجري أمامها يقع ويتمرغ تحت رجليها، داعبته، وجرت، جرت خلفها كل الأرانب، محاسن تقفز الترع والجسور، وتخوض في الغيطان، وتطير من بين أفرع الشجر، وخلفها الأرانب تقفز الترع والجسور، وتخوض في الغيطان، وتطير من بين أفرع الشجر، محاسن تعثرت ووقعت سطيحة، انخلع الشبشب، وانحل شعرها، فوقها حطت الأرانب وانتابها ضحك ناعم رقيق بلا توقف، انتقلت نوبة الضحك إلى محاسن وظلت تضحك، انفلتت من الأرانب وجرت إلى عتبة باب الدار ووقعت من الإرهاق.

في الصبح الباكر فتحت الأم الباب كالح اللون، فوجدت محاسن نائمة علي العتبة بشعر محلول، وشبشبها مرمياً في وسط الحارة، خبطت الأم على صدرها بفزع، وزعلت من أخيها الذي ترك البنت الجميلة البيضاء ذات الشعر الأصفر ترجع لوحدها.

## بـــرواز

في البداية كانت الأصوات تتناهى من بعيد: ارتطام مكتوم، طقطقة سرير، جرجرة تربيزة، هبدة كرسي. ونادراً ما سمعوا الصرخة المبتورة، لكن بدأت الأصوات تصبح واضحة، عالية محددة، تبينوها قادمة من البيت الملاصق من الشقة المجاورة بالطابق الثالث ذي البلكونة المغلقة من سنوات والتي يطلون عليها من بلكونتهم بسهولة، والبلكونة غالبا ما تكونمتربة وبها بعض من ريش خفيف وزغب، طار وحط بها من شهور، وأحيانا تمسى البلكونة نظيفة، فيقول الأب لأبنائه ليطمئنهم: أفهمتم أمه تأتى من حين لآخر لتنظف الشقة، وهى التي تجرجر الكراسي لتكنس وتمسح.

حاولوا الاقتناع، حتى باتت الأصوات تأتى كأن عدداً من العمال يعمل بهمة وسرعة، وأصوات خبط وشيل وحط وأزيز، وفى تلك الليلة عاود صرخته المبتورة، ندت من الصغيرة آهة مفزوعة، ووقفت الكبيرة على السرير ثم قفزت ونادت على أخيها الأكبر وقفوا في البلكونة يبصون على البلكونة المجاورة، لا يسمعون صوتاً، يميل الأخ بنصفه الأعلى ويمد رقبته ولا يرى أي ضوء، عندما يعدون إلى أسرتهم يعم السكون، وما أن يشدوا الأغطية حتى تبدأ هسهسةَ، ثم أشياء تهتز، وتتحرك كراس من مكان لأخر، وذات مرة سمعوا بوضوح صوت تحطم زجاج، تقوست الصغيرة رعباً. تدخل

الأب والحاج صاحب البيت وأحضر أم فهمي صاحب الشقة، الذي اختفي من سنوات، أقسمت الأم أن زوجة ابنها المرحوم الذي قتله ابن الحرام في السوق، لابد أنها تأتي من خلف ظهرهم وتعبث بالشقة، وتقسم أن الزوجة التي لم تلد لها حفيداً قد سرقت برواز صورته المذهب، ورمت بصورته على الأرض، فأخذت هي صورة الغالي الذي قتله ابن الحرام في السوق، بينما أكد الحاج صاحب البيت أن أحداً لا يتجرأ على دخول شقة في بيته دون علمه، فتحوا الشقة، كان الانتريه بكراسيه الضخمة مستقراً في مكانه، والسرير مرتباً، والبرواز المذهب مرمياً على الأرض، زجاجه منثوراً، وصورة فهمي تحت البرواز وإن كانت ملامحه مختفية تماماً عدا ابتسامة واسعة على شفتيه.

## قطة عم سيد

من خلف باب الحجرة يتنصتون، بدهشة وفضول. هل جُن الرجل؟ تضرب جميلة علي صدرها وتنفي بالقطع: لا أبداً سيد يكلم القطة.

القطة السوداء التي دخلت الدار ذات يوم ولت تخرج منها، قطة سوداء وديعة، لم يستطع أحد إزاحتها عن الدار لا بالزجر ولا بالضرب، وتمسحت في ساقي سيد، وماءت بصوت رفيع به شجن، مال سيد عليها فنطت في حضنه وقال سيد بحسم أن هذه القطة لن تخرج من داره طالما هو حي يرزق. وبقت القطة تتجول في أنحاء

الدار، تنام في حجرة الزوجة، وتأكل من يد الأطفال، وتتمسح في سيد وتقفز إلي سريره.

في البداية قفزت بخفة وتمددت علي استحياء، ثم تمرغت وانقلبت ونامت في حضن سيد، ولا تنهض إلا بعد صحوة ، وجميلة تطبطب عليها بالراحة وتبسمل في كل آن. الولد الصغير "محمد هو الذي يعلن عن رعبه وخوفه ويصرخ عندما يرى في الليل عينيها اللامعتين المرعبتين فيما الأربع بنات يضحكن ساخرات منه، وحل سيد الموضوع بأن وضع حجاباً تحت مخدة "محمد لينام محمد قرير العين.

وانقلب النهار سواداً عندما دخلت جميلة فجأة علي سيد فوجدته فوق السرير راكزاً علي ركبتيه أمام القطة الملتصقة في الحائط وسمعته يقول للقطة:

اسمعي كلامي لن يسكت أحد

ضربت جميلة علي صدرها، فانتفضت القطة وكأنما طارت من فوق السرير لتحط علي الكنبة ، واستغرب سيد فعل جميلة وقال: من يحمي الحيوان المسكين إذن !! ثم زعق في الوجوه المتطفلة التي اقتحمت الحجرة: أعرف أن جميلة لن تسكت تخاف القطط والبوم لكن القطة مسكينة، تضربها بالمكنسة وبفردة الحذاء يا عالم حرام.

أهل الخير قالوا لجميلة: اتركيه في حاله .. عندك عيال.

تركته في حاله، وصارت القطة ذيله ، وصار من المعتاد أن تسمع جميلة سيد وهو يكلم القطة

- الرضا بالحال محال وأحياناً هو خير حال وعلينا أن نسمع الكلام .. من ينافسني في السوق ، ومن يشاركني في الدار .. وأنا عندي عيال .

ومن خلف باب الحجرة المغلق يتنصتون ويسمعون صوته الواهن:

- ضاقت بي الدنيا .. هل يذهب كل إلي حال سبيله .. والعيال .. لو عندك عيال سترجعين حقاً لزوجك لو عندك عيال لن يظل الحال كما هو عليه الحال .

ولا يقطع الكلام سوى مقبض الباب تتحرك بحذر، أو طفل يقتحم الحجرة بلا استئذان.

وسمعته جميلة بأذنها التي ستأكلها الدود يشكو لقطته بصوت ذليل:

- أنا تعبت وزوجتي تعبت وولدي وبناتي أخاف عليهم من غدر الزمان .. والقرش الذي يأتي يروح.

دخلت جميلة فسكت سيد وبحثت عبثاً عن القطة، ضحك سيد وضرب كفاً بكف وسأل تبحثين عن ماذا يا وليه ؟

ولما خرجت جميلة لوسط الدار كانت القطة في حجر الولد يلاعبها وهو عرقان.

تتقافز القطة كما تتقافز الأيام، حتى جاءت ليلة العيد الصغير ودخلت جميلة حاملة علي رأسها الحلة المملوءة باللبن، سيد حمل عنها الحلة ونزل علي ركبتيه وركن الحلة باللبن تحت السرير، وعندما شال الغطاء نظر إلي اللبن وصلى علي النبي ونهض فرح الولد والبنات غير أن جميلة قالت بكرة الصبح .. رطل لبن نشربه ورطل لبن نخبز به الفطير.

ونام الجميع وسيد وجميلة فوق السرير طول الليل ، جميلة تحلم وسيد يشخر.

في الصبح ضربت جميلة علي صدرها ولطمت وصرخت ذلك لأنها عندما شالت غطاء الحلة لم تجد اللبن، ولا قطرة لبن، بص سيد للحلة الخالية واللزوجة المرعوبة وللولد والبنات وهم يخفون ضحكتهم وإلي القطة التي تجلس علي الكنبة وتهز ذيلها. ثم همس لزوجته:

ولا كلمة ما حدث قد حدث

وخرج لا يلوي علي شئ .

## جـار النـبي الحـلو

• مواليد ١٩٤٧/١/٢٩ – المحلة الكبرى.

**صدر للكاتب:-**

• القبيح والوردة – قصص قصيرة – دار شهدي ١٩٨٤

• طعم القرنفل – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦ – طبعة ثانية مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

• الحدوتة في الشمس – قصص قصيرة – دار الغد ١٩٨٩

• طائر فضي – قصص قصيرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ – طبعة ثانية ٢٠٠١

- حلم علي نهر – رواية – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣ – طبعة ثانية – مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ط ثالثة دار " أرابيسك" ٢٠٠٩
- قمع الهوى – قصص – دار ومطابع المستقبل ١٩٩٤
- حكايات جار النبي الحلو – حكايات – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٧ – طبعة ثانية مكتبة الأسرة ٢٠٠٤
- حجرة فوق سطح – رواية – المجلس الأعلى للثقافة١٩٩٩
- قمر الشتاء – رواية – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣
- عطر قديم – رواية – طبعة أولى – دار المحروسة – ٢٠١٠

**كتب للأطفال :-**

- محاكمة في حديقة الحيوان – رواية – أبو ظبي ١٩٩٢

- قط سيامي جميل – قصص – كتاب قطر الندى ١٩٩٦
- ليلة سعيدة يا جدتي – قصص – كتاب قطر الندى ٢٠٠٣
- الكتكوت ليس كلباً – قصة – دار الشروق ٢٠٠٣
- أنا ومراكب أبي – قصة – دار الشروق ٢٠٠٩
- الجرو والسيدة العجوز. كتاب قطر الندى ٢٠١١

**مسلسلات تليفزيونية للطفل:-**

- أصيل في أرض النخيل ثلاثون حلقة
- أصيل في السيرك الكبير ثلاثون حلقة
- حكايات منسية ١٥ حلقة
- كنز الواحة ١٥ حلقة عرائس
- فرس يدق الجرس ..١٥حلقة عرائس وبشرى
- حدوتة في حدوتة ..٣٠حلقة بشرى عرائس مسرح أسود
- الجبرتي ..١٥حلقة عرائس
- حواديت جميلة ٣٠حلقة – كارتون

• طيور صغيرة فيلم أطفال

• ريش الطاووس فيلم أطفال

**جوائز وشهادات تقدير:-**

• حصلت المسلسلات على جوائز ذهبية وفضية وبرونزية في مهرجانات القاهرة لسينما الأطفال ومهرجانات الإذاعة والتليفزيون

• جائزة أحسن كاتب سيناريو أطفال عن سيناريو " حكايات منسية - مهرجان الإذاعة والتليفزيون ١٩٩٦

• الميدالية الذهبية - مهرجان القاهرة للإذاعة والتليفزيون ١٩٩٦

• شهادة تقدير للأداء المتميز في دعم ثقافة الطفل ١٩٩٧

• تكريم من جمعية المسرحيين - دولة الإمارات العربية المتحدة - في مهرجان الشارقة المسرحي ١٩٩٧ .عن مسرحية الأطفال "سرقوا الكأس يا ماجد"

• شهادة تقدير من الهيئة العامة لقصور الثقافة - الإسكندرية -١٩٩٩

• تكريم من صوت القاهرة – اتحاد الإذاعة والتليفزيون – لحصول مسلسل الجبرتي على الجائزة الذهبية ١٩٩٩

• جائزة التفوق من الهيئة العامة لقصور الثقافة – مؤتمر أدباء مصر في الأقاليم – مرسى مطروح ٢٠٠٠

• الجائزة الأولى محترفين عن قصة " الكتكوت ليس كلباً " ٢٠٠٣

• فيلم طيور صغيرة " حصل على الجوائز الآتية:

- الجائزة الذهبية للأفلام القصيرة – في مهرجان القاهرة الدولي لسينما الطفل – ٢٠٠٨

- الجائزة البرونزية للأفلام الروائية القصيرة في مهرجان القاهرة الدولي لسينما الطفل ٢٠٠٨

- الجائزة الذهبية من وزارة الثقافة للأفلام العربية

- جائزة التميز من إتحاد كتاب مصر ٢٠١٢

• رئيس تحرير سلسلة كتاب قطر الندي

# المحتوى

•من مجموعة قمع الهوى 1994 ...................... 5
هي 7
طـــائر فضـــي ...................................................... 9
العشـــب 25
زهـــرة الشمـــس 33
العـــازف ............................................................ 35
نخيـل النشيـد 37
قمـــع الهـــوى 41
وســـن 47
غـــزال 53
خفـــق 59
ملـــح على جـــرح 63
البكـــاء الأخيـــر ................................................... 65

**•من مجموعة طعم القرنفل** 1986 ........ 73

الفـــظ ........ 75

الإرث 77

المبــاح 87

طعـم القرنـفل ........ 95

**•من مجموعة طائر فضي** 1990 ........ 103

عـــــزاء ........ 105

ولم يتـوقف الضحـك ........ 113

وذنـب مغفـــور ........ 123

ساكـن الطــابق الخــامس ........ 131

طــابع بــريد 137

حــارس البـــحر ........ 145

**•من مجموعة القبيح والوردة** 1984 ........ 151

القـبيح والـــوردة ........ 153

البيوت 167

الخمـــيس ........ 179

اللعبــة والخـــاتم ........ 193

العنــب ........ 205

المــوت والعصافير ............................................. 221
في الجنيــنة 229
الحريـــق ................................................................. 235
البئـــر ...................................................................... 243
هذا يـــوم طيـب للحيـــاة 251
**•من مجموعة الحدوتة في الشمس1989...259**
قــرط فضـــي صغيـــر................................... 261
انتظـــار .................................................................. 271
عزيـــزة 277
التـــابع والحصـــان ......................... 285
الشـــونة 297
الحدوتـــة في الشمـــس 307
الديـك الأحمـر 317
الشتـــاء 327
الجريـــدة ................................................................. 339

**•قصص لم تنشر في مجموعات**................349
فتاة وقبعة من قش................................351
صورة وحيدة 357
هواجس رجل عجوز..............................363
عفاريت 367

لم يتذكر أبدا عندما مات جده ، كان صغيراً . .
لا يتذكر سوى البكاء والسرادق الفخم الذى سد الشـــــارع ، وأن أباه كان يأخذه إلى المطبخ ليأكلا - بين الحين والآخـــر - دون أن يراهما أحد ، أقسمتْ أمه أن البيت ذا الطابق الواحد لن يباع مدى الحياة ، لأنه الذكـــرى الباقية لأبيهما الذي رباهما أحسن تربية.

تصميم الغلاف / أحمد فؤاد صالح

www.gocp.gov.eg

الثمن أربعة جنيهات